المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد الثاني والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٣ — ٤ رمضان سنة ١٣٥١

رواية الاشعة الكونية

كيف كشف عنها — كيف تقاس قوتها — الاختلاف في اصلها علاقتها ببداية الكون ونهايته

ما هي الاشعة الكونية ؟ من اين تأتي ؟ هل في طيات امواجها اسرار الخلق ؟ هذه هي المسائل التي يحاول علماء الطبيعة الاجابة عنها بالتجربة والامتحان آناً وبالجمع بين التجربة والنظر الفلسفي آناً آخر . ومن رأي الدكتور جنصن الاستاذ بمعهد بارنُل الاميركي للبحث العلمي، انهُ لا يعرف في تاريخ العلم مسألة ، اختلف العلماء في الاجابة عنها اختلافهم في الاشعة الكونية

***

من عهد قريب صعّد العلماء الالمان هورلن Hoerlen وكنزل Kinzl وبورشرز Borchers الى قمة جبل «هوالاكان» في سلسلة جبال الاندس وعلوها ٢٠ الف قدم فوق سطح البحر، وقضوا هناك ثمانية ايام كأنهم عقبان على صخرة شاهقة ، يقيسون قوة هذه الاشعة . وفي هذا السبيل نفسهِ فتن العالمان الاميركيان كارپ Carpe وكوفن Koven في محاولتهما الصعود الى قمة جبل ما كنلي في الاسكا . أما الاستاذ كمطن الاميركي، رئيس بعثتهما فقد رحل مسافة ٥٠ الف ميل بين خط العرض الجنوبي ٥٦ وخط العرض الشمالي ٦٨ مخترقاً في رحلتهِ خمس قارات ومجتازاً خط الاستواء اربع مرّات ، حاملاً معهُ الآلة الخاصة التي بناها لدرس هذه الاشعة . وها هو الاستاذ هس الالماني يصعد الى قمم جبال الألب وزميله الاستاذ كولهرستر يبتني صعلهُ في الجد على جبل اليولفغروٌ بسويسرا بغية النفوذ الى اسرار هذه الاشعة . ولكن

الاميركي يبعث آنا بالونات مجهزة بآلات مدوّنة الى مرتفعات عظيمة في الهواء ، ويصعّد آونة اخرى في جبال بوليفيا او كاليفورنيا او يرتاد الاصقاع القطبية لهذا الغرض. ويجاريه الاستاذ رجنر الالماني فيرسل في الجوّ بالونات آلية التدوين او يغرق آلة قياس الاشعة في مياه بحيرة كونستانس لمعرفة اثر الماء في حجبها . بل هذا هو الاستاذ پيكار يرتفع ببالونه مرتين الى علو ٥١٫٧٥٨ قدماً ثم الى ٥٣٫٦٧٢ قدماً فيضرب الرقم القياسي العالمي في التحليق الى اعلى ما بلغهُ الانسان، ولكن هذا الفوز ليس الغرض الذي يرمي اليهِ في هذه المغامرة الجريئة بل غرضهُ قياس قوة الأشعة في الطبقة الطخرورية من الهواء Stratosphere

مضى هؤلاء العلماء وعشرات غيرهم في طريقهم نحو هدفهم ، غير عابئين بالقيظ ولا بالزمهرير، بالسغب ولا بالتعب، بالحشرات ولا بالوحوش، لان في نفوسهم روح الرواد العظام. والعلم اذا دفع ابناءهُ في سبيل البحث عن اسرار الطبيعة نفث فيهم لهفة الباحث في قصر خرب عن كنز مدفون

***

وتاريخ الأشعة الكونية يرتدُّ الى اوائل هذا القرن. كانت عناصر الاورانيوم والثوريوم والراديوم والپولونيوم وغيرها من العناصر المشعة في ذلك العهد عجائب استرعت عناية الباحثين بما ينطلق منها من اشعة الفا وبيتا وغما ، وبمقدرتها العجيبة على جعل الغازات قادرة على ايصال الكهربائية . وبعد بحث قليل ثبت ان في صخور الارض مقادير كبيرة من العناصر المشعة ، وأن مياه بعض الينابيع مشعٌّ كذلك . ومن الصخور كانت تنطلق اشعة تحزق بعض ذرات الغازات التي يتركب منها الهواء فتجعلهُ موصلاً للكهربائية لان غازات الهواء في حالتها الطبيعية موصل كهربائي رديء . واذاً كان من الطبيعي ان يعمد الباحثون الى قياس اثر هذه الاشعة في «تحزيق» ذرات الهواء . فأخذ ثيودور ولف (Wolff) الاب اليسوعي ادواته ، وصعد الى قمة برج ايفل بباريس ، فظهر لهُ ان هذا الفعل اضعف عند القمة منهُ على سطح الارض . وكان ذلك منتظراً لانهُ كلما بعدنا عن الصخور التي تطلق الاشعة ، يضعف فعلها

على ان الاستاذ ولف كان عالماً دقيق الحس قوي الملاحظة ، فاسترعى نظرهُ ، ان ضعف هذا الفعل في الهواء كان اقلّ مما يجب ان يكون. وقرأ العالم الطبيعي السويسري الاستاذ غوكل Gockel ما اسفر عنهُ بحث الأب اليسوعي فخطر لهُ ان يحلق ببالون لقياس فعل الاشعة المنطلقة من الصخور في الهواء على مرتفعات تفوق قمة برج ايفل . فصعد في سنتي ١٩١٠ و١٩١١ الى علو ١٣ الف قدم ، ونزل اشدّ حيرة مما صعد . ذلك ان فعل الاشعاع من الصخور ضعف اولاً ، ولكنهُ اخذ يزداد بازدياد ارتفاعه

وعمد هس Hess العالم الالماني الى الحساب الدقيق فتبين له ان اشعة غما وهي اقوى الاشعة المنطلقة من العناصر المشعة لا يمكن ان يظهر اثرها فوق بضع مائة متر فوق سطح

البحر لأن الهواء يمتصها . فاما ان تكون النتائج التي اسفرت عنها مباحث غوكل خاطئة ، او ان في الأمر سراً ، فاعادة تجربته للتثبت من صحة نتائجها امر ذو بال لا ندحة عنهُ . لذلك عمد هس الى البلونات التي تحمل ادوات آلية التدوين وأطلقها في الجوّ فارتفعت الى ١٦ الف قدم فوق سطح البحر . فلما هبطت قرأ ما دوّنتهُ الآلات فاذا هي تؤيّد نتائج غوكل كل التأييد . ولم يكتفِ بذلك بل حلّق بنفسه ، ثم اشترك مع زميله الاستاذ كولهرستر ، فحلّقا الى علو ستة اميال فوق سطح البحر ، فكانت نتائج التجارب المختلفة مؤيدة بعضها بعضاً . واذاً فلا مندوحة عن القول بان هناك اشعة قادمة من خارج الارض تمزّق ذرات الهواء . وهذه الأشعة عظيمة الطاقة قوية النفوذ ، تفوق اشعة اكس نفسها واشعة غما المنطلقة من الراديوم

***

وفي سنة ١٩٢٥ طلع الاستاذ ملكن الاميركي على الناس بنظرية جديدة وجّهت انظار الخاصة والعامة الى الاشعة الكونية ، فصار الكلام على كل جديد فيها يجد لهُ متسعاً في الصحف جنباً الى جنب مع انباء السياسة والرياضة والاجرام

ذلك ان الاستاذ ملكن ، كان قبل ذلك استاذاً في جامعة شيكاغو وهناك كان يجتمع بالاستاذ مكلن (W. D.) فكانا يتحدثان في النظرية السائدة حينئذٍ في نهاية الكون ، وملخصها ان الطاقة التي في الكون آخذة في التحول من طاقة قصيرة الامواج قوية الفعل ، الى طاقة طويلة الامواج ضعيفة الفعل . وانهُ متى تم هذا التحول ، اصبحت الامواج الطويلة عاجزة عن ان تكون الباعث على ظاهرات الكون والحياة (راجع مقتطف مايو ١٩٣٢ ص ٥١٩ — ٥٢٣) وكان مكلن مقتنعاً بان الذرات تبنى من الالكترونات والبروتونات في الفضاء الذي بين النجوم (interstellar space) فاذا صح ذلك فالكون ليس مصيرهُ الى الفناء بتحول اشعاعه ، لان بناء الذرات يجهزنا ، بحسب الآراء الحديثة ، بقدر عظيم من الطاقة قصيرة الامواج قوية الفعل . ولعل الاشعة التي تحيّر هس وكولهرستر ، تؤيد ما يذهب اليهِ مكلن

وقضى ملكن بعد ذلك سنتين يبحث خلالها في هذه الاشعة ويقيس قوتها ونفوذها للمواد ، فهو آناً يجرّب ذلك بالواح الرصاص ، وآناً بمياه البحيرات ، تارة في الجبال الصخرية في غرب اميركا الشمالية وتارة اخرى على جبال الانديس ، واخرى على مقربة من القطب المغناطيسي الشمالي . فخرج من ذلك كلهِ بما يؤيد — في نظره — مذهب مكلن ، ولما اجمل مباحثهُ امام اكاديمية العلوم الاميركية قال : ان هذه الاشعة انباء تدل على تكون المادة في رحاب الفضاء . وفيها رأى ملكن دليلاً على ان « الخالق ما زال ماضياً في عمل الخلق »

***

المشهور ان الغازات في حالتها الطبيعية لا توصل الكهربائية كما توصلها الاسلاك المعدنية اي انهُ لا يسهل على الكهربائية اجتياز مقدار من الغاز كما يسهل عليها اجتياز قطعة من النحاس أو الرصاص

ولكن اذا صوّبت بعض الاشعة الى الغاز الذي لا يوصل الكهربائية اصبح موصلاً كهربائيًّا ضعيفاً . ومن هذه الاشعة الاشعة التي وراء البنفسجي ، والاشعة السينية (اشعة اكس او اشعة رنتجن) والاشعة السالبة (الالكترونات) والاشعة المنطلقة من العناصر المشعة . ويعلَّل ذلك بان هذه الاشعة تفصل من ذرات الغاز بعض كهاربها (الكتروناتها) فيصبح الجزء الباقي من الذرّة وشحنتهُ الكهربائية شحنةً موجبة (كانت الشحنة الكهربائية الموجبة معادلةً للشحنة الكهربائية السالبة في الذرة فلما نقص كهرب من الذرة اصبحت شحنة الجزء الباقي من الذرّة موجبة) وهو يعرف بالأَيُن او الأَيُون Ion (قد يحسن صياغة فعل عربيّ أَيَّن للتعدي وتأَيَّن للازم في الدلالة على هذا المعنى الخاص) اما الكهارب المنفصلة فتصطدم بذرات كاملة متعادلة الشحنة الكهربائية وتلتصق ببعضها فتصبح الذرة التي التصق بها كهرب شارد ذات شحنة سالبة (لزيادة الكهرب ذي الشحنة السالبة) فهي «أيون» كذلك وهذا يجعل الغاز موصلاً للكهربائية لشدة حركة الدقائق المكهربة التي فيهِ فهي لا تكاد تستقرُّ على حالٍ

ولدى البحث ثبت انهُ اذا ازيل من المنطقة التي تحيط بغاز من الغازات كلُّ مصدر من مصادر الاشعة التي « تؤيّنهُ »نال الغاز موصلاً ضعيفاً للكهربائية ، فيتولّد فيهِ في السنتمتر المكعب «ايون » واحد او « ايونان « في الثانية . ولكن اذا نزل الوعاء المحتوي على هذا الغاز الى عمق مائة متر في بحيرة من الماء النقي من الشوائب (وهي التجارب التي قام بها هس في المانيا وميلكن واعوانهُ في اميركا) اصبح الغاز لا يوصل الكهربائية على الاطلاق ، اي انقطع تولّد الايونات فيهِ . وعلى الضدّ من ذلك اذا رفع الوعاء المحتوي على الغاز الى علو تسعة آلاف قدم او عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر زادت قوتهُ على ايصال الكهربائية اي زاد تولّد « الايونات » فيهِ

على اساس هذه الحقائق العلمية بُنيت الآلات الدقيقة التي تقاس بها قوة الاشعة الكونية اي انها تحصي عدد الايونات التي تتولد في سنتمتر مكعب من غاز معيّن كلَّ ثانية . ثم يقابل ذلك بعدد الايونات التي تولّدها أشعة معروفةٌ قوتها مثل اشعة اكس واشعة غما

* * *

قلنا ان العلماء حلقوا في الجوّ وتوغلوا تحت المحيطات ودلّوا آلاتهم في قيعان البحيرات العالية لادراك غرضهم . والسبب في ذلك كما قدمنا ان الراديوم وغيره من العناصر المشعة يطلق اشعة تؤيّن الغاز الذي في آلاتهم وهم يريدون ان يعرفوا اثر الاشعة الكونية من دون ان يختلط بهِ اثر اية اشعة اخرى

فاشعة الراديوم يحجبها لوح من الرصاص ثخانتهُ سنتمتران أو نحو ذلك . لذلك تترك ميلكن مثلاً مأونةً ثلاثمائة رطل من الواح الرصاص وتوثَّل جبل بينك بكاليفورنيا لكي يحجب أثر الراديوم أولاً فاحاط آلتهُ بالواح ثخانتها ثلاثة سنتمترات علماً ان الاشعة الكونية وهي

اقوى من اشعة الراديوم لا بدّ ان تخترق هذه الالواح فدلّت التجارب انها تفعل ذلك. ثم أخذ يزيد ثخانة الرصاص الذي حول آلته ليعرف أي طبقة من الرصاص تحجب الاشعة الكونية

وقلنا ان كولهرستر ابتنى معمله في الجبل على جبل اليونغفرَو بسويسرا وسبب ذلك ان الجبل لم يختلط بمادة على سطح الارض فهو خلوٌ من الراديوم. ثم ان ملكن دلّى آلاته في بحيرة ميوَر ليعرف اية طبقة من الماء تحجب هذه الاشعة الغريبة. فلماذا اختار بحيرة ميوَر في اميركا الشمالية وبحيرة مغويلا في اميركا الجنوبية والطريق الى كلٍّ منهما وعر صعب المرتقى؟ ذلك ان هذه البحيرات عالية جداً، لا تصبُّ فيها مياهُ انهار جرت مسافات طويلة فوق سطح البحر فذابت فيها موادّ قد تحتوي على مركبات من العناصر المشعة، وانما مصدر مائها هو الثلج النقي بعد ذوبانه. وأما هس الذي أغرق آلتهُ في بحيرة كونستانس فحسب حساباً في نتائجه لاثر العناصر المشعة. ونتائج هذه المباحث عجيبة. فالآلات التي دُلّيت في بحيرة كونستانس بسويسرا ظلت غازاتها تتأين تأيناً يسيراً لما كانت على ٧٧٥ قدماً تحت سطح الماء. أي أن فعل الاشعة الكونية يستطيع ان يخترق ما كثافتهُ ٧٧٥ قدماً من الماء. وهذا يعدلُ ٦٫٥ القدم من الرصاص مع ان نور الشمس تحجبهُ ورقة رقيقة واشعة اكس يحجبها لوح رصاص ثخنهُ سنتمتران او ثلاثة سنتمترات. في الطبيعة مصدر يطلق اشعة أقوى وافعل من أشعة الراديوم اضعافاً كثيرة. فما هو؟ هنا مصدر العناية التي توجّهُ الى هذه الاشعة ومعرفة أسرارها وهذا مصدر الخلاف بين اكبر العلماء على طبيعتها واصلها

* * *

لخّص الاستاذ بيكار نتائج الارصاد التي قام بها في أثناء رحلته الاخيرة إلى الطبقة الطخرورية فقال أنهُ حاول درس الاشعة الكونية من ناحيتين: — الاولى تحقيق الاختلاف في قوة الاشعة باختلاف الارتفاع. والثانية تحقيق الاختلاف في قوتها باختلاف الاتجاه. فثبت لهُ في الناحية الاولى أن قوتها تزداد بالارتفاع ثم تقلُّ رويداً رويداً إلى أن تصبح ثابتة فوق ارتفاع معيّن. أما البحث في الناحية الثانية فاسفر عن أن الاشعة الكونية لا تكثر في جهة معيّنة دون أخرى لذلك ذهب إلى أن هذه الاشعة مصدرها الطبقة الطخرورية ذاتها

اما ملكن فيذهب الى ان الاشعة الكونية هي من قبيل اشعة اكس واشعة غما انما هي اقصر امواجاً وأقوى فعلاً. وقد ثبت لهُ ان قوتها في المنطقة المتجمدة الشمالية لا تقل عن قوتها في المناطق الاستوائية، وهو ما ينتظر اذا كانت هذه الاشعة من قبيل الضوء الذي لا يرى. ولكن كولهرستر الالماني وغيره يرون ان الاشعة الكونية ليست ضوءاً على الاطلاق بل هي كهارب سريعة الانطلاق. واذا كانت كهارب فيجب ان تنحرف هذه الكهارب بفعل المغنطيس. اما ملكن فيقول انهُ حاول قياسها قرب القطب المغنطيسي الشمالي فلم يجد ما يدل على انها اكثر انحرافاً نحو القطب المغنطيسي — ولو كانت الكترونات لوجب ذلك — وقام كولهرستر نفسهُ

بعاحث من هذا القبيل فلم يسفر بحثهُ عما يثبت جذب المغنطيس لها . ولعلها — اذا كانت الكترونات — اسرع من ان يحرفها مغنطيس ارضي حتى الارض نفسها

***

نظر الاستاذ كمطن — استاذ الطبيعة في جامعة شيكاغو واحد نالي جائزة نوبل الطبيعية — الى الاقوال المختلفة في طبيعة الاشعة الكونية فعزم ان يقوم ببحث واسع النطاق في انحاء الارض المختلفة بغية الوصول الى القول الفصل فيها. فاتفق مع معهد كرنجي الاميركي وجامعة شيكاغو على الاشتراك في الانفاق على هذه المباحث ونظم بعثة علمية اشترك فيها اثنا عشر عالماً من علماء الطبيعة في كل البلدان وصنعت سبع آلات دقيقة لقياس قوة الاشعة — كل منها كرة من الصلب تحتوي على غاز الارجون مضغوطاً ضغطاً عالياً لكي يزيد متوسط عدد الايونات في السنتمتر المكعب ، اذ لا يخفى انهُ إذا ضغط الغاز اقتربت ذراتهُ بعضها من بعض فيكثر ما تصيبهُ الاشعة منها في أثناء اختراقها للغاز — وعُيّرت الآلات السبع تعييراً واحداً حتى لا تختلف قراءة ما تدونهُ من المقاييس ، لان كمطن يرى ان جانباً كبيراً من الاختلاف في النتائج سببهُ القياس بآلات مختلفة . اما النتائج التي أسفرت عنها مباحث كمطن فتلقي ظلاً من الريب على آراء الاستاذ ملكن . فقد وجد الاستاذ كمطن ان الاشعة أقوى في المناطق الشمالية منها في المناطق الاستوائية . وهذه هي النتيجة المنتظرة إذا كانت الاشعة الكونية الكترونات يحرفها أو يجذبها قطبا الارض المغناطيسيان . وأثبت رجنر Regene ويكار ان الاشعة لا تزداد بالارتفاع قوة كما ينتظر إذا كانت آتية من خارج جو الارض . وكان ملكن قد عرف إن الاشعة لا تزداد قوة بالارتفاع ، ولكنه علل ذلك تعليلاً معقولاً . قال اننا لا نستطيع ان نتبين هذه الاشعة الاّ إذا مزقت ذرات العناصر التي في الهواء . ولما كان الهواء في طبقاتهِ العليا لطيفاً كل اللطف ، فذرات عناصره أقل ولا بد ان يكون فعل الاشعة المادي لذا أقلّ كذلك

والامر المتفق عليهِ في هذه القوضى العلمية هو أن الاشعة تأتي من كل الجهات. هنا يتدخل دعاة النظرية النسبية معمعة الجدال فيقولون إذا كانت هذه الاشعة لا تنشأ في الطبقة الطخرورية فلا بد أن تكون ناشئة للكون. ففي هذه الايام اصبح الكون في نظر العلماء النسبيين كالكرة. وشعاعة من الضوء تنطلق في احدى نواحيهِ لا تستطيع أن تخرج منه ، وإذا كانت هذه الاشعة آتية من ناحية في رحابهِ فهي مضيعة في طريقها إلى مصدرها. ولما كانت الاشعة الكونية تأتي من كل الجهات فلا بد أن يكون الكون حافلاً بها . ولكن الكون آخذ في التمدد. كذلك يقول لمتر واينشتين وثلة علماء الطبيعة . وقد تضاعف نصف قطره منذ بدأ يتمدد . لذلك يرى ادلنتن « ان اشعة النور في هذا الكون الآخذ في التمدد كالعداء الذي يرى الطريق امامهُ تمتدُّ اسرع من عدوهِ فالقصب يبعد عنهُ بدلاً من ان يقترب منهُ » وهكذا يظلُّ النور ماضياً في سبيله لا يستطيع العودة الى مصدره — لسرعة تمدُّد الكون — وفي الطلاقة يضعف ويتطول امواجهُ

حتى يصبح امواجاً تحت امواج الاحمر فنعود لا نراها

ولكن الاشعة الكونية اشدُّ نفوذاً من اشعة الضوء . وكلّ ما تلقاه في رحاب الفضاء مما يعيق مضيّها في سبيلها لا تبلغ ثخانتهُ اكثر من طبقة من الماء سمكها قدم . وهذا جزء يسير جداً مما تستطيع هذه الاشعة ان تخترقها . لذلك يرى ادنغتن « ان الاشعة الكونية الاولى لا تزال ماضية في سيرها في رحاب الكون » والاشعة التي تدخل آلاتنا الآن هي مزيج من اشعاع كل العصور . فهذه طاقة اقدم من الارض . ولسنا نعلم كيف كان الكون قبلما بدأ يتمدّد . ولكن ادنغتن يقول ان هذه الاشعة قد تحمل في طيّات امواجها ذكريات تلك الحقب القديمة وقد تبيح لنا هذه الذكريات يوماً ما !!

ولكن كيف تنشأ هذه الاشعة ؟ يشير جينز بيده الى النجوم ويقول هناك تتمزق المادة وتنفصل الالكترونات عن البروتونات وتتلاشى متحولة الى طاقة . وهذه الاشعة أرمن آثار الطاقة المنطلقة على اثر الملاشاة . ويعترض على قوله بان للنجوم اجواء . فالاشعة المنطلقة من قلب الشمس على أثر تلاشي كمية من الالكترونات والبروتونات ، تطول امواجها في سيرها من قلب الشمس الى سطحها فاذا اخترقت جوها ضعفت كذلك وزاد طول امواجها ، فيتعذر عليها — في نظر طائفة كبيرة من علماء الطبيعة — ان تبقى شديدة النفوذ كالاشعة الكونية بعد مرورها في خلال ذلك كله . ويرى الاب لمتر انهُ لا يحتمل وجود مصدر آخر لهذه الاشعة غير النجوم ولكن النجوم كما كانت والكون في طفولته لا كما هي الآن . وقد خطب في مجمع تقدم العلوم البريطاني سنة ١٩٣١ فقال ان النجوم ولدت من دون جوّ يحيط بها . اما جوّها فقد نشأ بعد انطلاق الاشعة الكونية منها . وقد وقع هذا من نحو ١٠ آلاف مليون سنة . فانطلاق الاشعة الكونية من ابرز ما يحدث لدى تكوّن نجم

***

على ان الاستاذ مليكن يرى ان الاشعة ليست دليلاً على تلاشي المادة في داخل النجوم بل هي دليلٌ على ان العناصر الثقيلة تتكوّن في رحاب الفضاء من الايدروجين والهليوم . فقد قال في خطبة لهُ ما ملخصهُ : ان عمل التكوين جارٍ الآن في رحاب الفضاء ولا أريد بالتكوين تكوين العوالم ولا تولد الاحياء التي تقطنها بل أريد تكوين الذرات atoms التي تبنى منها المواد سواء كانت جامدة أو تحركها نسمة الحياة . فان درسي للاشعة الكونية اثبت لي ان وراء النجوم اماكن تتكوّن فيها اربعة عناصر من جواهر الايدروجين والهليوم وان هذه العناصر هي الاكسجين والمغنيزيوم والسلكون والحديد . واذا كان هذا الفعل جارياً في مكان ما من رحاب الكون فالاشعاع الناتج عن تحول الايدروجين الى هليوم يجب ان يفوق اقوى اشعة غمّا عشرة اضعاف . اما الاشعاع الناتج من تكوّن الاكسجين والسلكون والحديد فيجب ان يكون اقوى من اشعة الهليوم اربعة اضعاف وسبعة اضعاف واربعة عشر ضعفاً على الترتيب . اما

الاشعاع الناتج من اتحاد الالكترون بالبروتون وفنائهما فيفوق اقوى اشعة غمَّا خمسين ضعفاً. فلما كشفت الاشعة الكونية قيست قوتها فاذا هي تفوق اقوى اشعة غمَّا عشرة اضعاف اي ان الاشعة الكونية تشبه الاشعاع الناتج من تحوُّل الايدروجين الى هليوم. ولم يعثر في الاشعة الكونية على طائفة من الاشعة تماثل قوتُها القوةَ الناتجة من فناء الالكترون والبروتون باندماجهما. وهذا يدلُّ على ان نحو ٩٥ في المائة من الاشعة الكونية ناشيء من فعل اقل عنفاً من فناء الالكترون والبروتون. وقد اثبت الحلّ الطيفيُّ ان الايدروجين واسع الانتشار في الفضاء بين النجوم. هذا رأي ملِيكن [راجع تفصيله في مقتطف مايو ١٩٣٢ ص ٥٢٣—٥٢٦ ومقالة البروتون في العدد نفسه صفحة ٥٠٣ و٥٠٤]

***

على ان الاستاذ اسكندر دو فيليه Dauvillier الفرنسي لا يذهب الى ابعد من الشمس في تعليل الاشعة الكونية. ورأيهُ هذا من احدث ما قيل فيها. قال: —

ان كهارب سريعة تنطلق من الشمس بسرعة تقارب سرعة الضوء تقريباً فتحدث لدى اصطدامها بذرات الهواء الاشعة التي نحسبها قادمة الينا من رحاب الكون. ومصدر هذه الكهارب البقع اللماعة على سطح الشمس facules حيث الحرارة تبلغ نحو سبعة آلاف درجة بميزان سنتغراد. فتنطلق الكهارب بسرعة غير عظيمة أولاً ثم تزداد سرعتها زيادة عظيمة إذ تمرُّ في جرْ الشمس الموجب. وجو الشمس المؤلف من عنصري الايدروجين والكلسيوم في الغالب موجبٌ لأن الاشعة التي فوق البنفسجية المنطلقة من قلب الشمس تصدم ذرات هذين العنصرين فتطرد بعض كهاربها. والذرة اذا فقدت أحد كهاربها أصبحت شحنتها موجبة. ثم اذا اقتربت الكهارب من الارض انجذبت بفعلها المغناطيسي وتجمعت اقواساً. ثم إذا دخلت طبقات الجو العليا أطارت من ذرات غازاته بعض كهاربها وهذه مصدر الضوء القطبي. فاذا قيست أقواس الاضواء القطبية امكن الوصول بعملية رياضية الى سرعة الكهارب الاولى المنطلقة من الشمس والتي جذبتها مغناطيسية الارض. والظاهر ان سرعتها لا تقلُّ الا ٣٠ سنتمتراً عن سرعة الضوء في الثانية. وإذاً فهي تصل الارض في بضع دقائق (يصل النور من الشمس إلى الارض في ثماني دقائق وثلاث ثوانٍ) وآثار هذه الكهارب تحيط بالارض من كل النواحي فيبدو للباحث انها تأتينا من نواحي الفضاء على السواء. وقد حسب دوفيليه طاقة هذه الكهارب فوجدها قريبة جداً من طاقة الاشعة الكونية ويرى انهُ من العبث البحث عن تعليل آخر لهذه الاشعة. فهو اذاً يتفق الى حدٍّ ما مع رأي بيكار القائل بتولُّد هذه الاشعة في طبقات الهواء العليا وانما يفوقهُ في تعليل تولُّدها تعليلاً طبيعياً رياضياً

الطبائع والامزجة[1]

لعزيز مصطفى الشهابي
مدير املاك الدولة بدمشق وعضو المجمع العلمي العربي

ما الانسان في هذه الحياة ؟ جيش من الخلايا لا تعد جنوده ولا تحصى ؟ وفي كل خلية جبلة اولى (بروتوبلاسم) دائمة الحركة لا تقف ولا تستريح ولا تكل ولا تمل . وما الحياة نفسها ؟ هدم وبناء وأخذ وعطاء وصعود وهبوط في صلب هذه الخلايا ، والانسان بهذا الجيش العجب كعمود ماء فوق حوض تحاله ثابتاً وتقاطه في تجدد مستمر . ذلك ان الجسم الانساني لا يكف طيلة الحياة عن امتصاص العناصر الغذائية وتمثيلها وصنع مواد تندمج في خلاياه ثم هو يفرز ما لا فائدة منه ويطرحه خارجاً . ولا تقف هذه الحركة المستديمة الا بوقوف الحياة وانطفاء شعلتها

واذا فحصنا الخلايا بمجهر العالم الذي يتحرى الحقيقة ويستقصيها الفيناها لا تتجدد في كل فرد على طريقة واحدة ولا بمقادير واحدة . وهذا الاختلاف هو ما يدعو الى حصول الطبائع المختلفة في بني الانسان على رأي كثير من العلماء . وليس بامكان المرء تغيير طبيعته لانه ليس له يد على خلايا جسمه ، انى شاء ، تمثيلاً وافرازاً

والناس طبيعتان اساسيتان وهما طبيعة الانسان الحساس وطبيعة الانسان الفعال . ففي حس الامور وادراكها يكون التمثيل في الخلايا زائداً على الافراز ، اما في الحركة كاستعمال الارادة او الحركة العضلية فالافراز يسود . ومتى رجحت كفة الطبيعة الاولى شالت كفة الثانية في الاعم ، فالحساس قلما يكون مقداماً والعكس بالعكس . والآلة التي تضبط التمثيل والافراز في الجسم كما تضبط الحس والعمل هو الدماغ فهو كناظم الساعة الضابط لحركتها لكنه هو نفسه غير متزن في كل الاشخاص فيكون قوياً لدى بعضهم وضعيفاً لدى بعض وسريع الحركة في ناس وبطيئها في آخرين . وهنا يتجه الى جهة وهناك الى جهة معاكسة للاولى تبعاً لشكل حركة خلاياه في التمثيل والافراز . وهذا ما يجعل للاعصاب سيرة خاصة فتكون حساسة او فعالة

(١) بحث نلقي لجنته على اثر تلاوة بعض كتب اعها كتاب بهذا العنوان للفيلسوف الفرنسي الفريد فويه . والغاية منه بيان خصائص الرجل وخصائص المرأة بياناً علمياً وتصنيفاً والعودة الى تعليم المرأة الشرقية ما يناسبها . والطبائع ترجمة Tempéraments اما الامزجة فترجمة Caractères

وكان الاقدمون يقولون بأربع طبائع يسمونها اخلاطاً وهي الدم والبلغم والصفراء والسوداء وينعتونها بقولهم طبيعة حارة وباردة ويابسة ورطبة . وهي كنهها تقسيمات ونعوت لا يعوَّل عليها اليوم

ويكون الحس سريعاً أو بطيئاً ، حاداً أو ضعيفاً ولذلك يكون الحساس على طبيعتين : حسَّاس سريع الحس ولكن ضعيفهُ وحساس بطيء الحس ولكن عظيمهُ

﴿ طبيعة الحساس السريع الحس ﴾ . يسمونه ايضاً الحساس الدموي . وتكون كريات الدم لديه عديدة ارجوانية اللون على عكسها في الصفراوي الفعال حيث هي قليلة قاتمة . ويكون لون بشرة الدموي ورديًّا زاهياً وشعره اشقر وعيناه الى زرقة (كل ذلك في المتوسط من الحالات) وعنقه قصيرة عريضة ورأسه مستديراً أو مربعاً واتفه عريضاً . وتلوح على جسمهِ علامات الجسم الملآن غذاء ، اي الذي يزيد فيهِ المدخر على المستهلك . ويكون صاحب هذه الطبيعة سريع الانفعال لكن انفعاله سطحي يزول بسرعة . وهو كثير الكلام كثير الاشارات قليل العمل سريع النسيان لا جلَد له على العمل المتصل المستمر ولا على اجهاد العقل . ولا يلبث الحادث الجديد الذي يحسه ان يطرد الذي سبقه . والخلاصة يوجد في كل دموي خالص شيء من خصال الطفولة والفتوة . ألا ترى ان الطفل الذي يزيد في جسمهِ الادغار على الاستهلاك ورديّ الجلد ابيض الجلد سريع الحس لكن الحس فيهِ سطحي لا يدوم كثيراً فالطفل هو المثال العادي لهذه الطبيعة . ويكون صاحبه ابن يومه ينسى الماضي ولا يفكر الاَّ في حاضره كالصبي والشاب . وليس للآلام العميقة سلطان عليهِ . وهو متقائل واقرب إلى الخير منه الى الشر . لكنه لا يتعدى بذلك حد الكلام والعاطفة ولا يتجاوزهما الى العمل . ويمكن لهذه الطبيعة ان تعتدل بتقدم العقل وتأثير الارادة

﴿ طبيعة الحساس العميق الحس ﴾ هي طبيعة العصبي الذي اذا صدمته المؤثرات عملت عملها فيهِ فلا يعود الى سابق حاله الاَّ بعد لأي دمهُ اقل من دم صاحب الطبيعة السالفة الذكر وجهازه العصبي اقوى وعضله اضعف . ويكون شاحب اللون لفقر دمه حاد النظر كثير الحركة قلقاً في نومهِ طويل العنق دقيق الانف في الغالب خفيف الجسم رشيق القوام غير بدين . وكثيراً ما تعرض جبهته وتستدق ذقنه فيكون وجهه على شكل الرقم ٧ . وهو شديد التأثر بكل ما يفرح ويغم وربما أدى بهِ ذلك الى السوداء لان شعوره يكون عميقاً داخليًّا متأصلاً

ويكون العصبي مرحاً في طبيعتهِ أو حزيناً لكن عوامل الحزن تتغلب عليهِ في الغالب فتراه حذراً قلقاً ليس فيهِ آمال الدموي المتجددة في كل حين فهو اذن متشائم . غير ان صاحب هذه الطبيعة اذا اعتدل وناله حظ من الذكاء كان آية في العبقرية ولا سيما اذا كان وسطاً بين العصبي والدموي . ولقد زعم ارسطو ان كل العباقرة في الفلسفة والسياسة والشعر والفنون

هم من اصحاب السوداء . ولا يشير بذلك الى الذين يرتقبهم الهم والحزن من ال ذوي الحس العميق والانفعال المتأصل الذين لهم ذكاء وقّاد يدركون به نواحي الحياة الجدية حتى القاتمة منها

﴿ طبيعة الفعّال ﴾ الفعّال ايضاً على تسمية جالينوس هو الذي عظيم وفعّال بطيء العمل قليله . ذلك ان الفعال يحتاج في حياته الى صرف قوة كبيرة عصبية وعضلية . ولما كان تفسير ذلك الصرف انحلال الجبلة الاولى في خلايا جسمه الى عناصر ابسط كان مزاج الفعال هو الذي يزيد فيه الاستهلاك على الادخار اي الافراز على التمثيل . ويكون الاستهلاك في الفعّال اما قويًّا وسريعاً أو على العكس معتدلاً وبطيئاً وهذا يكون للفعّال طبيعتان كما ذكرنا ويمكن في العمل قرن السرعة الى القوة اما في الحساسية فكثيراً ما تفترقان

﴿ الفعّال السريع العمل العظيمهُ ﴾ الفعّال الذي يعمل بسرعة وقوة كان يسمى صفراويًّا لدى الاقدمين . والحقيقة انه ليس للصفراء تأثير في طبيعته . ويكون الدم فيه اقتر منه في الدموي بالكريات الحمر . يقولون ان الصفراوي ذو دم حار وهذا صحيح ولا سيما في الدماغ . وكان كارليل يقول حرارتي بدلاً من طبيعتي . ويكون وجهه شاحباً لخلو دمه من الاوكسجين بسبب كثرة الاستهلاك . وهذا السبب هو الذي يجعل لون شعره وعينيه اسود لامعاً في الجملة ويكون قوي الجسم نحيفه سريع الهضم والتنفس شديد الحاجة الى النوم العميق حاد العينين قوي العضل لا يسمن الاّ نادراً . واذا تأثر بحادث اصفرّ وجهه في الغالب بدلاً من ان يحمرّ وربما اثر ذلك في كبده وهذا ما استرعى نظر الاقدمين فسموه صفراويًّا . وتزيد الشمس في خصائص هذه الطبيعة فيكثر اصحابها في البلاد المعتدلة والحارة . وهي فاشية في القبائل البدوية

وشدة نشاط صاحب هذه الطبيعة تجعله جباراً اذا عاكسهُ احد وتجعله سريع الغضب ايضاً . وقد شبهه احدهم بجسم مكهرب من يمسه يتقدح شرارة كهربائية . واذا لم يجد في عضلاته منفذاً للعمل ولصرف القوة اثّر ذلك في جسمه تأثيراً داخليًّا ولاسيما في دماغه فتراه اذا احبّ عشق واذا بغض كتم بغضاءه سنين حتى ينتقم . وهو شجاع مقدام في الغالب . واذا حكم استبدّ في اكثر الاحيان دون ان يعبأ باستمالة قلوب الناس او عقولهم اليه كثير من رؤساء القبائل المعروفين او كنابليون مثلاً فهو في مقابلة الناس حيوان يخاطب حيواناً دونه . واعتقاده ببلوغ مراده يجعله قوي الامل كبير الثقة بنفسه ولهذا يغلب فيه التفاؤل

﴿ الفعّال البطيء العمل القليلهُ ﴾ هو صاحب الدم البارد او صاحب البلغم الذي له ارادة تحفزه على العمل ولكن بعد إعمال الفكر وموازنة الامور . ويعرف بعنق قصيرة وانف عريض ولون شاحب غالباً وشعر اشقر او اسمر باهت غير كثيف وعينين شهلاوين او خضراوين غير متقدتين وجسم ممتلىء ودماغ مفكر . هو يملك نفسه فلا تثيره الحادثات كالذي سبق ذكره . وبحث عنهُ « كانت » فقال انهُ يحمى ببطء لكن حرارته تدوم طويلاً وربما سموهُ عاقلاً لان

برودة الدم اذا ما قرنت بالنشاط على العمل تغلبت على كثير من الصعاب . اما اذا فقد صاحب هذه الطبيعة نشاطه اثّر ذلك في حساسيته وفي حيويته فيضعف دوران الدم فيه ويزداد دوران الصفراء فترخو نسجه وتبطؤ الحركة في اعضائه وينضب الدم في دماغه فيتبلد ويبتعد عن الحيوان ويقرب من النبات

﴿ الخلاصة في الطبائع ﴾ تلخص طبائع الناس بقولك انهُ يوجد فيهم : اولاً الدموي (الحسّاس السريع الحس النائش) وهو سريع الانفعال لكن انفعاله لا يدوم كثيراً . ثانياً العصبي (الحساس العميق الحس) وهو بطيء الانفعال لكن انفعاله يكون شديداً ومتأصلاً . ثالثاً الصفراوي (الفعّال الحاد العمل) وهو الذي يكون عمله سريعاً قويًّا . رابعاً البلغمي (الفعّال البارد) وهو الذي يكون عمله راسخاً متزناً . ويزيد الادخار على الاستهلاك في جسم اصحاب الطبيعتين الاوليين . والامر معكوس في اصحاب الطبيعتين الثالثة والرابعة

واذا صدمت النوائب الدمويَّ صدمة عنيفة اثّرت في دماغه وفي جهازي الدم والتنفس . اما العصبي ففي جهاز العصب والدماغ واما الصفراوي ففي الكبد . والبلغمي لا يتأثر بها عضو من اعضائه بل تبدو عليهِ علائم الحزن والكآبة فحسب

***

وذكر (كانت) ان كل انسان له طبيعة واحدة من الطبائع الاربع المذكورة ليس غير . وانهُ لا يوجد طبائع مركبة . اما القريد فويه فيرى عكس ذلك ويقول انهُ لا يوجد صاحب مزاج بسيط البتة لانهُ لا يمكن تصور وجود حس بلا ارادة او وجود ارادة بلا حس ولا عقل كما ان الجسم لا يمكن ان يدخر بدون ان يستهلك . ولا يوجد في الكون شدة مطلقة ولا سرعة مطلقة في الادخار والاستهلاك بل كل شيء نسبي . ولهذا نرى بين الناس الدموي العصبي والعصبي الصفراوي ، والعصبي اللنفاوي (البلغمي) الخ اي اناساً يجمعون طبيعتين . وربَّ رجل يجمع ثلاث طبائع كأن يكون دمويًّا وعصبيًّا ولنفاويًّا وهو ما يكثر في المانيا والكترا وربما حصل الاختلاط في خلق الوجه وسائر الجسم كالجمع بين شعر اسود وعينين زرقاوين وكأن يكون لك جسم وردي وقامة هيفاء . وكل ذلك نتيجة وراثات مختلفة اوجبت اختلاط الطبائع

ولا يستطيع الانسان تبديل طبيعته لكن هذه تتبدل بتقدم السن . فالولد يحتاج خصوصاً الى الاحتفاظ بنفسه والى النمو ولهذا تراه شديد الحس والانفعال يطلب النفع العاجل ويهرأ الضرر القريب ويسير عن بصر للاشياء لا عن بصيرة . اما البالغ فعلى العكس لان قواه العقلية تزداد مع الزمن وكذا محاكمته للامور فيضبط بها عوامل الغريزة الحيوانية . واما الشيخ فكل شيء فيهِ يبطؤ اي ان طبيعته تعتدل مهما كان متطرفاً ويكثر البلغم فيهِ حتى يبلغ به حد

الكمل . وتتردد ارادتهُ كناظم الساعة (الرقاص) وتبدو عليهِ علائم الاضمحلال والفناء

﴿ فائدة علم الطبائع في الحياة ﴾ لا شك ان لعلم الطبائع فائدة كبيرة من حيث الاخلاق وتربية الاولاد. فكما ان الطبيب يحتاج في وصف الدواء الى معرفة خلق المريض كذلك المؤدب يحتاج في تأديب الصبيان الى معرفة طبائعهم الخلُقية المختلفة . ومن البساطة بمكان الظنُّ أن الجميع يمكن سوقهم بعصا واحدة. وربما نفعت الشدة في احدهم ولم ينفع في آخر غير التسامح . وربَّ تعهد يفعل فيهِ اللين والتحبب وآخر لا يؤثر فيهِ غير الخوف . ومن الثابت ان المربين يجهلون كثيراً نسيولوجية الطباع جهلهم للقواعد الصحية التي يجب رعايتها تجاه الاعمال العقلية

***

ولطبيعة تأثير في سعادة الانسان وفي اخلاقه طيلة الحياة . ويجب ان نفتش في كثير من الاحايين في نفسنا عن سرّ حزننا او طربنا فهنالك نجد ساعات من البؤس وساعات من السرور وهنالك نرى الاشياء بألوان مختلفة بمقتضى طبائعنا . ولقد بالغ احد العلماء فقال ان ينبوع الخير والشر هو فينا في الغالب . ذلك ان كل عضو من اعضائنا له عمله في سير شعلة الحياة فيها فالجوع والعطش وسوء الهضم وخفقان القلب والتعب والاجهاد والقلق والحزن الخ كل ذلك له تأثير اي تأثير في تكوين سعادة الانسان وكله له اشد ارتباط بالطباع . ومتى كان الانسان مرحاً في طبيعته فسيان لديه واتاه الحظ ام لازمهُ النحس . اما المتبرم بالحياة فهو يظل مكمداً مهما خدمتهُ الايام. وبوجهٍ خاص ان بعض اسباب السعادة هي في طبيعتنا . ولا يجب ان يستنتج من ذلك ان البيئة والحوادث وبخاصة العقل والارادة ليس لها تأثير في سعادة الانسان وهي التي يتألف منها مزاجه او طابعهُ الذي يتطبع بهِ كما ذكرناه بعدُ

اما تأثير الطبائع في الاخلاق فهو ايضاً امر لا ينكر ولا يعبأ بقول احدى الاديبات « لا اصدق ان الفضيلة مرتبطة ببضم الاغدية » . فلكم قادت الطبيعة المرء الى اعمال شتى من الخير والشر والامثلة على ذلك كثيرة

***

﴿ الامزجة ﴾ يقول الفرد فويه ان طبيعة الانسان تخلق معهُ لكن المزاج يكتسب بالتطبع والمران . والمؤثر في المزاج العقل الانساني . وربَّ رجل تسود السوداء في طبيعته فيطردها بالعقل والارادة فيكون مرحاً في مزاجهِ . واذا كانت الطبيعة مرتبطة بتركيب الجهاز العصبي وسيره خاصة فالمزاج مرتبط بتركيب الدماغ وسيره في الاخص وهو عضو العقل

والناس على ثلاثة امزجة : الحساس والمفكر والمقدام (او النشاط وهو القويّ الارادة). وتتبدل امزجتنا بتبدل شدة هذه القوى الثلاث . والمزاج الامثل هو الذي يتوازن فيهِ الحس والفكر والارادة

﴿ الحسّاس ﴾ اذا كان الحساس قليل الذكاء قليل الارادة كان كالطفل سريع الانفعال ضعيف الذاكرة . اما اذا كان قليل الذكاء قوي الارادة كان خطراً لانهُ يجمع قوتي الحس والارادة بلا تفكير . وكثير من المجرمين لهم هذا المزاج . واما اذا كان الحساس ذكيًّا كان من الرجال المقتدرين الامزجة حتى في حالة خلوهم من ارادة قوية

﴿ المفكر ﴾ هو الذي ينمو عقلهُ على كرّ الأيام فيصير التفكير طابعاً له . وهو مزاج كثير من العلماء والفلاسفة ، واذا كان المفكر حساساً اشبه بمزاجه بعض الشعراء كشكتور هوجو وأمثاله . ولا شك ان نمو العقل يمكن فرط الحس على طول الزمن . وربما اضرّ التفكير بالارادة ايضاً فينشأ عن ذلك اشخاص يتمثلون العالم في دماغهم فيصورنهُ صوراً لا تحصى ويعيشون غارقين في تأملاتهم غير المتناهية . وهم ينفقون كثيراً من القوى داخليًّا فيقلّ ما يجب ان ينفقوه في الخارج . وقد يعدم التفكيرُ الارادة احياناً . لأن المفكر بعيد النظر للامور اما المقدام فلا يرى غير ناحية واحدة منها ولذا ترى المفكر كثير الاحجام عن العمل بعد ان يتمثل في ذهنه كل دواعي الاقدام وكل دواعي الاحجام . والشك طارد للفعالية كما لا يخفى . اما اليقين فباعث على الاقدام . واذا كان اليقين منبعثاً عن عقيدة شعورية كعقيدة الدين مثلاً حمل صاحبه على الموت احياناً . ولا يظنّ ان شدة التفكير تدعو الى التردد في كل الامور فالمفكر لا يعبأ بالصغائر التي لسر لها العامة والدهماء لكنهُ كثير الاهتمام بجلائل الاعمال . واذا كان القليل من العلم داعياً الى التردد فالكثير منهُ يدعو الى العمل . ولكل معضلة مفتاح فاذا لم تعثر عليه انت فاحجمت لقيهُ من هو اشد ذكاء وتفكيراً منك فأقدم

﴿ المقدام ﴾ الارادة اذا لم يصحبها العقل اضرّت بصاحبها . والدماغ البسيط الذي لم تعتله التجارب او العلوم هو نموذج للارادة الحمقاء التي تجعل صاحبها يقدم على اعمال غير معقولة ويصر على اخطائه . وهو دماغ الجهلاء الذين يصعب تبديل معتقداتهم لانهم جهلاء لا يمكنهم استخراج القواعد المطلقة من الامور التي يحسونها . لكنه اذا كان صاحب الارادة مفكراً فالثابرة على الاقدام لا يسمى لديه عناداً بل ثباتاً . ويتضح من ذلك ان العقل والتفكير هما عاملان مهمان في سير الارادة

والمقدام على ثلاثة اشكال اولاً المقدام القليل الحس والتفكير وهو العنيد في حمقه وضلاله . ثانياً المقدام الكبير الحس القليل التفكير وهو الطموح المتهوّر . ثالثاً المقدام القليل الحس الواسع التفكر وهو الذي يحكم الامور ببرودة ثم يمضي فلا يثنيه شيء

[تتمة البحث تتناول الطبائع والامزجة لدى الرجل والمرأة]

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

من جمهورية افلاطون إلى شيوعية روسيا

«علم السياسة» هو البحث في اشكال الحكومات التي نشأت على سطح الارض سواء منها الماضية والحاضرة ، و «حكمة السياسة» هي البحث في اصل المجتمع البشري والعوامل التي افضت الى تأليفه وجعلت الانسان مدنيًا بالطبع . وهذا التفريق بين هاتين الناحيتين من موضوع السياسة العام هو تفريق حديث لم يصل اليه الكتّاب الا في الاعصر المتأخرة. على ان معظم الذين عالجوا الموضوعات السياسية لا يزالون يمزجون الواحد منهما بالآخر مزجاً ملحوظاً في حين يتطلب التنقيح العلمي مراعاة هذا التفريق . وعندنا ان خير ما ينير الموقف السياسي الحاضر ويزوّد القارىء بالمعلومات التي تساعده على فهم التدرج الحاصل في الآراء السياسية وتطبيقها ان نستعرض امامه طائفة من الائمة الذين غادروا وراءهم رنة في العالم السياسي ونتناول بالتحليل ماذهبوا اليه سواء من وجهة «علم السياسة» ام من وجهة «الحكمة السياسية»

﴿ افلاطون ﴾ ان افلاطون هو أسبق من وسلتنا مدوّناتهم عن الشؤون السياسية والاجتماعية فقد عاش من سنة ٤٢٧ الى سنة ٣٤٧ ق.م . وجاء في كتابه (الجمهورية) الذي سد ثغرة كبيرة بنقله الى العربية حديثاً الاستاذ حنا خباز الشيء الكثير عن المعيشة الاولى البسيطة الحرّة وكان يرى ان تفتح ابواب الارتقاء على مصاريعها للناس جميعاً بالتثقيف والتهذيب الا العبيد فعليهم ان يحملوا على اكتافهم اهل التفرغ ويقوموا بخدمتهم . وعنده ان يمنح رجال التعليم اسمى المقامات في الحكومة وان الطبقات المهذبة الخاصة — وهي الطبقة الارستقراطية في عرفنا الحاضر — يجب ان تقوم بسندها الطبقات العامة الاعتيادية ، ومن الغريب مع كل هذه الارستقراطية ان يكون افلاطون شيوعيًا حتى في المرأة

ولما كانت معظم النظريات التي وضعت لتعليل السياسة او اسبابها هي نظريات عن طبيعة الانسان الاصلية فلا عجب ان نرى افلاطون من الذين نهجوا هذا المنهج . فقد ذهب في جملة ما ذهب اليه الى ان في نفس الانسانية اجزاء ثلاثة الاول الجزء العالم وهو الحكيم . الثاني الجزء الشجاع المتحمس وهو الروحي . والثالث الجزء الشهواني وهو البهيمي او الحيواني . يقابل ذلك اجزاء ثلاثة في بناء الجمعية البشرية متى كانت صحيحة التركيب وهذه الاجزاء هي (اولاً) الملك الفيلسوف كما تصوره افلاطون وقد دلَّ به على ضرورة تغلب العلم في المجتمع السياسي على الروح والشهوة — يعني يجب ان يحكم حجّاب هذا الملك في « الجمهورية الكاملة » باعتبارهم المظهر الذي يتجلى فيه مبدأ تفوق العلم . (ثانياً) الجيش الشجاع المتحمس ويكون اعداء اولئك الحجاب بتنفيذ مقتضيات علمهم ويسير تحت لوائهم (ثالثاً) الدهماء أو عامة الناس وهم اهل الشهوة الخاضعون الخانعون والمسوقون إلى الاعمال المنتجة في المجتمع . وبديهي كما قال الاستاذ (كول) ان مثل هذه النظرية السياسية هي نظرة ارستوقراطية عظامية ينبذ صاحبها الفكرة الديموقراطية العصامية وراء ظهره ويمر على كلمة التساوي في الحقوق مر الكرام إذ يقول الواجب ان يقبض على زمام الحكم في الجمهور الجزء الاصلح لخدمته كما يجب ان يتسلط في الفرد عقله على سائر ملكاته . ويقوم المرء بعمله الاجتماعي وهو وظيفته التي خلق لها بحسب الاجزاء الثلاثة التي تتألف نفسه منها ونسبة تفوق هذه الاجزاء بعضها على بعض . فالحكيم وهو ذو الملكة العقلية المدركة المتفوقة خلق لان يكون حاكماً ذلك لانه اعرف الناس بالمصلحة واما الآخرون فلا حق لهم في هذا الامر ولا شأن لانهم جاهلون

ولعمري ان هذا الموقف الذي وقفه افلاطون في القرن الرابع قبل المسيح لا تزال تقفه عصبة المحافظين الارستوقراطيين في القرن العشرين من ادعائها بأن مواهبها العقلية وعنعناتها المتوارثة تجعلها وحدها اهلاً للاضطلاع بالحكم ، وهذا باب في النظرية السياسية لم يقفل ، وقد ملأ الكتّاب أكوام المؤلفات والرسائل في علاجه ولما ينتهوا . وكأني بافلاطون يقول للاجيال اللاحقة هذا رأيي فاما ارستوقراطي صرف احرّم ممارسة الحكم على الذين لم يخلقوا له فما هو رأيكم ؟ بل ما هي السلطة السياسية ؟ اهي شيء من حق الانسان كما تساءل الاستاذ (كول) لا يتنازل عنه وقد اكتسبه بمجرد كونه انساناً يتشي على اثنتين ام هي شيء يتعلق بالعلم والمعرفة ؟ وهل على الخبير الفني المتخصص ان يعمل بأوامر يتلقاها أم هو نفسه مصدر هذه الاوامر ؟ وهل الاطباء يديرون شؤون المرضى في المستشفى أم المرضى يديرون شؤون الاطباء ؟ وهل السياسة ميدان للاخصائيين المتسلحين بسلاح الفن أم هي للنساء والرجال العاديين ؟ وهل الديموقراطية تعني هذيان اصوات متنافرة بعيدة عن الانسجام أم هنالك شيء من الحق في القول المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » ؟ ووراء ذلك كله سؤال اجدر بالاهتمام خلاصته

ما هو الانسان ؟ وما هي طبيعته ؟ . فعليك ان تعرف هذه الامور أو تصرف جهد الطاقة للاحاطة بكنهها قبل ان تصدر حكمنا كيف يجب ان يحكم الانسان أو ان يحكم عليه (١)

﴿ ارسطو المعلم الاول ﴾ هو تلميذ افلاطون واول من لاحظ تدرج الحكومة ونشوء النظام الاجتماعي وقد عالج الشؤون السياسية معالجة دقيقة حتى ان بعض آرائه لا يزال يعمل به الى اليوم . ومن ادق ملاحظاته قوله عن الحكم انهُ يأخذ شكلاً دوريًّا متعاقباً فالحكم الملكي في نظره هو الشكل الاساسي للحكومة ثم يعقبهُ الشكل العظامي الارستوقراطي وهو حكم النخبة المنتخبة وهذا يؤول الى الاوليغاركية وهي حكومة فاسدة قائمة على اقلية متآمرة متغامنة ثم تأتي حكومة الاكثرية وهي الديموقراطية وتختلف عن الديموقراطيات الحاضرة بانها مؤلفة من طبقات ، ويخلف هذه الحكومة الصالحة حكومة مؤلفة من الغوغاء اطلق عليها اسم (اوكلوكراسي) فيختلط الحابل بالنابل ويصير الامر والنهي بيد الحمق والطائشين . وعندما تبلغ الفوضى هذا الحد تهب « الدكتاتورية » من مرقدها وهي حكومة القاهر الحازم فيعاد النظام الاجتماعي الى سالف عهده . وعندنا ان هذه الملاحظة من خير ما خلفهُ المتقدمون في علم السياسة لانطباقها على الواقع كثيراً فمحمود شوكت باشا القائد العثماني الكبير مثلاً كان هذه اليد الحازمة التي انقذت الدولة العثمانية في سنة ١٩٠٩ من غوغاء جمعية رجعية اسسها سخيف امتهُ (درويش وحدتي) واطلق عليها اسم (الجمعية المحمدية)

ومن الامثال الصالحة على ملاحظة ارسطو هذه الدور موسوليني وظهوره بعد الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها في ايطاليا ، والغازي مصطفى كمال باشا ونهوضه بالترك من بعد تمزقهم والتصدع الذي كان يهدد بنيانهم بالانهيار من الاساس عقيب انكسارهم في الحرب العالمية

وكانت الطريقة الخاصة التي سار عليها الاغريق المتقدمون في نظامهم السياسي ان المدينة الواحدة من مدنهم كانت تؤلف دولة قائمة بذاتها وكان جميع الافراد يشتركون في اتخاذ القرارات مباشرة من غير ان يلبسوا عنهم احداً لان الطريقة النيابية الحاضرة كانت مجهولة لديهم . وكانت الاكثرية في الاجتماع تعين في بعض الاحيان بشدة التصفيق من المجتمعين وفي غير ذلك بالاقتراع والانتخاب . وكانت زعامتهم ومقاليد امورهم بيد من يمتلك شخصية متفوقة عليهم ومعرفة بشؤون القيادة . ولم ير ارسطو في جميع ذلك شيئاً غير طبيعي يحتاج الى التعليل بل قال عن الانسان انهُ حيوان مدني بالطبع فيكون المجتمع والحالة هذه ظاهرة طبيعية نشأت من فطرة الانسان وان الدولة البلدية (City-State) هي في نظره وليدة الاسرة ودرجة لاحقة في النشوء من بعدها

(1) Outline of Modern Knowledge, p. 705.

الخلافة الاسلامية

وتتجلى المذاهب السياسية المتنوعة والآراء التي اشار اليها افلاطون خير التجلي في تاريخ الاسلام عامة والعرب منهم خاصة . وليس من المتعذر على الباحث مثلاً ان يرى المبادىء السياسية مخلوطة في الجيل الواحد والعمل الواحد خلطاً متماسكاً متشابكاً . فانتخاب اول خليفة ليتولى زمام المسلمين في دينهم ودنياهم هو عمل ديمقراطي في مبدئه ولكنه يختلف عن الاساليب الديمقراطية الحاضرة بحصره الانتخاب في اهل الحل والعقد بصورة مبهمة ليس فيها قاعدة يركن اليها ومعنى اهل الحل والعقد هو النخبة المنتخبة وهي الطبقة الارستقراطية طبعاً فهذا الحصر هو اقرب اذن الى الارستقراطية منهُ الى الديموقراطية والعامة كانوا بعيدين عن التدخل في شأنهِ وليس لهم صوت نافذ في اقراره او في رفضه لأن القواعد التي طبقت منذ اليوم الأول لم تعين لهؤلاء العامة مقاماً في الاقتراع أو في الانتخاب بل اعتبرتهم كما اعتبرهم افلاطون اداة تساق من غير ارادة ولا اختيار . وكان الخليفة والحق يقال رئيس جمهورية إلا انهُ تمتع بحقوق لا يحلم بها (هوفر) في الولايات المتحدة . وقد تجلت هذه الحقوق واشتدت عندما صارت الخلافة ملكاً متوارثاً وصار اصحابها يدعون الوكالة عن الله في كل شيء ؛ يدلك على ذلك خطبة للمنصور بمكة جاء فيها «ايها الناس انا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، اعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه ، فقد جعلني عليه قفلاً ان شاء فتحني لاعطائكم وقسم أرزاقكم وانشاء ان يقفل عليَّ أقفلني» ، ولم يعدم الخلفاء من الفقهاء من جوّز لهم مثل هذه الحقوق كما فعل صاحب « مطالع الانوار » بقوله عن الخليفة ان له حقّ التصرف « في رقاب الناس وأموالهم وابضاعهم» . على انهُ مع كل النفوذ الذي كان للخليفة لا يجوز ان يدعى «مطلقاً» ابداً ، لأن السلطة ليست له وانما هي للدستور — للشريعة التي كان حامياً لها ومسؤولاً عن تطبيقها ، وكانت الحيدة عنها اعوجاجاً لا يأبى المسلمون — ولو نظرياً — ان يقوّموه بسيوفهم . فاذا كان الاستبداد هو ان يعمل صاحب الامر بمشيئته ويقتضي هواه ويدعي انه هو الدولة كما كان حال الملوك المستبدين في بلاد الغرب فالخليفة بهذا المعنى لم يكن مستبداً وانما اعطى لنفسه من الحق في فهم الدستور وتأويله وتطبيقه ما يخولهُ قوة صارمة . ولو اردنا أن نحمل الحالة التي كان عليها المسلمون في الصدر الاول بكلام مألوف في عصرنا لقلنا انهم انتخبوا رئيس جمهورية الى أجل غير مسمى بطريقة انتخاب محدودة تولتها الطبقة الارستقراطية وهم أهل الحل والعقد وخوّلوه في القضاء والتنفيذ سلطة لا حد لها وجعلوه مسؤولاً عن الدستور بطريقة عنيفة تكون حياته فيها عرضة للخطر ، ولما

كانت الطريقة البارلمانية مجهولة في تلك الاعصر فحاولة تعيين هذه التبعة او المسؤولية كثيراً ما أدت الى الفتن والاضطرابات وسفك الدماء بين المسلمين لانهم لم يكونوا عارفين بحلٍّ سلمي يرضاه الجميع أو الاكثرية المطلقة في معالجتها . وعلى القارىء أن يتذكر ان الخليفة مهما كان قادراً وعظيماً لايستطيع من الوجهة النظرية أن يغير شيئاً في الشريعة لان سلطتها مطلقة لاحد لها تصغر أمامها كل سلطة بل دائرته ودائرة قضاته وعماله محصورة في تأويلها وتطبيقها . ويجد علماء السياسة لذة كبيرة أن يروا بعض الكتاب المسلمين المتقدمين يذهبون الى أن الامة هي مصدر السلطة التي يتمتع بها الخليفة كما فعل أبو بكر الكاساني المتوفى سنة ٥٨٧ والمدفون بظاهر حلب. فقد ذهب في كتابه «البدائع» إلى أن الخليفة بمنزلة منذوب أو رسول عن المسلمين لذلك اذا عُزل او خُلع لسبب من الاسباب لم ينعزل قضاته بل هم على أعمالهم تأمون وذلك لان «القاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي حقه بل بولاية المسلمين وحقوقهم ، وانما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ، لهذا لم تلحقهُ العهدة كالرسول في سائر العقود ، والوكيل في النكاح ، واذا كان رسولاً كان فعله بمنزلة فعل عامة المسلمين »[1]

ولئن كانت الخلافة في بدء الاسلام نظاماً جمهورياً ارستوقراطياً فقد تحولت في زمن بني امية الى مُلك واصبحت دمشق الشام على ايدي الخلفاء او الملوك الامويين حصن العروبة الحصين وكانت الرابطة في الشرق كما كانت في الغرب رابطة دينية والاسلام كما هو معروف دين اممي ارسل الى جميع البشر على السواء الا أن كثرة الداخلين فيه من الاقوام الاخرى جعلت مركز العرب وحماته حرجاً خصوصاً لانهم كانوا بعد في دور التأسيس والفتح ، ولولا هذه النعرة العربية التي تجلت في بني امية لكان الخطر على الدولة الحديثة خطراً حقيقياً ولكان من المتعذر التنبؤ بما عسى ان يحدث يومئذٍ من التحولات في النشوء الديني في الشرق الادنى

ومما يسترعي الانتباه في امر الخلافة ويشير الى معنى من المعاني السياسية الحديثة المهمة عهد الطاعة للخليفة فقد اطلق المسلمون على هذا العهد اسم البيعة وكانوا « اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فاشبه ذلك فعل البائع والمشتري » او اشبه « المقاولة الاجتماعية » المبنية على فكرة التراضي والتي شرحها (جان جاك روسو) وجعلها الاساس المشروع للحكومات فكانت سبباً للثورة الفرنسوية . ولا يضير هذه المبايعة الحرة ما أصابها من الاكراه في بعض الاحوال والانتقال من المصافحة بالايدي الى تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل او غير ذلك من علامات الخنوع على الطريقة الغريبة عن العرب والتي دعاها ابن خلدون « كسروية »[2] لان الاصل هو التعاقد الحر كما هو ظاهر اولاً من اللفظ الدال على البيع والشراء وثانياً من العمل الذي يدل على التراضي بالمصافحة يداً بيد

(١) الاسلام واصول الحكم ص ١٠٠ (٢) « المقدمة » ص ١١٧١

﴿ ابن خلدون ﴾ ويكون بحث السياسة في الاسلام ناقصاً اذا لم يذكر ابن خلدون بشيء من الايضاح لان اسمهُ سيبقى مقروناً دائماً بالطريقة العقلية المنطقية في معالجة التاريخ الاسلامي، ولا تقل قيمة كتابته بهذا المعنى عن أثمن مخلفات المتقدمين السياسية من اغريق ورومان وهو الاقنوم الاخير في الثالوث الاجتماعي الذي يدخل فيهِ افلاطون وارسطاطاليس، وقد ذكر في « المقدمة » ان الخلافة الخالصة كانت في الصدر الاول الى آخر عهد علي ومن ثمَّ تحوَّلت الى ملك ولكن بقي هذا الملك محافظاً على معنى الخلافة بحيث لم يتغير فيها الا الوازع فقد كان دينيًّا ثم انقلب عصبية وسيفاً ولكن معنى الخلافة ايضاً زال من بعد هرون الرشيد وولده وزوال عصبية العرب فلم يبق منها الا الاسم وبلغ التحول في زمن ابن خلدون ان اصبح الامر ملكاً بحتاً « فكان الناس يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع القابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منهُ شيء »

ومن الطف ما عمله ابن خلدون انهُ فرق بين الخلافة والملك والسياسة فجعل الملك حمل الناس على ما يقتضيه الغرض والشهوة ، والسياسة حملهم على ما يقتضيه النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية وهو ما يعادل كلمة Politics عند الاغريق ، الخلافة حملهم على ما يقتضيه الشرع ، وعنده ان السلطتين القضائية والتنفيذية هما في يد رأس الحكومة الاسلامية ، وقد أيَّد ذلك بقوله لما كان الجهاد مشروعاً في الملة الاسلامية لعموم الدعوة وحمل الناس على دين الاسلام اتحدت فيها الخلافة والملك « لتوجه الشركة من القائمين بها اليها معاً ، واما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة (هذا خطأ) ولا الجهاد عندهم مشروعاً الا في المدافعة فقط (وهذا من الوجهة العملية خطأ) فصار القائم بامر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك (وهذا من الوجهة التاريخية خطأ) لانهم غير مكلفين بالتغلب على الامم الاخرى وانما هم مطالبون باقامة دينهم في خاصة انفسهم » [1]

واستجد في عصرنا هذا مساعٍ اصلاحية غايتها فصل الشؤون الدينية عن الشؤون السياسية تحريراً للاسلام من سلطة اوربا الاستعمارية فكان للمجددين على هذا النمط يرون ان التفريق بين حالة المسلمين المدنية المقيدة بالسلاسل والاغلال وحالتهم الدينية المبنية على عقائدهم الوجدانية يجب ان يفسح للدين مجالاً حرًّا تظهر مزاياه العملية ومقاييسه الاخلاقية بشوبها التشويب مما يؤول بالمسلمين في آخر الامر إلى ترقيتهم المادية والمعنوية ويسمح لهم بتنظيم شؤونهم بما لا يعرضهم للاحتكاك بالسلطة السياسية المتغلبة

بل ان بعض الكتَّاب المفكرين ذهب إلى أبعد من ذلك فجعل الاوضاع السياسية حتى في الصدر الاول ومنها الخلافة طبعاً ليست من الدين في شيء فالمسلمون اليوم أحرار في نظره غير

(١) المقدمة ص ١٦١

مقيدين في انتخاب المنهاج السياسي الذي يلائم احوالهم ؛ ومن هؤلاء الكتّاب السيد علي عبد الرازق فقد ذهب في رسالته « الاسلام وأصول الحكم » إلى ان الخلافة وضع سياسي حدث في زمن ابي بكر وان لقب خليفة رسول الله « كان سبباً من أسباب الخطإ الذي تسرّب إلى عامة المسلمين فخيل اليهم ان الخلافة مركز ديني وان من ولي امر المسلمين فقد حل منهم في المقام الذي كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١)

« وكان من مصلحة السلاطين ان يروجوا ذلك الخطأ بين الناس حتى يتخذوا من الدين دروعاً تحمي عروشهم ، وتذود الخارجين عليهم .... حتى اقيموا الناس إن طاعة الائمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله .... وحرموا عليهم النظر في العلوم السياسية وباسم الدين خدعوهم وضيقوا عليهم ... ثم حرموا عليهم كل ابواب العلم التي تمس حظائر الخلافة وكل ذلك انتهى بموت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين .... والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية .... ولا شيء في الدين يمنع المسلمين ان يسايروا الامم الاخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا له واستكانوا اليه »

وغني عن البيان ان الغاية التي وضعها السيد علي عبد الرازق نصب عينيه هي تحرير العالم الاسلامي من الجمود المستحوذ عليه وفك مخالب القرون الوسطى الناشبة في عقليته » فعمله هو عمل اصلاحي اجتماعي جريء ؛ لكن لئن ساغ هذا الكلام من الوجهة الغائية فهو لا يسوغ من الوجهة التاريخية العلمية لان الاسلام لم يبق على معظم ما كان عليه قبل الهجرة من الاقتصار على التوحيد والتنزيه وهو فضيلته الكبرى وغايته العظمى والدرس البليغ الذي تلقاه كما يقول (آتش . جي . ول) مما حدث في النصرانية من النظريات اللاهوتية (٢) بل ان خوضه المعارك للدفاع عن حوزته بقوة السلاح حتى افتتح مكة عنوة واخضع العرب المشركين بالقوة أدى بالضرورة إلى تلك القواعد السياسية الدنيوية التي سارت وقواعده الدينية الاخروية كتفاً لكتف ، خصوصاً لان الاسلام دين عملي عالج امور واقعة اكثر مما عالج شؤوناً نظرية فليس من المعقول ان يفتتح المدن وتتكمل عامته باكليل الظفر الباهر من غير ان تكون له قواعد سياسية تنشى البلاد بموجبها ، ويتعامل الغالب مع المغلوب بمقتضاها ، ولكن هذا الكلام لا يمنع رجال الاصلاح ابداً إن يدرسوا الدين درساً تاريخياً نفسياً اجتماعياً يؤدي إلى احاطتهم بروح التشريع الاسلامي ومعرفتهم ما هو الجوهر وما هو العرض في جميع ما عمل باسم الدين وتحت تأثيره ، فيروا موقفهم السياسي الخاص والقضايا الاجتماعية المتعلقة بهم على ضوء هذا الدرس التحليلي المستند إلى المكتشفات الحديثة ، وحينئذ لا تخالهم يصطدمون بشيء من العقبات فيما ينشدون من الاصلاح لان الدين متى كان عملياً في روحه جعل المصلحة العامة اعتباراً فوق سائر الاعتبارات

(١) الاسلام واصول الحكم ص١٠١ وما بعد (٢) Outlines of History, p 622

سبيلا العظمة

الاول — اتبع القوم سرّ معهم وسايرهم ولكن اسرع الخطى فتقترب من مقدمتهم . ادفع الناس بالمناكب دس على الاقدام وان اعترضوك فكشر لهم وخاصمهم وسبهم فيوسعوا لك حتى تصير امام الجميع

التفت حينئذ الى الذين سبقتهم مزدرياً عاداتهم متهكماً تقاليدهم وافعل ما تختار ولكن لا تتجاوز حد العقل . هذا سبيل العظمة سبيل الاستخفاف بالرفاق بعد سبقهم لانك اذا بقيت في صفوفهم وجاريتهم في رغائبهم احاطوا بك ودلوا عليك واستخفوا بك ونسوك فاربأ بنفسك وترفع عنهم فاما ان يعلو شأنك بينهم فيختاروك زعيماً لهم او ينقموا عليك وينتقموا منك فيقتلوك فتحسب شهيداً وتبعد

الثاني — تعلم تهذّب قوّ جسمك وعقلك انكر نفسك انهض الساقط ساعد المسكين ارشد الضال اقتفِ خطوات سقراط . سر في سبيل المسيح قد تقتل او تصلب ولكنك تلاقي حتفك مسروراً وتخلد اسمك . فأيهما تختار

[عن مقتطف نوفمبر ١٩٢٥]

سر النبوغ في الادب

لمصطفى صادق الرافعي

لو ترجمنا الخاطرة التي تمرُّ في ذهن الحيوان الذكي حين ينقاد في يد رجل ضعيف أبله يُصرِّفُهُ ويُديرُهُ على أغراضه فنقلناها من نكر الحيوان إلى لغتنا وأديناها بمعنى مما بين الانسان والحيوان لكانت في العبارة هكذا : ما أنت أيها الابله فيما بيني وبين الحقيقة المدبرة للكون الا نبيٌّ مرسل صلى الله عليك وسلم ... ذلك ان التركيب الذي يَبِينُ به الانسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دمغ به على خصائصه فأفرغه الله في جلده ووضع في رأسه ذلك القفل الالهي الذي حبسهُ في باب الاضطرار من غرائزه البهيمية واقفل به على الدنيا العقلية المتَّسعة بينه وبين الانسان فالكون عنده لغوٌ كلُّهُ ليس فيه الا حقائق يسيرة ثم لا تفسير لهذه الحقائق الا من طبيعته هو، فجلده أدق تفسير فلكي... للشمس والنور والهواء وما يجيء منها وجوفهُ اصح تعبير جغرافي ... للكرة الارضية وما تحمل وجوعهُ وشبعهُ هما كل فلسفة الشر والخير في العالم

فأساس الذكاء عالياً ونازلا هو التركيب الطبيعي لا غيره، فلو زادت في الدماغ ذرة أو نقصت لزادت الدنيا صورة أو نقصت فبالضرورة تكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين حدَّة الذكاء في أفراد كل نوع من الحيوان وما نشهد من ذلك في أحوال الناس من النقطة الى الذكاء[1] إلى الالمعية إلى الجهبذة إلى النبوغ الى العبقرية وهي طبقات من ألفاظ اللغة لاحوال قائمة من هذه المعاني ترجع إلى درجات ثابتة في تركيب الدماغ

ومما يسجد له العقل الانساني سجدة طويلة . اذا هو تأمل في حكمة الله وسرٍّ يتصفح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ — ان هذا الوجود الذي يحمل اسرار الالوهية هو كرة متقاذفة في الفضاء الابدي وان الارض التي تحمل أسرار الانسانية هي كرة طائرة فيما مُدَّ لها من الوجود وان كل حي فيها يحمل أسرار حياته في كرة خاصة به هي رأسه . وان الوجود من كل حي هو بعد ذلك ليس شيئاً في النظر ولا في الحس ولا في الفهم الا كما يُرى ويحس ويفهم في هذا الرأس بعينه على طريقته وتركيبه ، فبعد التدريج الى الكبير الى الاكبر وينزل إلى الصغير الى الاصغر ثم لا معنى لما بعد الا ما نزل ، وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى تفذ العلماء الى السر الحقيقي ان العقل الانساني فهم كل شيء ولم يفهم شيئاً . . . .

(١) عندنا ان النقطة في اللغة دون الذكاء تقابل ما عند الحيوان من التنبه . والذكاء اتوقد والفهم

والناس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيه من هذا التدريج . فأما واحد فيكون دماغه باعتباره من سائر الناس في الذكاء والعقل كالوجود المحيط وأما آخر فكالشمس ثم غيرها كالارض ثم الرابع كالانسان ثم يكون منهم كالحيوان ومنهم كالحشرة ، ولا علة لكل هذا الا ما هيأت الاقدار « بأسبابها الكبيرة » لكل انسان في تركيب دماغه في نوع المادة السنجابية من المخ ، وأحوال التركيب في الملايين من الخلايا العصبية ، وما لا يعد من فروع هذه الخلايا وشعبها ، ثم ما يكون من قبل العلاقات بين هذه الفروع التي هي لكل رأس كرسل الكرة الارضية ، ثم اختلاف مقادير المواد الكيماوية التي تتخلق في غدد الجسم وتنفثها الغدد في الدم

فقد يكون العمل النابغ المتمرد على العقول آتياً من قطرة في هذه الغدد كما ينبعث العملاق المارد بعظامه الممتدة ونواحه المشبوحة من غدته النخامية لا غيرها

فالذكي من ذكي مثله انما هو كالجيش من جيش بأن يقع الاختلاف بينهما فيما اشتملا عليه من كثرة الجند وسلاحهم من القوة والضعف واحوالهم من النظام والاختلال وقوة آلاتهم ومقدارها ونوع الاختراع فيها ثم طبيعة موضعهم وحسن توجيههم وقيادتهم وما اكتنفهم من صعب أو سهل وما تظاهر عليهم من الحوادث والاقدار ثم التوفيق الذي لا حيلة فيه ان وقع في حصة احدهما واستقر أو وقع هوناً وطار للآخر . وبنحو من هذا كله تكون المفاضلة اذا وازنت بين اثنين من النوابغ في حقيقة نبوغهما

فالنابغة خلقٌ من خلقه يصنع كما ترى بأقدار الله اذ هو قدر على قومه وعلى عصره وهو من الناس كالورقة الرابحة من ورق السحب (الباصيب) ؛ سلَّمهُ يد جعلتها مالاً وتركت الباقيات ورقاً وأحدثت بينهما الفرق الذهبي ، وبهذا لا يستطيع العالم ان يزيد الدنيا نابغة الا اذا استطاع ان يزيد في الكواكب نجماً فيصنعهُ . وهبهُ صنعهُ من الكهرباء فيبقى ان يحمله واذا حملهُ بقي ان يرفعهُ الى السموات وهبهُ قدر رفعهُ فيبقى على كل شيء . . . يبقى عليه ان يقحمهُ في النجوم ويرسله فيها يدور ويتفلك

وكما يخلق النابغة بتركيبه تخلق لهُ الاحوال الملائمة لعمله الذي خص به في أسرار التقدير عاملاً نافعاً وان كانت لا تلائمه هو منتفعاً فانه هو غير مقصود الا من حيث انه وسيلة أو آلة تكابد ما تحتمل في أعمالها وتؤتى لها لتأخذ على طريقة وتصلي على طريقة ؛ وبذلك يرجع التقدير الى ان يكون العقل النابغة دليلاً للناس من الناس لقسمهم على الخالق الذي هو وحده أمره الامر

واذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء النوابغ والخيال يظهر في تعبيرهم والحكمة تهبط الى الدنيا في تفكيرهم والمثل الاعلى هم الداعون اليه والاشواق النفسية هم موقظوها والعواطف هم المحرورون لها وسرور الحياة هم الذين حولوه إلى الفن . إذا كان هذا كله فهذا كله انما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الازلية المدبرة وأنهم أدواتها في هذه المعاني فما هي أعمالهم اكثر مما هي أعمالها وقد يظن الناس ان النابغة يلتمس القوى المحيطة به ليبدع منها والحقيقة انها هي تلتمسه لتبدع به

ويصبح فالنابغة كأنه انسان من الفلك فهو يخزن الاشعة العقلية ويُريقها وفي يده الانوار والظلال والالوان يعمل بها عمل الفجر كلما أطلت على الناس معاني الحياة ، ولا تزال الحكمة تلقي اليه الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها وتوحي اليه معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق . والطبيعة خلقها الله وحده ولكنها ليست معقولة الا بالعلم وليست جميلة الا بالشعر وليست محبوبة الا بالفن ، فالنوابغ في هذا كله هم شروح وتفاسير حول كلمات الله ، وكلهم يشعر بالوجود فنا كاملا ويشعر بنفسه شرحا لاشياء من هذا الفن ويرى معاني الطبيعة كأنما تأتيه تلتمس في كتابته وشعره حياة اكبر وأوسع مما هي فيه من حقائقها المحدودة ، وتتعرض له أحزان الانسانية تسأله ان يصحح الرأي فيها باستخراج معناها الخيالي الجميل فانها وان كانت آلاما وأحزانا الا ان معناها الخيالي هو سرور تحمله النفس اذ كان من طبيعة النفس البشرية ان تسكن إلى وصف آلامها وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرها حاملة أثرها الالهي كأن المؤلم ليس هو الألم وانما هو جهل سره

وبالجملة فالكون يختار في كل شيء عنصره العبقري ليكشف من غموضه ويزيد فيه أيضا.... ثم ليؤتي الناس المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الاعلى من الفكر . ولهذا تصيب الكلام الذي يكتبه النابغة الملهم في أوقات التجلي عليه كأنه كلام صوّر نفسهُ وصاغها او كأنه قطعة من الحس قد تجسدت في أسطر ، ولابد ان تشعرك الجملة أنها قذفت وحيا إذ لا تجدها الا وكأن في كلماتها روحا يرتعش . ولقد يخطر لي وانا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من الاذهان الملهمة كشكسبير والمتنبي وغيرهما حين أتأمل اختراع المعنى وأبداع سياقه وتُضحى البيان عليه واشراقهُ فيه وما اتيح له من جلال ظاهر في شكل حي يلمح بسره في النفس — يخيل اليَّ من ذلك ان سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحيانا بذهن انساني ليخلق تعبيرا عن جلاله في مثل جلاله

وأنت لو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الالهام وأجريتهُ في كتابة كاتب أو شعر شاعر من الذين ليس لهم الا أذهانهم يكدونها وكتبهم يحملونها أذهانهم أحيانا . . . . لرأيت الفرق بين شيء وشيء في أحسن ما انت واجده لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الانسان بالابرة والخيط وزهرة أخرى قد انبثقت عطرة ناضرة في غصنها الاخضر من عمل الحياة بالسماء والارض

والعبقري هو أبدا وراء ما لا ينتهي من جمال أولهُ في نفسه وآخره في الجمال الأقدس الذي منبع عن هذه النفس الجميلة السامية . فما دام فيه سر العبقرية فهو دائب يعمل عمرتَ حياته في سبحات النور تمزيقا يجتمع منهُ أدبهُ وما أدبه الا صورة حياته ، وهو كلما أبدع شيئا طلب الذي هو أبدعُ منه فلا يزال متألما إن عمل لان طبيعته لا تقف عند غاية من عمله ومتألما إن لم يعمل لان تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ الا في عمل . وهي طبيعة متمردة بذلك الجمال

الاقدس تَرِد العشق في حامله إذ هما صورتان لامر واحد كما سنشير اليه . فكلُّ ما تجنه في نفس العاشق المتدله مما يترامى به الى جنونه وهلاكه تجد شبهاً منه في نفس العبقري فكلاهما قانونهُ من طبيعته وحدها إذ قد اتخذت حياتهُ شكلها الفريد وذوقه هو وحده فليس يتبع طريقة أحد بل هو طريقة نفسه[1] ، وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستقبض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع اليه ويستمدُّ منهُ . وكلاهما لا يجد المعنى الجميل في الطبيعة معنىً بل رسولاً من الجمال أُرسل اليه وحده ولا يزال يشعر في كل وقت أن لهُ رسائل ورُسُلاً هو بعدُ في انتظارها . وكلاهما متى ظفر بشيء من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه الى الظن انهُ روح من الكون ريحاً لم يكن لهُ من قبل . وكلاهما متهالك بين قيود الحياة التي في الحياة والواقع وبين حريتها التي في خياله وأمله كأن عليه في سبيل هذه الحرية أن يقطع الليل والنهار لا قيداً من قيود الاجتماع او العيش . وكلاهما متصلٌ بقوة غيبية وراء ما يُرى وما يحس تجعل نظرته في الاشياء خاصة كأن نظرة العاشقة في العينين الساحرتين المشوقتين . فاذا مدَّ عينيه في شيء جميل فهناك سؤال وجوابهُ ووحيٌ وترجمتهُ ومرور من يقظة الى حلم وانتقال من حقيقة الى خيال

غير أن طبيعة العبقري تزيد على كل ذلك ألماً تنفرد به لا تستقرُّ معهُ على رضا ولا يَبْرَحُ يُسلِّط الإعنات عليها ويستغرقها بالهموم السامية وذلك ألم الكمال الفني الذي لا يدرك العبقري غايته عند نفسه وان كان عند الناس قد أدرك غايات وغايات . فطبيعة كل عبقري تجهد جهدها في العمل لتُخرج به مما يستطيعهُ الناس فاذا تأتّى صاحبها لذلك وكابد فيه وأدرك منهُ وبلغ وأعجز اندفعت طبيعتهُ الى الخروج مما يستطيع هو .... كأنهُ خارجٌ عن الطبيعة وداخل في الطبيعة في وقت معاً وكأنهُ نفسهُ وفوق نفسه في حال ، وهذا سرُّ حريته وسموه كما انهُ سرُّ ألمه وحَيْرته

ومن أثر ذلك ما تحسُّهُ أنت اذا قرأت للاديب البليغ التامّ صاحب الفكر والاسلوب والذهن الملهَم فانك تقف على المعنى من معانيه عِلماً تمسك بتسدُّد فيها ويهتزُّ بها طرباً

(١) لا وجه عندنا لما استعمله بعض الكتاب في الادب من قولهم مدرسة امرىء القيس ومدرسة النابغة ونحو ذلك تزجة حرفية لقول الاوربيين مدرسة فلان ومدرسة فلان فان الادب ان كان تقليداً فهو ادب منحط لا يجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها وان كان ابداعاً فليس الابداع مدرسة تكون بالعلم والتلقين ويتخرج بها تواحد والمائة والالف على طراز لا يختلف . انما تنطبق هذه الكلمة على المذاهب المستقرة في الفنون التعليمية وفي هذا لا تطلق في الادب العربي الا على قليل فقط هي البصريون والكوفيون على ان كلة مذهب هي المستعملة في هذا وهي اسد منها اذ يدل المذهب على منحى اختاره الرأي وذهب اليه فكأنه عن تحليل صاحبه وتأبيه . اما تسمية مجموعة الالهامات التي مرت في ذهن نابغة من النوابغ بالمدرسة فتسمية مضحكة باردة اذ الالهام بصيرة خفية وما هو مما يقلد وقلما تشابه ذهنان على الارض في عناصر التكوين التي تأتي منها النبوغ . وقد قال علماؤنا طريقة فلان وطريقة فلان فالطريقة هي الكلمة الصحيحة لان عليها ظاهر العمل واسلوبه يتوجه بها من يتوجه ويقلد فيها من يقلد اما سر العمل فهو سر النفس ايضاً وهو شيء في الروح والبصيرة . وهو في العبقري امر لا يستطيعه انسان وشذ في الانسان يخصوصه

واعجاباً فتقول لا أحسن من هذا ثم تؤمل مع ذلك ان تجد منهُ هو أحسن من هذا . . . كانهُ وإن تناهى الى الغاية لا يزال عندك فوق الغاية. وهذا غريبٌ ولكن لا دليل على العبقرية الاَّ الغرابة دائماً وهي نظامٌ لا نظام فيهِ لانها طريقةٌ لا طريقة لها . وبهذه الغرابة جاءت العبقرية كلها أمثلة وليس فيها قواعد يحتذى عليها ولا هداية فيها الاَّ من الروح واذا كان الفن قدرة متصرفة في الجمال فالعبقرية قدرة متصرفة في الفن ،والنابغة كالمتكيِّس [1] الذي معهُ قوى العقل ويريد أن يزداد على قدرهِ منها ولكنَّ العبقريَّ كالالهيِّ الذي معهُ قوى الروح ويريد ان يزيد الناس على قدرهم بها ، وذاك مرجعهُ التفكر الدقيق الباحث وهذا مناطه البصيرة الشفافة النافذة وهي اغرب الغرائب في الانسان إذ هي الجبهةُ المطلقة في هذا المخلوق المقيَّد وبها تتسع النفس لادراك انطلق الظاهر من خلال الموجودات وفيها تتحول الاشياء من نظام الحاسَّة الى نظام الروح فيُسمعُ المرئيُّ ويُبصر المسموعُ وتخلع الاجسام القاماً وتلبس الاصواتُ اشكالاً ويبدو عندها كل مخلوق وكأن فيهِ بقية زائدة على خلقه تُركت ليعمل فيها الكاتب او الشاعر المحدَّث [2] عمل فنه الزائد على الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه وهي التي نسميها الإلهام

وهذه الحاسة هي كذلك من بعض الغرابة تكون في صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه في الطيور التي تقطعُ في جو السماء الى غاياتها البعيدة من قطب الارض الى قطبها الآخر بغير دليل تحمله ولا رسم تنظر فيهِ ولا علم ترجع اليهِ ، وكما تكون حاسة التمييز في النحل الذي يبني عسلتهُ على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة ، وحاسةُ التدبير في النمل الذي يدبِّر مملكتهُ بغير علوم الممالك وسياستها . وكثيراً ما يجيء الاديب الملهم من حقائق التفكر وبيانه وأسرار الطبائع واوصافها بما يغطي على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء . ومثل هذا العبقري هو عندي فوق العلم لا أقول بدرجة ولكن بحاسة

والالهام يكون لكل عبقري ذهنهُ الذي معهُ وذهنهُ الذي ليس معهُ اذ كانت له من وراء خياله قوة غير منظورة ليست فيهِ ومع ذلك تعمل كما تعمل الاعضاء في جسمه هيئة منقادة كأنها تتصرف على اطِّراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تتجلَّى عليهِ

وليست تتعلل هذه القوة الاَّ بتركيب عصبي تكون فيهِ الخصائص التي تصلح أن تتلقى عنها وهي في العبقريين خصائص مَرَضية في الاعم الاغلب بل لعلها كذلك دائماً ليتيسر بها

---

(١) من الكيس وهو العقل فيكون عاقلا ويريد ان يزداد على مقداره (٢) هذه هي الكلمة القديمة التي تقابل ما نسميه العبقري بلغة عصرنا كأن الاشياء تحدثه باسرارها او تحدثه بها قوة أعلى من القوى الانسانية ولذا كان محمداً صلى الله عليه وسلم يتنفى عن نفسه ذلك انه ينطق عن سمع من الغيب . ومن ذلك ما زعم العرب من ان لكل شاعر شيطاناً يبث على لسانه وهو وصف دقيق للعبقرية الا انه مالئة الجاهلية وقد صححه النبي صلى الله عليه وسلم فقال لشاعره حسان . قل وروح القدس معك . وفي كلة « روح القدس » . تنطوي فلسفة العبقرية كلها

العبقري حالة خفيفة من الموت . . . . يحس بها كمد وتعبه وما يعانيه من مضض الفكر وتقلبه ، ثم لتكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيه وبين عالم الغيب معه . فالتركيب العصبي في دماغ العبقري انسان على حياله مع انسان آخر ، أحدهما لما في الطبيعة والثاني لما وراء الطبيعة ، ومن ثم كان الرجل من هذه الفئة كالمصباح يتقد وينطفىء لانه آلة نور تفرض لها العلل فتذهب بقدرتها عليه ، وتنضب مادة النور منها فكذلك لا تقدر عليه ، وتكون مغيبة فتنطفىء بسبب ليس منها ولا من نورها وهي على كل هذه الاحوال لا تملك منها حالة . فبينما العبقري الذي يملأ الدنيا من آثاره النابغة تراه في حالة من أحواله يدأب لا يأتي فيجد في العمل ويبذل الوسع فيه ويصبر على مطاولة التعب في إحكامه ويفيض به فيضاً وكأن في طبيعته الربيع المتفتح طول ايامه بالجمال اذا هو في حالة اخرى يتاكأ ويتربص لا يعمل شيئاً كأنما دخل في قريحته الشتاء ، وفي ثالثة يتباطأ ويتلبث فلا يعنّ له جديد كأنما حبس عنه فكره أو نبا طبعه أو هو في قيظ طبيعته وخمولها وضجرها ثم لا تمضي على ذلك الا توّة وساعة فاذا على صيغة هو الاتوفير وديسمبر . . . واذا هو منبعث ملء القوة والنشاط . وتارة يأخذ في غرض من الكتابة قد رسم له المعنى وهيأ له المادة فلا يكاد يمضي لنحوٍ منه حتى تتناسخ في ذهنه المعاني فاذا هو يكتب ما لا يشبه ما كان ابتدأ به ويأتيه غير ما كان قد أراده كأنما يُلقى عليه فهو يستملي . وقد يبتدئ معنى ثم يُقطع عنه بطارئ من عمل او حديث ثم يُعاوده فاذا معنى آخر واذا جهة من الفكر هي جهة الابداع والاختراع في موضوعه واذا هو انما كان يُجبَر بذلك الصارف عن معناه الاول جرّاً لبدعه الى الاكمل والاصح ، وأيقن انه لو كان استوفى على ما بدأ لأسف وضعف وجاء بما غيره أقدر عليه كأن هذه القوة الخفية التي تلهمه تتنحّى له ايضاً بأساليبها الغريبة . وقد يكون آخذاً في عمله ماضياً على طبعه مسترسلاً الى ما ينكشف له من أسرار المعاني ثيقفاً من هنا لقيفاً من هناك[1] ثم ينظر فاذا هو قد شُمِخ لوح خياله ويطلب المعنى فلا يتاح له وينادي فلا يزيد الا كدّاً وعسراً كأنما ذهب إنهابه في شمّاء من شُمُوص الابدية[2] وكل من ارتاض بصناعة الفكر واستحكمت له عادتها ومرّن في درجاتها حتى بلغ الملكة التي يستشرف منها الإلهام ويتعرض فيها بروحه ويتعرّف لنسمات الوحي والكيفيات التي يعلم ان كل معنى بديع يأتي به في صناعته انما يقع له إلهاماً من ذلك المعنى الحي المتمدد في

(١) يقال هو يقف لقف اي سريع الفهم لما يلقى اليه ولكنا استعملناه كما ترى بفاء اشد تمكناً بين اصله

(٢) قالوا كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول : عمر عني الساعة وفتح ضرس من اضراسي احسن علي من عمل بيت من الشعر . وذكروا انه كان من عمله اذا استصعب الشعر عليه أن يركب ناقته ويطوف وحده خالياً منفرداً في شعاب الجبال ويطول الاوبة فينقاد له الكلام . وأشارهم كثيرة في الطرق التي يستعان بها على الشعر ويجتلب بها بارقه ، والحقيقة انها علل من النفس تعارض حالة الالهام اذا أن تزول وتهدأ النفس منها أو أسباب تعوق ولا تهم شيئاً الى أن تتغير بأسباب مليمة

الكائنات كلها ظاهراً في شيء منها بالضوء وفي أشياء بالالوان وفي بعضها بالحركة وفي بعضها بالانسجام وفي بعضها بالروعة والفخامة وفي غيرها بنسبة الهيئة وظاهراً في حالات كثيرة بانهُ غير ظاهر ، ويعرف كذلك أن هذا المعنى الشامل الذي لايحد هو الذي ينقل الوجود كله الى نفوس النوابغ[1] متى تبض في هذه النفوس الرقيقة وأشعرها سرّه . واذا لم النابغة أن يترجمه لايرى شيئاً واذا اراد حجة عليه ليستعلم للجلاء عن بيانه بكلمة واذا التمس التعريف به لم يجد الا ما يشهد له إحساسه وقلبه . وهذا الذي يتقدح في أذهان النوابغ أفكاراً حين يفيضُ لكل منهم بسبب من قراءة او مشاهدة او حالة او مراس ، هو هو بعينه الذي يتقدح عشقاً في قلوب المحبين حين يتراءى لكل منهم في معنى على وجه جميل ، ومن ثم كان النابغة في الادب لا يتم نابغة الا اذا أحب وعشق وكان الادب نفسه في تحصيل حقيقته الفلسفية ليس شيئاً سوى صناعة جمال الفكر

وهذا الحس في ذلك الجهاز العصبي الخاص به في بعض الادمغة هو الذي كان يسميه علماء الادب العربي بالتوليد وقد عرفوا أثره ولكنهم لم يتنبهوا الى حقيقته ولا ادركوا من سره شيئاً واحسن ما قرأت فيه قول ابن رشيق في كتاب العمدة : انما سمي الشاعر شاعراً لانهُ يشعر بما لا يشعر به غيره فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، او استطراف لفظ وابتداعه ، او زيادة فيما احتف به غيره من المعاني او نقص مما اطاله سواه من الالفاظ او صرفُ معنى الى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ولم يكن له الا فضل الوزن. هذا كلام ابن رشيق وليس لهم احسن منهُ وهو مع ذلك تخليط لا قيمة لهُ وليس فيه من موضوعنا الا لفظ التوليد

ومما لا نقضي منهُ عجباً في تتبع فلسفة هذه اللغة العربية العجيبة اننا نرى اكثر الفاظها كالتامة لا ينقصها شيء من دقائق المعنى في اصل وضعها على حين لا يفهم علماؤها من هذه الالفاظ الا بعض ما تدل عليه كلها منزلة تنزيلاً ممن يعلم السر وقد نبهنا الى هذا في كتابنا (تاريخ آداب العرب) وافضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته . وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التي تفوت العقل حتى ان اكثر الفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفضَّ العلوم والفلسفة خواتمها في عصور آتية لا ريب فيها[2] . وكلمة التوليد التي لم يفهم منها العلماء الا اخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الاخذ التي اشاروا اليها في كتب الادب — هي الكلمة التي لا يخرج منها شيء من اسرار النبوغ ولا نجد ما يسدُّ في ذلك مسدَّها او يحيط احاطتها ولا نظن في لغة من اللغات ما يشبهها في هذه الدلالة واستيعابها كل اسرار المعنى اذ هي بلفظها نصٌّ على حياة الكون في الذهن الانساني وانهُ يتخذه وسيلة لابداع معانيه كما يتخذ سرُّ الحياة بطن

(١) هناك فرق علمي بين ما يسمى نبوغاً وما يسمى عبقرية ولكنا في هذا الفصل أطلقنا الكلام وقيدنا في مواضع بخصوصها ، ويكاد الفرق بين النابغة والعبقري في جماع امره أن يكون كالفرق بين التطرف الذي طريقه عادة السلك وبين الاخر الذي طريقه روح المجد . فكلاهما هو الاخر ولكن احدهما لا بد له من طريق مسلوك والاخر طريقه كل الطرق أي فوق أن يقيد بطريقة

(٢) على هذا المعنى وكشف اسراره في آيات القرآن سيبنى كتابنا الجديد «اسرار الاعجاز»

الأمم وسيلة لابداع موجوداته ، وان المعاني تتلاقح فيلد بعضها بعضاً في اسلوب من الحياة وان هذه هي وحدها الطريقة لتطور الفكر واخراج سُلالاتٍ من المعاني بعضها جميل من بعض كما يكون مثل ذلك في النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ، وان النبوغ ليس شيئاً الاّ التركيب العصبي الخاص في الذهن ثم نمو هذا التركيب مع الحياة في طريقةٍ سواء هي وطريقة الولادة المحببة التي مرجعها كذلك الى تركيب خاص في احشاء الانثى ينمو ثم يدرك ثم يعمل عمله المعجز . واذا كان من كل شيء في الطبيعة زوجان فالكلمة نصٌّ على ان اذهان النوابغ اذهان مؤنثة في طباعها التي بنيت عليها ، وهذا صحيح اذ هي انوى الاذهان على الارض في الحسّ بالآلام والمسرات ، ومعاني الدموع والابتسام اسرع اليها من غيرها بل هي طبيعة فيها . وهي وحدها المبدعة للجمال والمنشئة للذوق وعلمها في ذلك هو قانون وجودها ، ثم هي قائمة على الاحتمال والاعطاء والرضا بالحرمان في سبيل ذلك وادمان الصبر على التعب والدقة والاهتمام بالتفاصيل وأساسها الحب ، وكل ذلك من ضياع الانثى وهي النابغة فيهِ بل هي النابغة بهِ

فسر النبوغ في الادب وفي غيره هو التوليد وسر التوليد في نضج الذهن المهيأ بأدواته العصبية المتجه الى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكي الى السماء واجرامها . وبذلك العنصر الذهني يزيد النابغة على غيره كما يزيد الماس على الزجاج والجوهر على الحجر والفولاذ على الحديد والذهب على النحاس ، فهذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد في سر تركيبها وتتفاوت النوابغ انفسهم في قوة هذه الملكة فبعضهم فيها اكمل من بعض وتعدُّ لهم في اختلاف احوال ازمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها ، وبهذه المباينة تجتمع لكل منهم شخصية وتتسق له طريقة وبذلك تتنوع الاساليب ويعاد الكلام غيرما كان في نفسه وتتجدد الدنيا بمعانيها في ذهن كل اديب يفهم الدنيا وتتخذ الاشياء الجارية في العادة غرابة ليست في العادة ويرجع الحقيقيُّ اكثر من حقيقته

وقد سئل مصور مبدع بماذا يمزج الوانهُ فتأتي ولها اشراقها وجمالها ونبوغ معانيها وزهو الحياة بها في الصورة فقال : انما امزجها بمخي . وهذا هذا فان الالوان عند الناس جميعاً ولكن مخه عنده وحده وله تركيبه الخاص بهِ وحده وسر الصناعة في توليد هذا الدماغ فكأن الوانه في صناعته جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كل ما يتناولهُ العبقري فانك لتجد الشعر في وزن خاص بهِ يدل عليه ويتم الغرض منهُ ويضيف الى معانيه أنقاً من الجمال وحسنه والى صوته نغماً من الموسيقى وطربها . فما اشبه الجهاز العصبي في دماغ كل نابغة ان يكون وزناً شعرياً لهذا النابغة بخاصته . الا ترى انك لا تقرأ الاديب الحق الاّ وجدتَ كل ما يكتبهُ يجيء في وزن خاص بهِ حتى لا يخرج عنهُ مرة او تزيد انت فيهِ وتنقص الاّ ظهر لك انهُ مكسور ...؟

والذهن العبقريُّ لا يتخذ المعاني موضوع بحث ونظر وتعقُّب يستخرج منها او يتعلق عليها فهذا عمل الذهن الذكي وحده وهو غاية الغايات فيهِ يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا

ويأخذ من ثم ويعترض ويصحح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شيء وما فيها الا اشياؤه هو وأمثاله .. اما الذهن العبقري فليس له من المعاني الا مادة عمل فلا تكاد تلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتنوخ وتتساقط له اشكالاً وصوراً في مثل خطرات البرق، وربما غمر بالمعنى الواحد في جماله وسحره وقوة تأثيره مقالات عدة لاولئك الاذكياء فنسخها نسخاً وجعلها منهُ كالشموع الموقدة بازاء الشمس . فاذا ذهبت توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات في الروعة والجلال ورأيت عربدة المقالة وغرورها لم تستطع الا ان تقول لها : يا حصاة الميزان في احدى كفتيه ألا يكتبك الجبل في الكفة الاخرى .... ؟

وقد عرف الادباء جميعاً ان كاتب فرنسا العظيم انا تول فرانس كان يكتب الجملة ثم ينقحها ثم يهذبها ثم يعيدها ثم يرجع فيها وهكذا خمس مرات الى ثمان ويقدم ويؤخر من موضع الى موضع ويحتسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً وما هو منها في شيء ولا احسب الاوربيين انفسهم تنبهوا الى سر هذه الطريقة وانما سرها من جهاز التوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم فاذا قرأ كتابة حوَّلها فكره وابدع له منها من غير ان يعمل في ذلك او يتكلف له الا ما يتكلف من يهز اليهِ بجذع الشجرة لتساقط عليه تمراً ناضجاً حلواً جنيّاً. فكلما قرأ ولَّد ذهنه فيثبت مايأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجيء المعنى في النهاية وانهُ لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدي الى طريقته وسياق التفكر فيهِ اذ كان لم يأت الا محولاً عن وجههِ مرات لامرة واحدة

لجهاز التوليد متى استمر واستحكم في انسان اصبح له بمقام ملَك الوحي من النبي وهو عندنا دليل من اقوى الادلة على صحة النبوة وحدوث الوحي وامكانهُ اذ لا تتصرف بهِ الا قوة غيبية لا عمل للانسان فيها بل هي تبدع ابداعها وتلقي عليهِ القاء . وليس كل من تعرض لها ادرك منها ولا كل من ادرك منها بلغ بها بل لا بدَّ لها من الجهاز العصبي المحكم كجهاز اللاسلكي الدقيق المصنوع لتلقي ابعد الامواج الكهربائية واقواها . وهذه القوة ان ارادت معاني الجمال اخرجت الشاعر وان ارادت كشف السر عن الاشياء اخرجت الاديب وان ارادت حقائق الوجود اخرجت الحكيم . فان كان الامر أكبر من هذا كله وكان امر تغيير الحياة وصبّ ازمان جديدة للانسانية والوثوب بهذه الدنيا درجة او درجات في الرقي فهنا تكون الوسيلة أكبر من البصيرة فليس لها من قوة الغيب الا الوحي ويكون الغرض اكبر من الشاعر والاديب والحكيم فلا يختار الا النبي ثم لا يوحى اليهِ الا وهو في حسّ لساعة الوحي وحدها وهي ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقى عن روح الخلد ، وقريب من ذلك خلوة الدابغة بنفسه في ساعة التوليد . فسر النبوغ من سرّ الوحي لا ريب في ذلك، وما اسهل سرّ الوحي وأيسر أمرَهُ ولكن في الانبياء وحدهم وهنا كل الصعوبة... « ان نكون او لا نكون هذه هي المسألة »

كان الكون ذرة وانفجرت

نظرية الاب لمتر في اصل الكون

— ١ —

كل الشموس والسيارات والاقمار نشأت من ذرة ضخمة على اثر انفجارها وتمزقها بهذا تتلخص نظرية الاب لمتر Lemaitre في أصل الكون . وهي من اغرب النظريات العلمية الحديثة وابعدها على الدهشة . وقد عني بها علماء الفلك والرياضة في انحاء العالم ، لانها على غرابتها ، تفسر كثيراً من الحقائق المشاهدة التي حار العلماء في تعليلها

ويرى الاب لمتر ان مادة الكون كلها كانت محشوكة في ذرة ضخمة ظلت ساكنة مستقرة الى قبل عشرة آلاف مليون سنة . ثم انفجرت فجأة كما ينطلق صاروخ من الصواريخ النارية في حفلة وقاء النيل . فانتثرت منهُ الشموس التي يتألف منها الكون

اما كيف تنفجر بعض الذرات فيستجلى في التجربة الآتية : — خذ ساعة ارقام مينائها مصنوعة من مادة فصفورية ، واذهب الى غرفة مظلمة ، وانظر الى الارقام الفسفورية بعدسة مكبرة تر الشرر الناري منطلقاً منها واذا انت تشاهد هذا الشرر المتطاير تذكر ان كل شرارة تنطلق من ذرة منفجرة . وفي كل ذرة منفجرة ترى صورة مصغرة لنظرية الاب لمتر

والمسلَّم بهِ ان ذرة الراديوم تبقى نحو ١٧٣٠ سنة ساكنة هاجعة ثم تنفجر فتنطلق منها الدقائق كما انفجرت ذرة الكون الاصلية وانطلقت منها الشموس

وهذه النظرية تعلل لنا ظاهرة من اغرب الظاهرات العلمية وهي ظاهرة الكون الآخذ في الاتساع أو التمدد Expanding Universe . فالتلسكوبات الكبيرة تبين ان في رحاب الكون ملايين من السدم العدسية الشكل خارج المجرة . والذي عليهِ العلماء الآن ان المجرة نفسها سديم من هذا القبيل وان شمسنا واحدة من الوف الوف الشمس التي تتألف المجرة من مجموعها. واحد هذه السدم — سديم Canes Venatici — يبعد عن المجرة بعداً عظيماً فلا يصل ضوءه الينا الا بعد مسير مليون سنة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ! واغرب من ذلك ان الارصاد تدل على ان هذا السديم يزداد بعداً عنا ثانية فثانية وان سرعة ابتعاده عنا تبلغ ١٧٠ ميلاً في الثانية

وثمة عدا السُّدُم الكبيرة اللامعة سُدُم تبدو لنا صغيرة ضئيلة النور لبُعدها تحصى بالوف الالوف . وعلماء الفلك يجوبون رحاب الفضاء بنظاراتهم والواحهم الفوتغرافية الى بعد

مائة مليون سنة ضوئية لكي يحصوها على قدر الطاقة. والشيء العجيب الذي استرعى انتباههم ليس عدد السُدُم الذي يبلغ الملايين بل ان السُدُم البعيدة اسرع ابتعاداً عنا من السدم القريبة . وقد قيست سرعة احدها فاذا هي نحو ١٢ الف ميل في الثانية

فسأل الفلكيون « ما السرُّ في ان سرعة السدم البعيدة اعظم من سرعة السُدُم القريبة ولماذا يبدو لنا ان هذه السُدُم تبتعد عنا نحن ، واذا كان هذا الابتعاد ناتجاً عن اتساع الكون وتمدّده فلماذا يبدو لنا اننا في المركز وان كلّ ما حولنا يبتعد عنا ؟ »

—٢—

ان دعاة نظرية النسبية يميلون الآن الى الأخذ بان الكون آخذٌ في التمدّد . ولكنهم يستدركون ان ما يبدو لنا من ان الارض في مركز الكون المتمدّد ليس الاّ وهماً بصرياً

ويضربون لذلك المثلَ الآتي :— لنفترض ان كرة الارض تمدّدت في ذات ليلة حتى اصبحت ضعف ما هي قطراً ومحيطاً وابتعاداً بين الاجسام التي على سطحها . في حين ان احجام الاجسام التي على سطحها ظلت هي هي . فاذا استيقظتَ في الصباح وجدت جارك الذي كان يقطن على خمسين متراً منك اصبح يقطن على مائة متر . وصديقك الذي كان يقطن في قرية تبعد ميلاً عنك اصبح يبعد ميلين . وهكذا تجد ان نسبة الاتساع تزداد بازدياد البعد عنك . وكل احد غيرك يرى ما ترى انت ويحسب نفسهُ المركز الذي بعدت عنهُ الاجسام التي على سطح الارض

يقولون : وتمدُّد الكون من هذا القبيل الاّ انهُ يقع في عالم ذي ثلاثة ابعاد فلا يمكن تصوّرهُ . ولكن ظاهرات التمدّد في الحالين متقابلة . فالسُدُم لا تفرُّ منّا . وانما ابتعادها سببهُ تمدُّد الكون . وقد يبدو للقارىء ان هذا التمييز لا يعدو ان يكون جدلاً يدور حول الالفاظ فقط . ولكن الفرق لازم لفهم المسألة . فاصحاب النظرية النسبية يرون فرقاً بين ابتعاد السدُم نفسها وبين اتساع الفضاء الذي هي منثورة في رحابهِ

ولكن هذا الفرض يقوم عليهِ اعتراض . فان سرعة التمدُّد عظيمة جداً . فاذا رجعنا بالكون من حالتهِ الراهنة الى ما كان عليهِ من عشرة آلاف مليون سنة ، وحدناهُ والنجوم مزدحمة فيهِ ازدحام ساعة من الساعات المحتشدة بالسيّارات في ايام الاعياد . وقد يبدو ان عشرة آلاف مليون سنة مدى طويل جداً . ولكن الجولوجيين يقولون ان عمر الارض لا يقلُّ عن الف مليون سنة . واذاً فالزمن المنقضي بين الكون في حالة ازدحامهِ بالنجوم وزمن نشوء الارض والكون الى ما هما عليهِ الآن لا يكفي لحدوث كلّ التطورات الكونية التي انتهت الى نشوء الارض . وهذا منشأ الاعتراض الذي يوجّه الى هذا الفرض

وقراء المقتطف يعلمون ان العالم الفرنسي لابلاس على نشوء النظام الشمسي بما دعي

« النظرية التسديمية » فتصور قطعة سديمية آخذة في الدوران وانها في اثناء دورانها تتسطح عند قطبيها ثم تأخذ في التقلص وتقلصها يزيد سرعة دورانها ، واذ تبلغ سرعة دورانها حداً معيناً ، يتعذر التماسك بين اجزائها : فتنطلق منها حلقات من مادتها وهذه الحلقات تتقلص فتنشأ منها السيارات

ومضى زمن كان هذا الرأي سائداً في دوائر الفلكيين ثم بدت اعتراضات عليه فتخلى عنه العلماء وهم يعتمدون الآن على نظرية اشتغل في استخراجها تشمبرلين ومولتن وجينز وجفريز وغيرهم

على ان النظرية السديمية ظلت معتمَد الفلكيين في تعليل نشوء النجوم من السدم. وهذا النشوء يقتضي زمناً طويلاً تؤيده الارصاد والحسابات الرياضية . فاذا كان القول بتمدد الكون صحيحاً فالزمن المنقضي منذ ما كان الكون خواء الى ان نشأت الارض لا يكفي قط لنشوء النجوم وهو فعل بطيء كل البطء . واذاً فلا بد من تنقيح آرائنا في طريقة تكوُّن النجوم من غبار الكون ، واقتراح طريقة اخرى يكون التكوُّن فيها اسرع مما هو في سابقتها حتى يلتئم ذلك مع سرعة نشوء الكون

—٣—

والظاهر ان في نظرية لمتر مخرجاً من هذا المأزق

فهو يقول ان كل مادة الكون كانت محشوكة في ذرة ضخمة مستقرة . فاذا سئل ماذا كان يحدث في تلك الذرة قال « لا شيء » اذ لا سبيل لحدوث شيء في جسم لا مكان فيه . وليس للوقت أو للزمن معنى في عالم مستقر كل الاستقرار . ثم انفجرت هذه الذرة ، وعمر الكون يجب ان يحسب من تاريخ انفجارها الذي تمَّ من نحو عشرة آلاف مليون سنة . ومنذ ما انفجرت الذرة اخذ الكون وما زال آخذاً في الاتساع

على ان نظرية لمتر لا تبين لنا كيف تكوَّنت الارض ، وهل السيارات نشأت وقت الانفجار او تكونت بعده بطريقة اخرى

وماذا يقال في المستقبل . ان اينشتين وده سترپران انهُ قد يقع في المستقبل تقلص كوني يعيد النجوم ومادة الكون المتفرقة الى حالتها الاولى قبل الانفجار فتحشك في مدى قليل بالنسبة الى سعة الكون — اما لمتر فيرى ان هذا التقلص لا يمكن ان يقع بسبب يؤثر الاعتقاد بان الكون نشأ من ذلك الانفجار وسوف يبقى ماضياً في تمدُّده حتى تتحوَّل النجوم الى رماد !

الفكرة

لاسماعيل مظهر

«خرج الناس يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشباك»

بهذا وصف الناس طاغور . فكل يوم يخرجون منتشرين في بقاع الارض ، يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشباك . ولكن كيف يكون منقلبهم ؟ ذاك ما لم يرد طاغور ان يتكلم فيه . بل انهُ ترك جميع الناس يخرجون صبيحة كل يوم من مآويهم يجوبون ذلك البحر اللجيّ ، بحر الوجود ، بآلاف من الشباك ، يتسقط كل منهم حظه ونصيبه من الدنيا

اما انهم يعودون الى مآويهم بهذه الشباك مرة اخرى ، فذلك امر محتوم . اما الشباك فحمل على اكتافهم ، سواء اخرجت بالصيد الطيب ، ام بالرمل والحصى . فلا بد اذن للناس من شباك ولا بد لهم من نصيب تخرجه هذه الشباك . ولا بد لهم ايضاً من ان يحملوا هذه الشباك ويجوبون بها بحر الوجود . والوجود

« دنيا تعجّ بكائها فهذا يغني وذاك ينوح وذاك مستسلم للقدر »

وكان « يوحنا » من المستسلمين للاقدار . يحمل شبكته كل يوم ويخرج يجوب بحر الوجود مع الذين يجوبونهُ ، ويعود راضياً بما وقع في شبكته . يمضي الى مأواه ما كتبا ، ويلقي بصيده جانباً ، ثم يمضي يتأمل في بحر هذا الوجود . يعيش مع احدى بنات حواء ، وحولهعشرة من الاولاد . اما هو فكان قد حطم الاربعين . وأما الشبكة التي كان يخرج بها الى بحر الوجود ، فلم تكن من الشباك التي يزوّدها ذلك البحر إلا بالحاجة من زاده . ولكن القدر اخرج « يوحنا » الى الوجود سليل رجل كان بحر الوجود يزوده بالكثير من صيده ، وترك له من الدنيا نصيباً يكفيه النصب والكدح في سبيل العيش : بل كان في يسار . وبحر الوجود بعد ان زوّد التاجر بالصيد الكثير ، نمّى على الابن المفكر بصيد ولو كان قليلاً ، مما يرد السغب ويشبع بطناً شعثه الجزع

وهكذا خرج « يوحنا » الى الدنيا بمال ابيه ، ولكن برأس جديد . رأس يضن عليه بحر الوجود بخيره ، بل هو يبتلع اذا استطاع ما بين يدي صاحبه من صيد جاد به على غيره من اسلافه الاولين

وكان « يوحنا » يحمل رأس فيلسوف مستهتر ، ابيقوريّ من الطراز الاول الذي عاش قبل ان يكون ابيقور ، ذلك الطراز الذي عاش في الاسكندرية ابان ازدهارها بالعلم والفلسفة ، من طراز الفلاسفة الذين عشقوا « لايس » خليعة اثينا ، او الذين لعبت بهم « تايس » في

المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمه وزير مالية العراق سابقاً

لم يرو لنا المؤرخون العرب شيئاً عن اشتراك المنذر بن ماء السماء في الحرب الشعواء التي اثارها على الروم سنة ٥٤٠م اذ عبر الفرات قرب قرقيسيا وهبط على انطاكية وغزاها ودمّرها ونقل سكانها الى العراق الاّ ان كلاً من الطبري وابن الاثير[1] ينقل الينا خبراً نظن له علاقة بهذه الحرب وبملوك الحيرة التخمين وان احتاج الى تحجيم ونقد من وجوه عديدة واليك خلاصته : كان بين كسرى انو شروان وغطيانوس Justinian ملك الروم هدنة فوقعت فتنة بين رجل من العرب كان غطيانوس ملّكه على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة وبين رجل من لخم كان ملّكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة والطائف وسائر الحجاز يقال له للمنذر ابن النعمان. فأغار خالد على المنذر ابن النعمان فقتل من اصحابه مقتلة عظيمة وغنم اموالهم فكتب كسرى الى غطيانوس يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالد وطلب ان ينصف المنذر ويأمر خالداً ان يعيد اليه ما اخذه منهُ فلم يحفل به[2]. فغزا كسرى بلاد الروم في سبعين الفاً وكان طريقه على الجزيرة فأخذ مدينة دارا والرها وعبر الى الشام فملك منبج وحلب وانطاكية وقنسرين وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدن وسبى اهل انطاكية ونقلهم الى ارض السواد وأمر فبنيت لهم مدينة الى جانب مدينة طيسفون واقتدى غطيانوس المدن الرومية من كسرى . ويقول الطبري ان رومية المدائن كانت تشبه كل الشبه انطاكية حتى ان الاسرى الانطاكيين دخلوا روميه المدائن ووجد كل واحد بيته بدون صعوبة كأنهم في انطاكية ولم يخرجوا منها

ان هذه الرواية توافق الاحوال التاريخية كلها الاّ ان امراً واحداً يتطلب الحل . لا غرابة في امر تولية المناذرة الحكم في عمان والبحرين واليمامة والطائف بعد زوال ملك كندة من آل آكل المرار. قال المستشرق السر تشارلس ليل[3] : ولما انقضى امر كندة وسع ملوك الحيرة نطاق مملكتهم فشملت النصف الشمالي من جزيرة العرب والجانب الشرقي منها مما يلي خليج

(١) الطبري ٢ : ١٢١ والكامل ٢ : ١٢١ (٢) وبياء ذكر هذه الوقعة في الشاهنامه للفردوسي في الترجمة العربية ٢ : ١٢٦ — ١٢٩ (٣) في خطبة القاها في مؤتمر الدروس التاريخية بعنوان تاريخ العرب من تدمرهم القديم ونشرها المقتطف في عدد فبراير ١٩١٤ ص ١٦٣ — ١٦٩

وتخبط في ذلك الليل البهيم من الجهل والحمق والتقيد بأغلال التقاليد والاساطير «ويوحنا» ينبض له عرق ، او يدق له قلب ؟ يا للكارثة . ويا الشقاء

أتصل الانسانية ويخرج اهلها كل يوم يجوبون بحر الوجود بشباك لا تخرج الا بالمادة مما يشبع البطون والشهوات ، دون ان يكون فيها شيء مما يشبع العقول والقلوب؟ ايترك «يوحنا» الناس فريسة للهاويس من زعماء الانسانية في غرارتها الاولى ، يمنونهم ويرهبونهم بالاوهام ويملؤون قلوبهم بالمخاوف والآلام ، ويخدعونهم بالاساطير والاكاذيب ، والناس مسوقون كانهم انعام سائمة ، لا يهمها الا الشباك وما في بحر الوجود من صيد حلال او حرام؟ اذن يا للهول

اتترك الانسانية لارسطو وأفلاطون في وحدتهما الالهية ، وتكفف على سفاسف الحياة ، على حقارتها ، وتمضي راضية بان تلغي العقل ، وتهوي مع التسليم والايمان الاعمى الى احط دركات العبودية ، ويوحنا ينظر الى هذا ولا ينقذ ذلك المعبود العظيم ، من تلك الهوة السحيقة ؟

اذن فليعاهد شيطان فوست . ويمضي يجمع الكتب ويملأ جوانب البيت بها ويكب على الدرس وعلى البحث وعلى الكتابة والنشر ، ويستمسك وينقب عن نفائس الفكر الذي خلفته القرون الاولى ، ثم يرمي بشبكته في بحر الوجود فلا تخرج الا اصدافاً لها بريق خداع ، ولكن بلا قيمة في الحياة . فانها لا تشبع بطناً مجوع ولا تكسو جسداً لفحته الاعاصير

ويطمو بحر الحياة على يوحنا فيسلبه في ساعة واحدة ما أخرجت شباك آبائه طوال السنين . ويلقي يوحنا بشبكته فلا تخرج الا عواطف وافكاراً ، والا حقائق ونظريات . يا للهول

ويأخذه اليأس ليعاوده الامل . ويرى المرأة فتبعث بحرارة الحياة في روحه وقلبه . ويرى الانسانية تحمل الشباك ، فلا يشك في استعدادها للارتقاء ، وحاجتها إلى المصلحين وإلى التربية والى حرية الفكر قبل كل شيء . ولكن المر يوحنا ان افراد هذه « الانسانية » ينفضون شباكهم كل يوم ، ليلقوا بما اخرجت الشباك من عواطف وأفكار على الشاطىء المهجور ، ليعودوا بما فيها من حطام وزاد خسب ؟ ولكنه طمع في ان يرى الانسانية تلتقط يوماً مع الزاد والحطام أفكاراً وعواطف ، وان تزود العقل بقليل مما يلقى على الشاطىء المهجور ، وان تلتهم النفوس قليلا من ثمار العقول الكبيرة التي تركت تثن في وحدتها الالهية

وتدور الايام بيوحنا دورتها ، فيصحو ليجد أنه فقد الشبكة التي يجوب بها بحر الوجود مع غيره من الناس ، وفقد المأوى الذي يرجع اليه بذلك الصيد المرير — العواطف والافكار —

ثم تدور العجلة دورة أخرى ، فيجد نفسه في عالم جديد . عالم النزاع على الحطام الذي ما فكر فيه يوحنا .. عالم الدفاع عن النفس والولد . في عالم يرغمه ارغاماً على ان يزود أولاده بشباك تخرج حطاماً لا افكاراً ولا عواطف . وتتركه العفوة في مكتب محام يهزأ بفلسفته التي افقدته شبكته التي يجوب بها بحر الوجود

— ولكنك امضيت العقد بحضرة الفيلسوف

— نعم أمضيته بيدي هذه . ولكن من غير ان اعرف نتائجه

— ان المحاكم لا تفهم هذا . ان منطق المحاكم غير منطق الفلسفة

— ولكن للمحاكم قضاة ولهم عقول تدرك الفلسفة ، وتدرك ان من كان مثلي لا يحاسب على شيء الاّ اذا ادرك تماماً ما يترتب عليه من النتائج . وانا خُدعتُ

— انك أمام قضية «افلاس» . واعترفت في العقد بانك تاجر وان من حق مدينك ان يفلسك

— وماذا يهم . انا مفلس فعلاً ، فماذا يضرني ان اصبح مفلساً قانوناً

— أهذه فلسفتك ؟ ان معنى الافلاس ان تسقط عنك اكثر حقوقك السياسية وان توضع تحت المراقبة كالمفسدين وقطاع الطرق والمجرمين عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، ولا تتعامل ولا تعامل ، ويعين عليك قيّم كالمتوهين والسفهاء ، يتولى عنك بيع حطامك

— أكل هذا لاني اردت ان أحرر الانسانية من أوهامها ؟

— كلاّ . بل لانك لم تدفع ما عليك من دين

— وماذا يحل بالعالم اذا لم ادفع ؟ — لا يحل بالعالم شيء ، بل يحل بك انت

— ولكن خبرني ماذا يحل بكتبي وقواميسي . انها أدوات مهنتي ولا يصح التصرف فيها قانوناً

— قانوناً ! ان القانون لا يعترف بمهنة يقال لها الفلسفة . ولا بصناعة يقال لها التفكير

— اويعترف القانون بصناعة يقال لها الدعارة وبيع العرض تلقاء المال ، ويعترف بمهنة يقال لها الاتجار بالخمور بل يعترف بما هو احط من هذا وذاك ، ولا يعترف للمفكرين بأنهم ذوو مهنة لها قيمة ولو مثل قيمة هذه الاشياء ؟

— نعم فبيّع عيناك كتبك وقواميسك وافكارك وفلسفتك لا قيمة لها ابداً الا في نظر القانون ولا في نظر الناس . فاما ان تعرف كيف تدافع عن نفسك دفاعاً يقبله القانون ، واما ان تحل بك كل هذه الكوارث

— وتباع كتب ارسطو ، ومؤلفات انا تول فرانس ، والانسكلوبيديا ، ومؤلفات داروين ، وشارلس دكنز ، وهوميروس ودانتي . . . وتعليقاتي وشروحي وافكاري وانتقاداتي ونظرياتي . . .

— وبالمزاد العلني افهم ما اقول !

— فهمت يا سيدي الاستاذ المحامي . فهمت ان الحكومات تعترف بالبغاء كمهنة ، ولكنها لا تعترف بأن للمفكر حق الوجود والتفكير . ولا تعترف بأن رأسه في الكتاب ، وان قلبه في القاموس . هي تحمي المومس اذا اعتدى احد الفاسقين على اجرها الدنيء ، ولكنها لا تحمي المفكر اذا سلب فكره ، وسرق نياط قلبه . لا تحمي الفيلسوف لانهُ ابله احمق . وهل احمق ممن يظن انهُ يشبع بطنهُ بالافكار ، وان يسد رمق اولاده بالفلسفة ، وان يكسو الابدان العارية بالنظريات ، او ان يزود فلذات كبده بشباك يجوبون بها بحر الوجود بحيث تكون

خيوطها محركة من مبادىء في حرية الفكر او التضمير ؟ نعم فهمت ان المفلس ولو كان فيلسوفاً، سلب حقهُ السياسي في ان يشترك في ارأي مع المكارية ومسعي الاحذية والبغايا . فهمت انهُ يصبح في نظر القانون معتوهاً يحتاج الى الولاية والى من يبيع كل شيء يملكه حتى رأسه اذا فرض وكان للافكار قيمة مادية . فهمت ان الفكر لا يغني عنهُ الفكر ولا العلم ولا الفلسفة، اذا نشبت فيهِ اظفار القانون ، وتمكنت من اذلاله المطامع الدنيوية . فهمت انهُ يصبح خارجاً عن الهيأة الاجتماعية فيراقب كقطاع الطرق واللصة والسفاحين . فهمت انهُ يسلب الحرية ، لانهُ دعا الى الحرية . فهمت كل هذا . بل فهمت ان الانسانية تنبذ من يخرج على تقاليدها . هي تريد الخيال والوهم لا الفكر . تريد الاسطورة لا الحقيقة . تأخذ بيد من يمكر بها ويخدعها فتخدع عنهُ . اما الفكرة واما النظرية واما الحقيقة واما حرية الفكر ، فجزاؤها من الانسانية الحرمان . وقبلاً عُذب غاليليو وحُرق برونو وحُرم سبينوزا . اذن فحسبك اللهم على منزلة احط من الباغيات ، وأرفع قليلاً من المصوص والقتلة

وكان « يوحنا » قد اخذ يهذي بهذه الكلمات وهو خارج من مكتب محاميه، ويضرب في طرقات المدينة وقد علا ضجيجها واشتدَّ صخبها ، وحمل كل من الناس شبكته بعد ان جاب بحر الوجود طوال يومه ، وارتدَّ بغنمه . اما هو فما زال يضرب في الارض على قدميه حتى مال ميزان النهار وأكتمل اليوم ، واخذ الليل يرخي سدوله السوداء على بحر الوجود

ولكن فكرة « جديدة » ! ها قد ارتدَّ الامل الى قلب « يوحنا » القرة القاهرة !!!

— نعم كنت واقعاً تحت سلطان قوة قاهرة ! يا للفرج . يا للسعادة

وارتدَّ « يوحنا » يهرول الى مكتب المحامي . وأخذ يدق الباب دقاً عنيفاً . ولكن لم يكن هناك انسان . اذن فالى الصباح . اما في الصباح فَقَدَ « يوحنا » الذاكرة . فَقَدَ « القوة القاهرة » وعجز عن ان يتذكر شيئاً . فقد الذاكرة عشرين عاماً . فكان هذا اقصى ما تستطيع الدنيا ان تنزل بالفيلسوف ، من مراحها

واليوم نجد « يوحنا » على فراش الموت يحتضر ويهذي تأخذه السكرة بعد السكرة والخيالات تمر امامهُ متعاجلة تترى ، فيخيَّل اليهِ فيما يتخيل انهُ على باب المحامي يدق الباب دقاً عنيفاً . ثم تشع في عقله الفكرة والظرف الذي اوقعهُ تحت سلطان « القوة القاهرة » . فينادي بولده — أي الي ! اسرع يابني العزيز الى مكتب المحامي . قل له ان ابي قد امضى العقد وهو واقع تحت سلطان قوة قاهرة . اسمعت — Force Majeur — قل له هذا اسرع . اسرع . « قوة قاهرة »

وعاودته السكرة، وماهي الا اغفاءة ثم ابتسامة، ثم يعاوده الهذر ويهبط، ليظل هابطاً الى الابد . نعم قوة قاهرة . ابرزته الى هذا الوجود وزودته باحلامه وآماله وأفقدته شبكته التي يجوب بها بحر الوجود وقوة قاهرة هي التي اخرجتهُ من هذه الدنيا صفر اليدين

قيثارتي

لمنى محمود طه المهندس

بَدَدْتِ يا قيثارتي أنغامي ... ونَسيتِ لحنَ صَبابتي وغرامي
مرَّتْ ليالٍ كنتِ مؤنستي بها ... وعزاءَ نفسٍ جمَّةَ الآلام
تَروينَ من طَرَبِ الصِّبا وحنينهِ ... وتُذهبينَ حواشيَ الأحلام
كالبلبلِ الشاكي رَوَيْتِ صَبابتي ... لحناً تَشي في دَمي وعظامي
أنشودةُ الوادي ولحنُ شَبابهِ ... ذابتْ على صَدْرِ الغديرِ الطامي
شاقَ الطبيعةَ من قديمِ مَلاحِبي ... أصداؤكِ الحيرى على الآكام
وشجا البحيرةَ واستخفَّ صِفاقها ... لحنٌ كفاثرِ موجِها المتوامي
يا ربَّةَ الألحانِ غنّي وابعثي ... من كلِّ ماضٍ غابرِ الأيام
خلتِ الشجونَ فلا رسيسَ صبابةٍ ... تذكيها أو لوعةَ استفرام
وجفا الذي ملأَ العوالمَ بهجةً ... وجلا الحياةَ بثغرهِ البسّام
هل من نشيدكِ ما يجدِّدُ في الصِّبا ... ويعيدُ كرَّةَ هذه الأعوام
ويصوِّرُ الاحلامَ فتنةَ شاعرٍ ... توحي الخيالَ لريشةِ الرسّام؟
وادي الهوى! ارلتْ بشاشةُ دهرهِ ... وخلتْ مغانيهِ من الآرام
طارتْ صوادحُهُ وجفَّ غديرُهُ ... وذوى بشطَّيهِ النضيرُ النامي
واعتاضَ من هَمسِ النسيمِ بعاصفٍ ... داوٍ يشقُّ جَوانبَ الإظلام
وهوى الصدى الحاكي لفائقِ صرختي ... وصَداكِ بين الخُورِ والآجام
قد كنتِ الأفي ونزهةَ خاطري ... وسماءَ وحيِ الشعرِ والإلهام
مالي بهنَّ سَكتْنَ عن آلامي ... أنسينَ عهدَ مودتي وذِمامي؟
يا ربَّةَ الألحانِ هلْ من رَجْعَةٍ ... لقديمِ لحنِكِ أو قديمِ هيامي
فاروي أغانيَّ الشذى واشتي ... ني النيلَ من نَشَواتِ قلبي الدامي
عَلَّ الذي غنّيتُ عرشَ جمالهِ ... وطفقتُ أرقبُ أفقهُ المتسامي
تَشجيهِ ألحاني فيسعدُني بهِ ... طيفٌ يضنُّ عليَّ بالإلمام
مالي اراكِ جمدتِ بينَ أناملي ... وعصيتِ أنّاتي ودمعي الطامي
خرساءَ لا تتلو النشيدَ ولا تعي ... سرَّ الغناءِ ولا تعيدُ كلامي
يغري الكآبةَ بي ويكسفُ خاطري ... أني أراكِ حبيسةَ الأنغام

العلم

والحرب المقبلة

العلم لا ينظر الى الحرب ولا الى السلم . فهو يعطينا يد الاسعدة ويد اخرى المفرقعات . والمفرقعات تستعمل لتهدم وانقتل في الحرب ولكنها تستعمل في حفر الانفاق ونسع الحاجر وشق الترع في زمان السلم . والفولاذ لايحصر

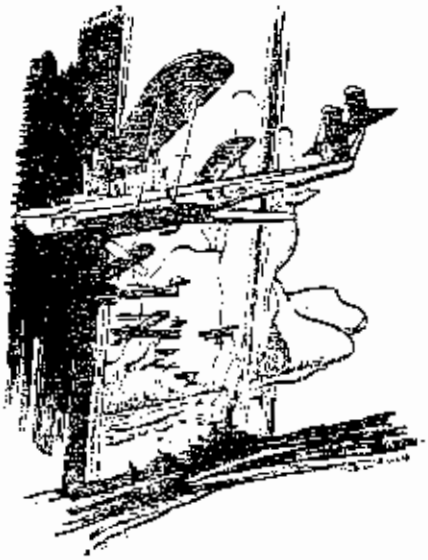

استعماله في صنع الاسلحة والرماح بل هو يستعمل في صنع المحاريث والسكك الحديدية والسيارات والجسادات . فالعلم بحد نفسه لايخدم الله الحرب دون الله السلم ، وانما يعود الفرق الى نفوسنا وشهواتها وتثقيفها ومثلها الادبية

لذلك عنينا في هذا الجزء من المقتطف — على ذكر مؤتمر نزع السلاح او نقضه — ببيان ناحية من العلة بين العلم وأدوات الحرب في ثلاث مقالات نفيسة ثالثتها تبين مبلغ أثر الطيارات في الحرب وهي مبنية على خيال تؤيده الحقائق

اثر الآلات في الحضارة

آراء الكاتب الاميركي ستيوارت تشايس

كان موضوع الآلات وتأثيرها في الافراد والمجتمع، في بضع السنوات الاخيرة، موضوعاً شائقاً يتخذ البعض منهُ مادة للمناقشة والجدل ؛ فأصبح الآن بعد الازمة العالمية الجائحة، موضوعاً حيوياً

ولقد وضع الاقتصادي الاميركي ستيوارت تشايس كتاباً في هذا الموضوع سماه «الانسان والآلات» قرر فيهِ ان الآلات قد اصبحت لا تنشر السعادة على الجنس البشري بل ان الناس — وبوجه خاص العمال المشتغلين والعاطلين — هم الذين يضحى بهم في سبيلها . ومن الواضح ان الكاتب الاميركي ليس يقصد مجرد تقرير حالة واقعة بل هو يرمي الى تنبيهِ العالم ليعمل على اجتناب كارثة اقتصادية في المستقبل . وهو اذا كان ينقد ما انحدرت اليهِ الحضارة في بلاده بفضل الآلات فعلينا ان لا ننسى ان اوربا صائرة غداً الى ما صارت اليهِ اميركا اليوم ، واننا سائرون في اثرها ؛ فعلينا ان نتبين الطريق الذي حتم علينا ان نسلكه وان نعرف ما فيهِ من عوج وعورة فنتجنبهما ونظل في السبيل السوي على قدر الطاقة

ولقد وجدت ان مجرد تلخيص فكرة المؤلف لا تغني عن قراءة الكتاب ولا تجلو للقارىء مقدار ما فيهِ من عمق واستقصاء ، فعمدت الى نقل ثلاثة فصول مختلفة يتناول كل منها الموضوع من ناحية خاصة ولكنها تجتمع في الفكرة النهائية ، وهي ان (١) هنالك فوضى قد نشأت عن استعمال الآلات (٢) ولكن الآلات لا تحمل تبعة ذلك بل انها مفيدة بطبيعتها (٣) فينبغي ان نغير طريقة استغلالنا لهذه الآلات واسلوبنا في توزيع منتجاتها

هل نحن عبيد الآلات

ان اول ما يطن صوته في اذني في كل صباح هو (آلة) المنبه ، فهو ينادي فألبي النداء خاضعاً مطيعاً ، ثم اقضي كل ما احتاج اليهِ فاذا الآلات دائماً في طريقي ، واخرج الى الطريق فلا يفارقني ضجيجها . نعم ، ان الكثرة الساحقة من ابناء هذا الشعب لا يتصلون بالآلات مثل هذا الاتصال الوثيق ، ولكن هنالك قلة تتصل بها اتصالاً يفوق اتصالي بها

ولقد ازدادت قرانا بعض الآلات الى حد عجيب ، ولو اننا اخذنا صبياً ريفياً من

ابناء البراري الروسية الذين لم تقع اعينهم على سيارة بعد ، وارسلناه الى نيويورك ، فقد يصبح عالماً في العلوم الطبيعية ، ويستطيع بالميكروفون ، اذا شاء ، ان يسمع صوته لنصف الكرة الارضية ويستطيع بالآلة التي اخترعها اساتذة معهد ماساتشوستس ان يحمل اية معادلة جبرية في لحظات قليلة ، ويستطيع بالـ « ونش » ان ينقل مئات الاطنان من موضع الى آخر

ولقد وضع صموئيل بطلر في عام ١٨٦٢ كتاباً يتخيَّل فيه ان اهل مكان ما ، كانوا منعزلين عن باقي العالم وانهم ساروا في اختراع الآلات وصنعها شوطاً كبيراً حتى اصبحت الآلات هي السيدة الناهية واصبحت لا تقتصر على انتاج الآلات بل تنتج العائلات وتطعمها ، فتخوَّف القوم وقامت بينهم منازعات حزبية انتهت بانتصار الحزب المعادي للآلات ثم تحطيم جميع الآلات ما عدا الآلات اليدوية اللازمة للزراعة

وليس يهمنا باقي القصة ، ولكن دعنا نفترض كما افترض ا. م. فوستر في كتابه « الآلة تقف » ان حزب انصار الآلات هو الذي انتصر . وتصور انك في غرفة سداسية الاركان كخلية النحل الملآنة بالازرار تضغط على زر الحمام فتنشق الارض عن حوض من المرمر ، او تضغط على زر المطالعة فاذا بمنضدة رُصَّت عليها الكتب الخ ، ولكن وقتاً يجيء بعد ازمان فتأخذ فيه هذه الآلات في التدهور ثم العطل ، فتنقطع الحياة من اجسام اولئك الناس . ولكن هذا التنبأ مبالغ فيه ، فيحسن ان نلجأ الى عالم من علماء الاجتماع مثل اوستين فريمان الذي يقول في كتابه « الاضمحلال الاجتماعي واعادة اصلاحه » ان الناس قبل اختراع الآلات الميكانيكية كانوا يشبعون حاجتهم المتزايدة الى الملبس والمأكل والاثاث وغيرها فلما اتى جيمس وط بالآلات ، اخذت هذه الآلات في النمو وفق قوانين خاصة بها وأخذت في الانتاج الزائد عن حاجة الناس فقلبت قانون العرض والطلب ، وبعد ان كان الناس ايام الصناعات اليدوية يعملون لامداد المستهلك باسباب الراحة اذا بهم الآن يعملون لابداع وسائل تمكنهم من بيع ما يصنعون . والمرء متى أهمل العمل (اليدوي) ، فقد ثقته بنفسه وانحط خلقه ، ولقد دمرت الآلات كثيراً من القوى الطبيعية وشوَّهت جمال الطبيعة دون ان تعنى البتة بالانسان . وازداد تجشُّم المعلومات الصناعية من دون أن يصحبه ازدياد في الفطنة والذكاء . اما في الحرب ، فالآلات وسيلة لازهاق ارواح الجماعات الكبيرة من الناس

ولقد أسهب فريمان في بيان التفصيلات الدقيقة ، ولكنه كان قليل الشأن إزاء العلامة الدكتور شبنجلر وتنبئه بتحاول وقت يعمد فيه الانسان الى « ملاشاة الآلة من ذاكرته وابعادها من أجواره ، ليخلق لنفسه عالماً آخر لا وجود فيه لهذه الصناعات الشيطانية »

وهناك طائفة لا تؤمن بالتحسن في المستقبل يعلن احد زعمائها المبرزين فيها هنري ب . فروست انهُ « في عصر الآلات هذا ، الذي نعيش فيه ، يظل شبح الوحش

الآلي بتهديد هائل — على طريق الرقي الانساني . ولقد صرنا جميعاً منسمين الى طوائف ومرتبين ومنظمين بشكل خاص ، وأضحت شخصيتنا كأناس ، تختنق وتتضاءل الى حد عظيم » .

ويهيب البروفسور صُدي محذراً « اذا كانت مثل البشر العليا لا تسرع الى ملاءمة العلم إياها نموه وازدياده ، فلست آمن على المصير » ، ويتساءل البروفسور هالدان في شيء من الحذر « فهل أطلق البشر من حجر المادة طائفة الشعوب متهيئة لاسير نحوها والقذف بها في اية لحظة الى حضيض العدم ؟ » اما الفيلسوف رسل فهو في جملته يحكم لصالح العلم ولكنه لا يثق بسدنة بنائه الآلي إذ يرى « أن أهم المقاصد التي يكونها مقاصد منحرفة » . اما فيليب جيبس فهو يطالعنا بالاختيار الصعب بين قتل جميع رجال العلم او قلب آداب الناس وطريقة تفكيرهم من اساسها .

ولو اننا بالغنا في الالتفات الى هذا النذير لكان من العبث ان نستمر في تجاربنا العلمية . على أن فورد يهيب بنا أن « افسحوا الطريق حرًّا لكل مجتهد » فالاجتهاد في العمل هو السبيل الى الحرية والمساواة أما الآلة فمسألة عرضية وليس الغرض منها الا تحرير الانسان من العمل اليدوي الخشن كي يتفرغ لتنمية قواه العقلية والروحية ؛ وعدا ذلك فان الآلة تسير بنا الى الغرض الذي اخفقنا في الوصول اليه بالخطب والدعاية ، أعني به ايجاد ولايات العالم المتحدة

ويرى بيرد المؤرخ الاميركي ان حالة العلوم الصناعية والادبية والمعمارية وغيرها ، ليست مما يسوغ لنا ان نتوقع اضمحلال الحضارة الغربية ، ثم إن المعارف الصناعية قد عمت وانتشرت بحيث لو بادت اوربا واميركا لكان لدى اليابان وحدها من الاسس العلمية ما يكفي لاعادة بناء الحركة الآلية

أما البرت بارسون سأكس فيرى انهُ «يجب أن نبحث في الآلة عن الشعر والجمال والابدية والخلود ... فمن لم يشأ أن يدرك ذلك فهو اعمى بل إنهُ ميت ، ولا يمت الى عصرنا بصلة »

ولكن هناك عدا هذين الفريقين فريقاً ثالثاً يقف موقف المتشكك المتسائل ويكتفي بالملاحظة

يقول ديوي الفيلسوف الاميركي « إن مدنيتنا لقوية الشبه بعربة فورد ... تنطلق بسرعة في كل الطرقات بلا غرض تقصده ، غير أنها مملوءة نشاطاً وحيوية » ويسأل و . ف أوجبورن هل كان البشر في العصر الجليدي الاخير اوفر سعادة لانهم كانوا اقرب الى الطبيعة ؟ هل صنع كل ما نعيش فيه يقتضي أن نكون اقل سعادة ؟ ولكن الضيق والارغام كانا يسودان ذلك العصر وكان هناك كثير مما يخافهُ الانسان . نحن نعرف ان الانسان حيوان عظيم المقدرة على ملاءمة الوسط ، فلماذا لا يستبدل المحراث اليدوي واضرابه بالمحراث الآلي وامثاله ؟

ولكل من هذه الفرق الثلاثة أنصار كثيرون . وعلينا قبل الانضمام الى احدها أن نزيد معلوماتنا عن النقط الاساسية في الموضوع

***

فما هي الآلة (الماكينة) بالتحديد وفيم تختلف عن العدة اليدوية ، وما هو القانون الذي تسير عليه ؟ وما هي انواع الآلات وما مقدار احتياجنا اليها واصطدامنا بها بشكل مباشر او غير مباشر ؟ وكيف ابتدأ عصر الآلات ؟ وما هو الانتاج بالجملة وهل هو خاضع للمراقبة أم يسير في فلكه الخاص ؟ وهل تأثيرها التدميري في حالة الحرب مخرّب الى حد فظيع ؟ وهل تجعل من العامل المستعبَد عبداً حديثاً ؟ فاذا كان الجواب بالايجاب فهل حالته شر من حالة العبيد عند اليونان ؟ وما عدد العبيد الذين تفرض عليهم السخرة في عصر الآلات

واذا كانت الآلات تزيد متوسط العمر فهل هي تفعل ذلك لترفع الفئة المشوية من العجزة ومرضى الاعصاب ؟ وهل ادت الى انحطاط القيمة الروحية لمجتمع ؟ وهل المساواة الاجتماعية أمر واقع فاذا كان الامر كذلك فهل ذلك شر من الحالة الاخرى الموجودة عند الشعوب الطبيعية وهل شر ان يكون المرء كشخصية « بابيت [1] » من ان يكون عضواً في احدى الطوائف الهندوسية ؟

ليس المشورعلى الجامعة جامعة على مثل هذه الاسئلة بالامر السهل ، فلا تزال بعض العوامل التي لها شأن في الموضوع معقدة او غامضة . وانما نستطيع توسيع دائرة معارفنا عن الآلة اذا ابتدأنا بالكلام عما تبذل من جهد وما تؤديه من عمل

الاقتصاد في العمل

عند ما بحث زومبارت (الاقتصادي الالماني) حالة الزراعة في غرب اوروبا ابان القرن الرابع عشر ، وجد المئات من جماعات اشتراكية تُحيي في السنة ١٦٠ إلى ١٨٠ عيداً تتعطل فيها الاعمال . وعند ما بحثوا حالة المدن الاميركية سنة ١٩٢٥ وجدوا شعباً من العمال تتناوب حالتهم بين العمل المضني والعطلة المهلكة . ولقد كان القرن الرابع عشر يستعمل نفس الآلات التي كان الرومان والمصريون القدماء يستعملونها . اما المدن المتوسطة الاتساع « ميدلتون » فتستعمل شتى الآلات المقتصدة للعمل ، ومع ذلك فقد انقلبت الآية فأصبحت زيادة الآلات تؤدي إلى تقليل أيام الراحة . ولنا ان نعيد السؤال الذي كان يلتيه على نفسه جون ستيوارت مبل منذ ٥٠ عاماً : « ما مقدار العمل الذي تقتصده حقاً تلك الآلات المقتصدة للعمل ؟ » أنها تسبب طرد عدد كبير من العمال ، فما هو الحد الذي يمكننا عنده ان نعتبر العطل مقياساً للرقي الاجتماعي ؟ ان الاقتصاد الحقيقي في العمل لا يصح ان يعبر عنه (أي ان تظهر آثاره) في شكل مأساة وضيق ، بل يجب ان يكون سبباً لزيادة الراحة والسلام والطمأنينة وفرصة للتنفس الحر ومنشأ لفترة راحة ابان تدوير طاحون الحياة . ولكن المدينة « ميدلتون » لا تعرف فترة للراحة بل ينشد أهلها الراحة عبثاً منذ القرن الرابع عشر

(١) بطل رواية للروائي الاميركي سنكلر لويس يمثل الاكباب على العمل لجمع المال من دون ان يقيم للمثل الروحية وزناً ما

هنالك بضعة أسباب يمكن ايرادها في الرد على ستيوارت ميل ، منها ان مطالب الاهلين قد بزّت اختراعاتهم — وذلك بغض النظر عن انفر الترف المولع بجمع منتجات العمل — ولذلك عجزت الآلات عن ان تكفيهم مؤونتهم . ولنضرب السيارة مثلاً ، فهي في حد نفسها آلة مقتصدة للعمل ، أعني إذا استعملت في ذلك الغرض ، ولكن ثلثا مستهلكي السيارات يستعملونها في أمور لم يكونوا ليعملوها لو لم تكن عندهم السيارة ، فهم يسافرون ويتنزهون ويتبادلون الزيارات ويقطنون في الجهات الخلوية . نعم ان في استعمال السيارات لهذه الاغراض راحة للمتعلمين ولكن ليس فيه اقتصاد للعمل ؛ بل ان هذا الحيوان المنزلي الجديد يحتاج من العلف (البنزين) والتخزين (في الجراج) والعناية والترميم والتصدير وغيرها ، الشيء الكثير

فقد وصل عدد المستخدمين المباشرين وغير المباشرين في صناعة السيارات وما يتبعها (بيع واصلاح وتأمين وانشاء طرقات الخ) في سنة ١٩٢٨ في الولايات المتحدة الى ٣٫٧٣٢٫٠٠٠ نفس ، ومعنى ذلك ان الشعب يشتغل في السنة مليار يوم من أيام العمل بسبب السيارات ، وفي ذلك غالباً زيادة للعمل بدلاً من الاقتصاد فيه

وما قلناه عن السيارات نقوله عن الراديو والسينما والفونوغراف وصمغ المضغ (اللبان وهو كثير الشيوع في امريكا) والمجاير وادوات التجمل ، بل اني ليخيل اليّ أحياناً اني قد استطيع ان اقول ذلك عن التليفون ايضاً

على ان الاقتصاد قد حدث بشكل محسوس فيما يتعلق بالضروريات كالمأكل والمسكن والملبس ، وذلك ما سمح لنا بالوقت اللازم لزيادة الكماليات ، أو — اذا شئت — الضروريات الجديدة . خير لنا ان نقول أننا نمتلك الآلات لأغراض جمة من ان نزعم اننا نمتلكها لمجرد الاقتصاد في العمل . ولكن ، هل هذه الاغراض تساوي ما يضحى به من أجلها ؟ الا تكون المدينة «ميدلتون» أسعد وأهنأ لو اقتصر يوم العمل على خمس ساعات وقلت في مقابل ذلك أدوات التجمل وأفلام السينما والمقاعد الوثيرة وحزانات التبريد الكهربائية ؟

***

وهناك ضربة ثانية وهي ان التخصيص في ادارة الآلات في الوقت الحاضر يقتضي تشييد أبنية ضخمة للمصانع ومكاتب لادارتها في حين أن الصناع كانوا فيما مضى يعملون في منازلهم او حقولهم ولا يحتاجون الى اكثر من سقف يظلهم . ولا يفوتنا أن التحسين المستمر في الآلات يجعل هذه الابنية قديمة فنضطر الى تجديد بنائها كل عشر سنوات مثلاً

والامر الثالث يتعلق بتنظيم المدن الكبيرة ، فان تقدم الآلات وارتقاء الطب قد جعلا تخطيط المدن الكبيرة ممكناً ولكنه من وجهة العمل الانساني عمل من اعمال الترف ويكفي لمعرفة ذلك أن نلقي نظرة على ما بباطن الارض من انابيب المياه والغاز والمجاري واسلاك التليفون

والتلغراف ، وما تقتضيه من وضع وصيانة وتقوية ، ثم اذكر ما يضيع من الجهد في هدم المباني واعادة بنائها كلما ارتفعت قيمة الارض . ثم هناك المبالغة في المضاربة بالاراضي ، وقد شاهدت ذلك على اقصاه في فلوريدا ، حيث استقدم اليها سنة ١٩٢٥ جيش من المهندسين والعمال ، أخذوا يحفرون ويشيدون ، ثم تذهب الآن الى تلك الانحاء فلا تجد الا قفراً وخراباً وترى هنالك آلة بخارية لدك الارض ، قد علاها الصدأ فظلت هناك رافعة ذراعها كأنها شاهد القبر

والمحرك الخامس هو المصنع نفسه فهناك كثير من البضائع لا ندري مقدار ما اقتصد في صنعها من العمل وقد كتب رالف بورسودي الخبير في الاقتصاد السياسي انهُ يصنع في منزله حاجيات كثيرة (كالخضارات والفواكه المحفوظة) بنفقات ضئيلة جداً! لا تتناسب (حتى بعد اضافة اجر العمل) مع الاثمان التي يشتري بها مثيلتها من الحوانيت . ويمكننا ان نلاحظ صحة ذلك فيما يختص بكثير من الاطعمة والمواد الكيميائية البسيطة كالشمع والزيوت والاصبغة والمواد الخاصة بالعناية بالجسم ، فان الآلة بتركيز منتجاتها في المصنع وما يتطلبه ذلك من نفقات البيع والارسال قد بذرت اكثر مما اقتصدت

* * *

ولنفكر بعد ذلك في الابعاد الهائلة التي تجلب منها المواد الخام والتي ترسل اليها المصنوعات التامة . فاذا افترضنا ان طائفة من شركات العالم تريد تموين البلاد من مركز معين (كالعاصمة مثلاً) مع قيام كل منها بالاعلان عن نفسها بوسائل جمة ، ومع احتفاظ كل منها بتنظيم وسائل خاصة بالبيع نجد ان ذلك كله يلتهم كل المتوفرات التي اقتصدها المصنع حتى ليصبح المصنع الصغير الذي يمون صاحبه وحده او مع جيرانه ومجاوريه ، يصبح وحدة اكثر اقتصاداً من المعمل الكبير . ومن المفهوم ان الآلة لا تحمل تبعة ذلك وانما سوء ادارتنا لها . وليس من الصعب ان نبني المصانع الاقتصادية على مقربة من منابع المواد الخام حيث نحصل على التيار الكهربائي بأبخس الاثمان ، فتمون الجهات المجاورة ببضائع لها من رخص الاثمان ما لا يستطيع الذين ينتجون لانفسهم ان يجاروه . وليس شك في ان العمل الآلي يفوق العمل اليدوي ولكن هذا التفوق لا يكون دائماً عظيماً

على اننا يجب ان « نراعي جميع الحقائق » عند النظر في الاحصائيات ؛ فقد زعم فورد ان ١٠ جرارات من سيارات الحرث قد استغرقت ١١ يوماً لحرث الف فدان في ارمينيا وهو عمل كان يقوم به ٥٠٠ رجل والف ثور في نفس المدة ، فاذا تركنا الثيران جانباً واعتبرنا ان السيارة تحتاج الى سائق واحد ، نصور البعض ان الاقتصاد يبلغ ١ : ٥٠ . ولكننا ننسى العمل اللازم لاحضار المواد الخام ، فصنع السيارات نبيعها فاصلاحها وما يتخلل ذلك من العمليات المختلفة وهي حلقات مختلفة من نفس السلسلة ينساها المتفائلون او يتغاضون عنها فيجعلون عي نتائجهم واثقة

وقد اورد جسه سبراج مثلاً بديعاً، فقد كان احد اصحاب المصانع الصغيرة ينتج مقابض الابواب من النحاس الاصفر وكان ينتج كل يوم ٢٠ مقبضاً بنفقة ريال للمقبض الواحد ويبيعها بريالين فاشترت احدى شركات المضاربة المصنع وجعلت المقابض من الصلب فتقلصت نفقات انتاجها الى نصف ريال ، وغت الادارة ومحال البيع وغير ذلك مما ادى الى ارتفاع ثمن المقبض الى ٤ ريالات فاعرض الجمهور عنها وساء مصيرها ، واذن فقد كان الانتاج الآليُّ هنا « اذا راعينا جميع الحقائق » مضاعفاً للثمن

***

وقد كتب احد اصحاب المصانع في مجلة « اتلانتيك الشهرية » انهُ وجد انهُ كان في سنة ١٩٢٦ ينتج وحدة بضائعه (وقد حاضر ان يقول لنا ما هي) في ٤٠ دقيقة ، فأصبح بعد تحسين العمل في سنة ١٩٢٨ ينتجها في ٢٠ دقيقة فقط ولكن التحسين الذي اجراه منافسوه في بضائعهم اضطره الى الاسراف في نفقات البيع والاعلان حتى تضاعف الثمن . وقد علق الرجل على ذلك بقوله إن الوقت أزف ليعمل المرء في منزله معظم ما يحتاج اليه . ولست أوافقه على ذلك بالطبع ، ولكني أذرف دمعة على كل رجل من رجال الاعمال ترهقه نفقات الادارة التي تقتضيها المنافسة ، فتقضي عليه

فالسيارة التي تباع بـ ٥٠٠ جنيه لا تكلف من النفقات المباشرة سوى ٥٠ جنيهاً بينما ينفق على الشئون الخاصة ببيعها ٢٠٠ جنيه ؛ وهنالك جزء معين من اجزاء السيارات يحوي من العمل المباشر ما قيمته ٧½ قروش يشتريها صاحب الحانوت بجنيه واحد ويدفع فيه المستهلك خمسة جنيهات ، وهكذا يطرد ازدياد اتقان الآلات كلما تحركت في سبيل البيع كما يطرد ازدياد سرعتها بجهد بسيط اثناء العمل

ومجمل القول ان الصناعة الحديثة لا تقتصد في العمل الاّ من ناحية واحدة ، وهي اقل النواحي شأناً ، ثم تأخذ ما تقتصد في هذا القسم من اقسامها لتلقيه من النافذة

حرب الساعتين القادمة

عاجم « جيش الشمال » لندن في ١٣ اغسطس ١٩٢٨ ، فانقضّت ٧٥ طائرة على المدينة ، تحمل كل منها ٥٠٠ رطل من القنابل . وقد تصدت لها طائرات الدفاع ، وهب عدد عديد من المناطيد تكوّن منطقة حماية حول المدينة ، وأصلت بطيارات مدافع الطيران ؛ طائرات العدو نارا حامية ، وذبت القوات المختلفة عن المدينة بكل الطرق الممكنة ؛ فلم يغن كل ذلك عنها شيئاً وأصابت القنابل أهدافها من المباني الحربية والمصانع المهمة التي تزوّد المدينة بالماء والنور وغيرها ؛ ثم عادت الطائرات المهاجمة إلى أوكارها في الشمال بدون خسائر

القيت هذه القنابل من ارتفاع ٥٠٠٠ متر ، فأصابت الاهداف المقصودة ، بكل إحكام. فلو انها كانت محشوة بثاني فينيل كلور الزرنيخ لأبادت نصف سكان المدينة ولو ضوعف عدد الطائرات لتضاعف الأثر . نعم ، ان الامر كله لم يكن الاَّ مناورة ، ولكنها اقنعت الخبراء الحربيين ان وسائل الدفاع كلها عديمة الجدوى في مثل هذه الحالة ، فما بالك لو بلغ عدد الطائرات المهاجمة ٥٠٠ وكان قائدوها طيارين حربيين محنكين

***

ان فرنسا تستطيع الآن بأمر تذيعه بالراديو ، ان تحرك للقتال ٤٠٠٠ طائرة ، وفي استطاعة سرب واحد منها ان يلقي على أهداف العدو ١٢٠ طنًّا من القنابل في هجمة واحدة ، بينما كان الحد الاقصى لالقاء القنابل إبان الحرب العظمى لا يزيد عن ١٢ طنًّا في الشهر . مع العلم ان خمساً من طائرات ما قبل الحرب كانت كافية لبعثرة الجيش التركي الزاحف على فلسطين . وقد أجرت المانيا تجاربها بطائرات لا تسمعها اذن ولا تراها عين . وتستطيع طائرات ريبون البريطانية ان تزيد سرعتها الى ٢٥٠ كيلومتراً في الساعة ، وان ترتفع عموديًّا . وان قذيفة واحدة مما تلقيه الطائرات لتذهب بأكبر المراكب الحربية إلى قاع البحار . وقد تحدث المستر كنورثي عضو مجلس العموم الانجليزي عن قنبلة وزنها ٤٣٠٠ رطل ، تذرو عند التائها على الارض ١٠٠٠ متر مكعب من الرمال ، فلو القيت على بيكاديللي بلندن لنسفت الشارع بأكمله ، وقد تنبأ النائب المذكور باختراع طائرات تطير بسرعة ٥٠٠ كيلومتر في الساعة ، وأخرى تطير وحدها بأوامر تتلقاها بالراديو من الارض وتلقي قنابلها حين تسلط عليها اشارة لاسلكية خاصة

وهنالك على الاقل نوعان من الغازات السامة لا يفيد أي نوع من الكمامات في الوقاية منهما ، وهناك غاز مهيج يرغم جنود العدو على القاء أقنعتهم فتمتلىء خياشيمهم بالغازات السامة التي تطلق عليهم في نفس الوقت . ومن السهل لعبثة قذائف المدافع بجراثيم الأمراض وارسالها على بلاد العدو تحصد اهلها حصداً

ولئن قامت الحرب فالكلمة الاخيرة لمن يتكلم اولاً . ففي مكنته ان يرسل الف طائرة على ٣٠٠ كيلومتر مربع فتشعلها سعيراً في ساعة واحدة أو اثنتين ، تمحو انها مدناً شتى من خريطة البلاد المعمورة . وليس هناك من العادات المرعية أو الضمانات واشباهها ما يمنع شعباً قويًّا من استخدام أمضى سلاح معروض عليه للتغلب في الكفاح . على ان أمضى الاسلحة التي تمتلك الدول العظمى منها مقادير كبيرة ، هي آلة تسير بسرعتها الثلاثة خليطاً من الازوت والاوكسجين فتعصف بما أمامها من السفن الحربية والحصون والمدافع والدبابات وغيرها ، الاَّ الغواصات اذا غاصت إلى اكثر من ٣٠ متراً تحت سطح الماء . ولكن الغواصات وسيلة كثيرة النفقات

فالغواصة الصالحة للاستعمال تُعدّ بعشرات الالوف من الجنيهات ، وتحتاج في ادارتها الى ٣٠ رجلاً ولا تزيد سرعتها تحت سطح الماء عن ٢٠ ميلاً بحريًّا في الساعة . أما الطائرة الجيدة فثمنها ألف جنيه وقد استطاعة رجل واحد ان يديرها وان يقطع بها ٣٠٠ كيلومتر في الساعة وان يصيب الهدف بقنابله تماماً . ولو انني وزير حربية وليس عندي أسهم من شركات صناعة الفولاذ لوفرت على شعبي الضرائب الكثيرة وعمدت إلى تدمير سفن العدو الحربية من الجو بدلاً من تدميرها من اعماق المياه . ومع ذلك فإني استطاعة الغواصات ان تحرّم على سفن العدو مبارحة الساحل ؛ وفي استطاعة الغواصات الكبيرة الحجم ان تطلق على المدن الساحلية انواعاً مختارة من قنابل الغازات السامة ، على الاقل لمدة بضع دقائق حتى تشرع طائرات العدو في مهاجمتها ومجمل القول ان السلاح الاساسي في الحرب القادمة هي الطائرات ، وانما يرجع تفوقها الى انها ذات ثلاثة ابعاد في حين ان وسائل الحرب الاخرى ليس لها الاّ بعدان . ولما كان الهجوم على سطح الارض يحصل في مكان محدود فمن الممكن ايجاد الوسائل لدرئه ؛ وكلما كبرت قذائف المدافع تمكنت الاوراح المدرعة (للحصون أو السفن) . أما السلاح ذو الابعاد الثلاثة فهو الذي لا عاصم منه (وقد اقترح أحد العباقرة ان تشدّ حول المدن اوتاراً تشبه اوتار البيانو تتدلى من المناطيد فتقع فيها طائرات العدو . وهي فكرة يستحق قائلها جائزة في مسابقات النكات) ومن الممكن من الناحية النظرية ان تحمي المدن بملء مساحات هائلة محيطة بها ، بعدد خيالي من المدافع المقاومة للطائرات ، تطلق قذائفها فيرتد منها على شوارع المدينة سيل من المظلات المدرعة

***

وخير وسيلة للدفاع هي الهجوم . فحينما تغادر ١٠٠٠ طائرة مدنها لمهاجمة المدن الانجليزية يجب ان تقوم من لندن ١٥٠٠ طائرة لمهاجمة مدن الدولة المعادية ؛ وبذلك تتدمر مدينتان لا مدينة واحدة

والولايات المتحدة وروسيا من اتساع مساحتهما ما يجعل القضاء عليهما لا يتم بالسرعة التي ينتهي بها القضاء على غيرهما من الدول الخضر (انجلترا وايابان بجزائرها المكتظة بالاهلين هما اصلح الاهداف للإبادة) ولكن سرباً من الطائرات يبارح تورنتو يستطيع ان يدمر بوسطون وفيلادلفيا وبلتيمور ووشنجطن وشيكاغو وغيرها ، ولا سيما نيويورك فمن السهل تحطيم جسرها ونفقها ونسف ابنيتها ذات الاوراج (ناطحات السحاب) فتنهار كأنها بيوت من ورق ولست اعرف لمسألة حلاً ، فقد أصبحت وسائل الحرب عظيمة الخطر في شكلها الحالي ، فضلاً عن تطورها في الغد

القاهرة عصام الدين حفني ناصف

الحرب الكيمياوية

لحيب اسكندر
ناظر القسم الكاوتي بجمعة القاهرة الاميركية

— ١ —

الكيمياء من اهم العلوم التي يستخدمها الانسان في حياته العملية المتعددة النواحي . فهي تؤدي خدمات حيوية للتجارة والصناعة والزراعة والطب وكافة اعمال الانسان . وفي اوقات الحرب هي السيد المتسلط على جميع وسائل الحروب من سيوف ورماح وبنادق ومدافع وبارود ومفرقعات وغازات سامة وكل ما يتبعها من ذخائر ووسائل نقل — كل هذه جميعاً كيمياوية من اول صنعها حتى وقت نفاذها . وسنجعل كلامنا في هذا المقال مقتصراً على استخدام الكيمياء في ناحية واحدة من نواحي الحرب هي الحرب الكيمياوية ويطلقون عليها خطأ اسم حرب الغازات

ان الاسم « حرب الغازات » لا يؤدي المعنى المقصود لأن معظم الغازات او ما يسمونهُ الغازات السامة التي استخدمت في الحرب العظمى ليست بغازات بل جلها سوائل واجسام صلبة في الاحوال المعتادة . فغاز الخردل الذي يسمونهُ ملك الغازات السامة سائل يغلي عند الدرجة ٢١٦°م . وحتى الغازات الصميمة التي استخدمت في الحرب لم ترسل الى ميادين القتال في حالتها الغازية بل كانت ترسل في صورة سوائل مضغوطة

والمقصود بكلمة « غاز » في الحرب الكيمياوية كل ما يرسل من المواد (الصلبة او السائلة او الغازية) الى العدو في الهواء بعد خروجه من الاسطوانات او القنابل المشتملة عليه

﴿ لمحة تاريخية ﴾ : مما لا شك فيه ان استخدام الالمان للغازات السامة لاول مرة في ابريل سنة ١٩١٥ يُعدُّ فاتحة عصر جديد في الحروب الحديثة . ويعتقد الرأي العام في العالم ان هذا العهد او النوع من الحرب من مخترعات الالمان العصرية . والحقيقة غير ذلك . لان استخدام الغازات في القتال قديم العهد . يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد . فالتاريخ يحدثنا ان الغازات الخانقة قد استخدمت في الحروب القديمة بين اهل اثينا واسبارطه . فقد كان الاسبارطيون في حصارهم بعض البلاد يحرقون عند اسوارها خشباً مشبعاً بالنفط والكبريت بغية خنق المدافعين منها وبذلك يسهل عليهم فتحها والاستيلاء عليها . كذلك استخدمت الغازات السامة في بعض الحروب في القرون الوسطى ويروى عن رجل يدعى Prester John وهو ملك اسيوي خرافي في القرن الحادي عشر انهُ صنع تماثيل مجوَّفة من النحاس وحشاها بالمفرقعات والمواد القابلة للالتهاب وأضرم فيها النيران فكانت تنبعث من افواه التماثيل وانوفها

المخرة وغازات خانقة احدثت في الاعداء رعباً وألحقت بهم ضرراً لا يستهان به

وعلى كل فإن معظم دول اوربا كانت تتوقع استعمال الغازات السامة في الحرب قبل نشوب الحرب العظمى بزمن طويل والدليل على ذلك ان مؤتمر لاهاي الذي عقد سنة ١٨٩٩ خضره مندوبون من قبل دول اوربا وآسيا قرر الامتناع عن استعمال مقذوفات الغاية منها انبعاث غازات سامة . وقد وقّعت المانيا على هذا العهد في ٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠

﴿ الحملة الغازية الاولى ﴾ واول حملة غازية في الحرب العالمية وقعت في ٢٢ ابريل سنة ١٩١٥ . قام بها الالمان ضد الحلفاء مستخدمين فيها غاز الكلور . وقد وصلت اخبار تدبير هذه الحملة الكيميائية الى الجيش الانجليزي من بعض الالمان الهاربين الذين رووا لهم أن الجيش الالماني قد دبّر خطة لتسميم العدو بسُحُب من الغاز السام وان الاسطوانات التي تحتوي على المواد السامة قد نصبت في الخنادق . ولكن الانجليز تلقوا هذا الخبر بالسخرية ولم يعيروه اهتماماً لظنهم ان هذه الفكرة صعبة التنفيذ في ميادين القتال . ثم لاعتقادهم ان الالمان كائناً ما كان بطشهم وحبهم للنصر لا ينقضون عهد لاهاي ولا يخالفون سنن الحرب الانسانية التي وقعوا عليها. ولكن خاب ظنهم فالحرب لا تعرف عهداً وانما هي خدعة . وفي عصر ٢٢ ابريل سنة ١٩١٥ فاجأ الالمان الحلفاء باول حملة غازية . اختاروا لها المنطقة الشمالية من الايبرس عند ملتقى الصفوف الانجليزية بالصفوف الفرنسية . ولا يستطيع احد من الناس ان يصور لنا ما احدثته هذه المفاجأة من الرعب والاثر . لان الرجال الذين يعلمون ذلك جيداً وفي استطاعتهم وصف الحقيقة كما حدثت قد ماتوا جميعاً

في ذلك اليوم صعدت من الارض فجأة سحب من غاز اصفر ضارب الى الخضرة سافتها الريح نحو الحلفاء . فانتشرت في طريقها متخللة كل حفرة وخندق . فلما رآها جنود الحلفاء استولى عليهم العجب ولما دنت منهم استحال العجب خوفاً . ولما عمرتهم تحوّل الخوف الماً فالقوا سلاحهم وولوا الادبار طلباً للتنفس . ولكن عبثاً حاولوا الافلات من تلك السحب التي تعقبتهم ولم يمض نصف ساعة حتى سقط ٨٠ ٪ منهم . فتقدم الالمان واحتلوا الصفوف الامامية ووجدوها ملأى بالموتى . وقد صفّت وجوههم والتوت اجسامهم وامتلأت افواههم بالدم والرغو الذين سالا من رئاتهم المتفجرة مما ينبئ بهول الميتة التي لقيها هؤلاء القوم

﴿ الشروط التي يجب توافرها في الغاز الحربي ﴾ وقد وقع اختيار الالمان على الكلور في الحملة الاولى لان فيه تتوافر جميع الشروط اللازمة للغاز الحربي السام . واهم هذه الشروط هي: —

اولاً — يجب ان يكون الغاز او المادة سامة جداً اذا وجدت في الهواء بمقادير قليلة

ثانياً — ان تكون رخيصة يمكن صنع مقادير كبيرة منها بعمليات سهلة

ثالثاً — ان تكون سهلة الانضغاط والتحوّل الى سائل واذا خفف الضغط عنها تحولت الى بخار او غاز

رابعاً — ان تكون ثابتة لا تتأثر برطوبة الهواء او بالمواد الكيميائية الاخرى حتى يصعب تغييرها وافساد فعلها

خامساً — ان تكون اثقل من الهواء حتى لا تتبدد بسهولة في طبقات الهواء العليا

ومعظم هذه الخواص يتوافر في غاز الكلور الذي وقع عليه الخيار اولاً . فهو غاز سام جداً . فاذا عرض حيوان (كلب) للهواء الذي يحتوي الفتر منهُ على ٢ر٥ ملليجرام من الكلور مات بعد ٣٠ دقيقة . ثم ان مقادير وافرة منهُ تحضَّر بعمليات سهلة وذلك بحلّ محلول ملح الطعام بالكهربائية وقد كان يباع قبل الحرب لاغراض صناعية في اسطوانات حديدية بسعر قرش واحد للرطل . ثم انهُ سهل الاسالة يكفي لاسالتهِ ضغط يساوي ١٦ر٥ جو عند الدرجة ٩٨م واذا بُرِّد اسيل بضغط اقل . واذا خفف عنهُ الضغط تبخر واستحال غازاً اكثف من الهواء مرتين ونصف مرة . ولذا في استطاعته ان يسير مسافات بعيدة قبل ان يتبدَّد بانتشاره في الجو . وقد استعمله الالمان بأن ملأوا اسطوانات بالسائل المضغوط وجعلوا بين الاسطوانة والاخرى ذراعاً ووصلوها بأنابيب مرتفعة ومتجهة نحو العدو . فلما هبت الريح فتحوها فخرج منها الغاز بشدة . ولا عيب فيه غير انهُ عنصر نشط يتحد مع كثير من المواد ويمكن اتقاء فعله بطرق اولية بسيطة كما فعل الانجليز والفرنسيون في الايام التي تلت الحملة الاولى . فهو يتفاعل مع الهيو مكوِّناً كلورور الصوديوم . وفي استطاعة الهيو تحويل مقادير كبيرة من الكلور . لذلك كان استعمالهُ ناجحاً في عمل الكمامات البسيطة الاولى وهي عبارة عن قطعة من القماش مشربة بمحلول الهيو تربط على الانف والفم

ولا يخفى ان اتجاه الغاز يتغير باتجاه الريح لذلك عدل الالمان عن استعمال الكلور الصرف وادخلوهُ في مركبات كيميائية سائلة او فعلوا ما هو اسهل من ذلك فأسالوهُ وافرغوا هذه السوائل في قنابل يطلقونها على صفوف الاعداء حيث تنفجر فتخرج منها المواد السامة غازاً او دقائق صغيرة تملأ الفضاء . وقد وُجد ان ٩٥ ٪ من الغازات التي استعملت في الحرب يدخل في صناعتها مباشرة او غير مباشرة غاز الكلور الذي استخدم صرفاً في الحملة الاولى

﴿ غاز الفوسجين ﴾ الغاز الثاني الجديد استعمل في ديسمبر ١٩١٥ ويسمى الفوسجين وهو مركب كيميائي كان معروفاً قبل الحرب لانهُ كان يستخدم في الصناعة لتحضير بعض الاصباغ . والفوسجين سائل يغلي عند الدرجة ٨م . وهو اشد منهُ من الكلور . فبينما يموت الكلب في الهواء الذي يحتوي الفتر منهُ على ٢ر٥ ملليجرام من الكلور بعد تعرضه له ٣٠ دقيقة اذا به يموت في الهواء الذي يحتوي الفتر منهُ على ٥ر٠ ملليجرام بعد تعرضه له نفس الزمن اي انهُ اثقل من الكلور ٥ مرات في مرات

ويجهز الفوسجين من غازين سامّين يعرفهما الطلبة جيداً وهما الكلور واول اكسيد الكربون اذا عرض مخلوطهما لضوء الشمس . وكلمة فوسجين مركبة من كلمتين معناها ناتج عن الضوء .

وفي الصناعة لا يستخدمون الضوء في تركيب هذا الغاز بل يُمرّون مخلوط الغازين في صناديق مشحونة بالفحم البندي الذي يساعد على اتحادهما . وليس للفوسجين رائحة كريهة بل تشبه رائحته رائحة الحنطة الخضراء . ولا يشعر الانسان به حتى يستنشق منهُ قدراً عميقاً . واستنشاق القليل منهُ يضعف القلب ويؤثر فيهِ تأثيراً يدوم اياماً طويلة واذا اجهد المرء نفسه عقب ذلك فانهُ يموت

والفوسجين قليل النشاط الكيمياوي . لذلك تصعب الوقاية منهُ . غير انهُ يتحلل بمادة تدعى Urotrodine كانت تستخدم في عمل الكمامات الاولى التي تتركب من قطعة من القماش مشربة بمخلوط منهُ ومن الهيبو وكربونات الصوديوم والجلسرين

﴿ الكلوروبكرين ﴾ في ربيع سنة ١٩١٧ استعمل الالمان غازاً جديداً غير سام كثيراً لكنهُ يسبب دواراً وقيئاً ويثير في العيون دموعاً فيضطر الجندي الى رفع كمامة الغاز وعندئذٍ يعرض نفسه لفعل غاز آخر كالفوسجين يطلقهُ العدو في نفس الوقت . وهذا الغاز الجديد يصعب حجزه كلية بكمامات الغاز السام . واسمهُ كلوروبكرين Chloropicrin وهو مركب كان معروفاً قبل الحرب مثل الكلور والفوسجين واول من حضّرهُ كيمياوي انجليزي يدعى Stenhouse سنة ١٨٤٨ من تفاعل الحامض البكريك ومسحوق ازالة الالوان

ويحضر الكلوروبكرين في الصناعة بامرار البخار في مخلوط من الحامض البكريك ومسحوق ازالة الالوان فيتكوّن الكلوروبكرين ويخرج مع البخار . وهو سائل عديم اللون كالزيت لا يذوب في الماء . يغلي عند الدرجة ١١٢°م . وهو مركب ثابت لا يتحلل بالماء أو الحوامض أو القلويات المخففة . ومن حسن الحظ قد وجد ان الفحم المستعمل في كمامات الغاز السام يمتص هذا الغاز

والعين حساسة جداً تدرك وجود هذا الغاز في الهواء بسرعة فائقة مهما كان مقداره قليلاً . فالهواء الذي يحتوي على ٥ر٢ جزء من الغاز في كل مليون جزء من الهواء يجعل العين تغمض مضطرة بعد ١٨ ثانية والذي يحتوي على ٢٠ جزءاً من المليون يجعلها تغمض بعد ٤ ثوان فقط

﴿ غاز الخردل ﴾ نتنتقل الآن إلى سيّد الغازات السامة وهو مادة جديدة لها اسماء كثيرة . يسميها الانجليز غاز الخردل أو الغاز المحرق لشدة تأثيره في الجلد . ويسميها الفرنسيون الايبريت لانها استعملت أولاً في منطقة الايبر . ويسميها الالمان الصليب الاصفر لانهم كانوا يفرغونها في قنابل عليها علامة الصليب الاصفر تمييزاً لها عن القنابل الاخرى ويسميها الكيميائيون dichlorethyl sulphide اكتشف هذا المركب كيمياوي انجليزي سنة ١٨٦٠ . ثم كيمياوي المانى يدعى فكتور ماير سنة ١٨٨٦ ولكنه وجد ان دراسته لا تخلو من خطر فاهمله ومن ذلك الوقت اهمل هذا المركب في قواميس الكيمياء وظل في زوايا الاهمال حتى استخدمه الالمان في الحرب العظمى . وفي يوليه سنة ١٩١٧ اطلقوه على الانجليز فعثث بهم فتكاً ذريعاً . ومن ثمّ جعل الالمان يعتمدون عليه في الحرب وحذا الحلفاء حذوهم ويقال

انه في هجمة واحدة دامت عشرة ايام اطلق الالمان مليون قنبلة تحتوي على ٢٥٠٠ طن من هذه المادة

وغاز الخردل ليس بغاز ثم انهُ لا يصنع من الخردل بل هو مركب كيمياوي يحضر من الكحول والكلور والكبريت. وهو سائل يغلي عند الدرجة ٢١٦° م ويتبخر ببطء ويبقى في الخنادق ويختفي في التراب والملابس ايامًا طويلة . وكمامات الغاز الخانق لا تقي المرء منهُ وقاية كافية. لأن الجندي لا بد لهُ ان يخلع الكمامة وقتًا من الاوقات فيهاجمه الغاز الذي لا يزال منتظرًا . وفي بعض الحالات تضطر الجنود الى لبس الكمامات ١٢ يومًا متتالية ليل نهار . وقد يظهر المكان خاليًا من هذا الغاز ولكن عند ما تطلع الشمس وتسخن الارض يتبخر منها هذا السائل ويعلق بملابس الجنود وكماماتهم . وهو سام جدًّا كغيره من الغازات السابقة . ويمتاز عنها بأنهُ يسمّ الجلد كالبخار . ويحرق الجسم من الداخل والخارج فيحدث حروقًا مؤلمة اذا اهملت تحولت الى جروح خبيثة تسمم الجسم وتحدث الوفاة فضلاً عن انهُ يؤثر في الاجزاء الطرية كالعين والانف والحنجرة والرئتين

وأهم مميزاته انهُ يبقى طويلاً وانهُ لا يحدث ضررًا في الحال بل يحدث ضرره فيما بعد . فقد يتأخر فعله يومان او ثلاثة ايام في الطقس الدافيء. وفي الطقس البارد لا يبدو خطرهُ الاَّ بعد مرور اسبوع او عشرة ايام وقد يتأخر شهرًا او اكثر حتى يدفأ الجوّ ويتبخر السائل . ويصعب جدًّا ازالته من الارض والامكنة التي يسقط فيها . فيبقى خطره مدة اسابيع او اشهر وفي بعض الحالات سنة او اكثر

وقد استعمل الالمان مقادير هائلة منهُ كما اسلفنا لايقاع الرعب في نفوس الحلفاء واضعاف الروح المعنوية . ثم لاخلاء المواقع الحربية وتأجيل الهجوم . ويقال ان الالمان في ابريل سنة ١٩٠٨ قذفوا بهذا الغاز بلدة فرنسية تدعى Armentieres حتى سال السائل في الشوارع ولم يرضِ الالمانيين على اخلاء المدينة والهروب فحسب ، بل ان الالمان انفسهم لم يستطيعوا دخول هذه المدينة والاستيلاء عليها قبل اسبوعين من اخلائها

ولما كان هذا الغاز يلبث مدة طويلة في الارض يعدونهُ غاز دفاع . فاذا استعملت منهُ مقادير كافية في منطقة من المناطق عجز العدو عن احتلالها او عبورها . ثم انهُ يرغم العدو على اخلاء المواقع الحصينة التي لا يمكن اخذها بالمدافع والقنابل المتفجرة وكذلك يبطل عمل المدفعية القوية التي تمطر العدو بشدة وابلاً من الرصاص والقنابل

﴿ غازات اخرى ﴾ علاوة على الغازات الاربعة السابقة اي الكلور والكلوروبكرين والفوسجين وغاز الخردل . استعملت مواد اخرى كثيرة في الحرب يبلغ عددها ثلاثين غازاً مختلفاً . منها مركبات البروم والزرنيخ والسيانوجين وفيها ما هو اشد فتكًا من الغازات التي وصفناها . منها ميلات الصوص ومهيجات العطاس فهنالك غاز تسمى Phenylcarbylamin Chlorid

يجعل اشجع شجاع في ميدان القتال يبكي ويذرف الدموع مدراراً . وغاز آخر يسمى diphenylchloroarsine يجعله يعطس عطساً مستمراً . فالغرض من قذف هذه الغازات حمل الجنود على رفع الكمامات وعندئذ تقع فريسة الغازات السامة الاخرى التي تقذف معها

﴿ تقسيم الغازات الحربية ﴾ لقد قسم الالمان جميع الغازات السامة التي استعملت في القتال الى ثلاثة اقسام صنوها

(١) الصليب الاخضر : — ويشتمل على اشد الغازات سمّاً واقلها بقاء في الجو او في الارض مثل الكلور والفوسجين

(٢) الصليب الاصفر : — الغازات التي تثبت طويلاً في الامكنة او الاشياء التي تسقط عليها مثل الكلوروبكرين

(٣) الصليب الازرق : — ويشتمل على غازات الدموع والعطاس مثل diphenylchloroarsine ولكل منها غاية حربية قد شرحناها عند الكلام على هذه الغازات . والاخير يرسل عادة مع الاثنين الاولين لحمل الجنود على رفع كمامات الغاز السام حتى تقع فريسة لها

﴿ كمامات الغاز السام ﴾ نجد في تاريخ الحروب ان آلات الدفاع تسير جنباً لجنب مع آلات الهجوم فكلما جدّت آلة للهلاك ظهرت آلة للوقاية . ولم يجبن الانسان يوماً امام خطر جديد يهدده . فلما بدأت حرب الغازات استعمل للوقاية منها كمامات اولية عبارة عن قطع من القماش مبللة بمحلولات بعض المواد الكيميائية مثل الهيبو وكربونات الصوديوم والبيورين والجلسرين وكانت تربط هذه القطع على الفم والانف . ثم اخذت هذه الكمامات تتطور وتتحسن . واصبح لكل امة نوع خاص من الكمامات فللالمان كمامات خاصة وللفرنسيين كمامات خاصة وللانجليز والامريكان كذلك وجميعها لا تختلف في الجوهر كثيراً وان اختلفت في الشكل . وكمامة الغاز اجمالاً تتركب من قطعة تربط على الوجه وتتصل بانبوبة في صندوق صغير مملوء بمعجم الخشب المصنوع من جوز الهند مختلطاً بمواد كيميائية كالصودا والجير وبرمنجنات البوتاسيوم واملاح النيكل لامتصاص الغاز السام وافساد فعله . وعند استعمالها تربط هذه الكمامة على الوجه ربطاً جيداً بالصمغ المارن ثم يعقل الانف بمشبك ويؤخذ التنفس من الفم فيمرّ الهواء أولاً في الصندوق حيث يفقد مابه من الغاز السام ثم يمر الى الفم . وعلى بعد خمسة امتار من ميادين القتال يعلق الجنود الكمامات على صدورهم ليكونوا على استعداد تام لاستعمالها عند سماع ناقوس الغاز السام المؤذن بالخطر

وتستعمل الكمامات لوقاية العين والانف والجهاز التنفسي . اما وقاية الجلد من بعض الغازات كغاز الخردل فتستعمل لها ملابس وقفازات واحذية خاصة تصنع من بعض المشمعات ثم تعالج ببعض المواد الكيميائية وقد يوزع احياناً على الجنود بعض المراهم لدهن الجلد . هذا وهنالك كمامات وملابس خاصة لوقاية الخيل والكلاب التي تستخدم في الحرب [للبحث تتمة]

غداة الحرب القادمة

نص البرقية التي ارسلها مكاتب المقطم
من فلادلفيا في ١٣ اغسطس سنة ١٩٤٠

زهقت أمس نفوس ستة ملايين من سكان مدينة نيورك وضواحيها ، اذ اقبلت على المدينة العظيمة ستمائة طيارة من طيارات « دول الاتفاق » فألقت فوقها ستاراً كثيفاً من غازي « الديفنل كلوروارسين » و« الكاكوديل ايسوسيانيد » فقتلت كل رجل وسيدة وطفل وحيوان ونبات . ومات مليونان آخران من الناس في الضواحي البعيدة لما هبت الرياح لحملت الغازات الخانقة اليها . وفي الانباء العالمية ان ٣٦ مليوناً قتلوا في بلدان العالم المختلفة بهذه الطريقة في العشر الساعات الاخيرة

ان نيويورك ولندن وباريس وكاليه وبروكسل وبرلين وغيرها اصبحت اليوم مدناً خاوية لا اثر فيها للحياة لأن هجوم الطيارات واطلاق قنابل الغاز عليها امس اماتت كل سكانها . ذلك ان الحرب اعلنت بين «دول الاتفاق» و«دول الحلفاء» في الساعة السادسة والنصف من صباح امس بعد خمسة ايام من المفاوضة المستمرة حاولت في خلالها حكومات الدول ان تفصل في الخلاف الناشيء عن مسألة «هاربر سايج» وظلت الولايات المتحدة الاميركية محتفظة بحيادها حتى فجر الامس مع ان دول الارض كانت قد انقسمت الى فريقين فأحدهما يعرف بدول الاتفاق والآخر بدول الحلفاء . وكان مجلس التحكيم الدولي في لاهاي قد عهد اليه بالفصل في الامر فأعلنته دول الاتفاق في الساعة الرابعة من صباح الامس انها لا تسلم بحكمه ، فقرر مجلس الامة الاميركي ان يؤيد حكم المجلس الدولي فشهر الحرب على دول الاتفاق فكانت النتيجة ما رويت . وقد مات كل اولئك على اثر تنفسهم الغازات الخانقة فتمزقت رئاتهم وسقطوا في الشوارع او انكفأوا على مكاتبهم اموتاً

***

وقد صحبت الطيار كرسن في طيارته فلبس كلٌّ منا قناعاً واقياً من الغاز وحملنا من الاكسجين في زجاجات من الصلب ما يكفينا تسع ساعات وهبطنا مدينة نيوروك في الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين من هذا الصباح وجسنا خلال شوارع المدينة ومبانيها مدة سبع ساعات فلم نر اثراً للحياة فيها . ولا يزال الهواء مثقلاً بالغاز ولست نشكُّ في ان ستة الملايين من السكان الذين كانوا يعيشون ويضحكون ويعملون ويتنزهون اول امس قد اصبحوا اجساماً هامدة . والجثث على اكثرها في شارع التجارة والمال (وول ستريت) حيث تجدها اكواماً

متراكمة عند مداخل البنايات الشاهقة ولعل الجثث في مكاتب المدينة المالية وامامها في الشوارع لا تقل عن مليون ونصف مليون

والظاهر ان كل هذا وقع فجأة فلم يرد نبأ يشير الى احتمال وقوعه حتى في بورصة نيويورك المتصلة بانحاء العالم بكل وسائل المخابرات . فالجثث تسدُّ المدخل الى البورصة وهي متراكمة في باحتها الداخلية ، ولكننا ازحنا بعضها من طريقنا ومشينا فوق جثث الناس لم يعلموا ما هو واقع حتى تسرَّب الغاز الى الباحة من النوافذ والابواب. والظاهر ان احدهم جنَّ جنونهُ اذ شعر بالغاز يشدّ الخناق عليه فرفع ذراعيه مستجيراً فتحطم زجاج ساعته فاذا هي واقفة على الساعة ٢٢٥٩ ولما كان سرب الطيارات المهاجمة قد اطلق قنابله الغازية في الساعة ٢٢٥٠ فالمرجح ان كل سكان الطبقات الارضية من حي منهتن قضوا في خلال ١٢ دقيقة بعد اطلاق الغاز

ونستطيع ان نقول على وجهٍ من التدقيق ، من دون مبالغة في التقدير ، ان النظام المالي في الولايات المتحدة ، قد اصبح الآن في خبر كان . فكل عمال البورصات المختلفة والبنوك ومكاتب السماسرة من المديرين الى السعاة قد قضوا نحبهم

ان كل الزعماء بين رجال المال والاعمال قد ماتوا

اننا وجدنا جثة رئيس بورصة نيويورك ملقاة امام مكتبه وقد وضع على انفه منديلاً كأنهُ يحاول ان يمنع الغاز من التطرق الى خياشيمه ورئتيه . ومات قابضاً على المنديل في محاولته اليائسة . اما ردهة بنك «الفدرال رزرف» فخاوية كالقبور. والغرف المتسعة المفروشة بالطنافس التي كان يجلس فيها بالامس رجال يسيطرون على حركة الذهب العالمية ، مظلمة قاتمة كأنها اطلال حضارة بائدة . وامام كل مكتب رجل وقد انكفأ عليه ميتاً . وفي اقبية البنك ملايين من الريالات الذهب والورق وليس ثمة من يحرسها فقد ذهب حرّاسها في سبيل كلّ حي في نيويورك

***

اما في الحيّ الشرقي فالنار تفتهم الاخضر واليابس. ذلك انهُ لما سقط الغاز كالغمام الخانق في المصانع ومات العمال تشجرت المراجل وانابيب الغاز المضيء فسرت النار في المباني الخشبية القديمة سريانها في الهشيم فالتهمتها غير مبقية الا على الصخر المسلّع والصلب. ولا تزال اللهب الحمراء تغزو ما امامها وبين الفينة والفينة تسمع صوت انفجار جديد . ولا بدَّ من ازالة نحو اربعة ملايين جثة من الشوارع والمباني قبما تصلح نيويورك للسكن ثانية . ولولا ان النار التهمت جثث مليونين من الموتى في الحيّ الشرقي للزم نقل ستة ملايين جثة على الاقل

هذه صورة نيويورك الآن — خواء وموات !

***

اما قسم التحرير في بناية جريدة « نيويورك تيمس » فيبدو لنا مما شاهدناهُ ان رجالهُ

ظلّوا في عملهم الى النهاية . ذلك انهم عرفوا قبيل غيرهم بالهجوم فاقفلوا النوافذ ، ولكن الغاز مالبث ان تسرّب الى غرف التحرير فقضوا في كراسيهم . وقد عثرنا على رقيمتين امام احد المحررين تحتويان على الانباء الاولى عن سرب الطيارات الهاجمة وهذا نصّ اولاهما

« عبر القسم الشمالي من الاسطول الاميركي في المحيط الاتلنتيكي على بحارة ثلاث سفن من حاملات الطيارات التابعة لاسطول دول الاتفاق . وكانت طيارات الاسطول الاميركي قد شهدتها من علو ١١ الف قدم فلما اقتربت منها رأت البحارة ينزلون من السفن ولم تلبث هذه السفن ان غرقت في اليمّ . فلما سئل البحّارة في ذلك فهم ان الاوامر صدرت لهذه السفن بالاقتراب من نيويورك قدر المستطاع ثم اطلاق طياراتها المتأهبة المجهزة بقنابل الغاز الخانق

« ويعتقد ضباط البحرية الاميركية ان اغراق السفن الحاملة للطيارات غرضهُ الحيلولة دون اسرها . والسلطات الاميركية تبحث الآن عن الاسطول الذي رافق هذه السفن الى حيث وصلت

« والظاهر ان امر قائد جيوش الاتفاق صدر الى الطيارات بمهاجمة نيويورك ثم بالطيران الى القلوات الواسعة غربها حيث يحرق الطيّارون طياراتهم ويسلمون انفسهم للاسر »

اما البرقية الثانية فبلاغ رسميٌّ من قيادة الجيوش الاميركية يبين ان وزارة الحربية مستعدة لهجوم طيارات الاتفاق وان نيويورك محصنة اشدَّ التحصين ضدَّها ، وتشيد خاصة بذكر مدفع خاص لمقاومة الطيارات المهاجمة . ويؤخذ من انباء الحالة الجوية التي عثرنا عليها في مكتب هذه الجريدة ان ضباباً كثيفاً كان يغطي وجه المدينة في الساعة التي حدث فيها الهجوم وهذا الضباب حال دون فعل المدافع الخاصة التي صنعت لمقاومة الطيارات

والظاهر ان طيارات الاعداء لم تحفل بالضباب بل اعتمدت على آلاتها فلما دلّتها الآلات على انها اصبحت فوق نيويورك رمت قنابلها ومضت في سبيلها

***

ولما بدأ الهجوم تقاطر الناس الى الكنائس للضراعة فوجدنا نحو الف وخمسمائة من الامهات في كنيسة ترنتي و٣٠٠٠ في كاتدرائية القديس پاتريك و١٠٠٠ في كنيس عمانوئيل و٨٠٠ في كنيسة وڤرسيد . والمؤمنون الذين وجدناهم في الكنائس كانوا من سلالات وشعوب مختلفة ومعظمهم كان راكعاً يصلي . ودخلنا مستشفى القديس لوقا فوجدنا الجرّاح ميتاً امام مائدة العمليات والممرض عليها ميتاً بفعل الغاز الخانق وكان لا يزال تحت فعل المخدّر — الايثر — وفي جناح آخر من المستشفى عثرنا على احد « الثرجية » يظنّ انه مريض وطبيباً جالساً وامامهُ كتاب يقرأ فيه فعملاً في الادوية التي يستعملها في الاشتغال بعيد الوضع

وانتقلنا الى جامعة كولومبيا فرأينا رئيسها ملقى صريعاً عند مدخل دار الكتب فيها حيث مكتبه . والظاهر انهُ أحسّ بجماهير الطلاب خارجة من مباني الجامعة فخرج ليرى سبب ذلك .

الفكرة

لاسماعيل مظهر

«خرج الناس يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشباك»

بهذا وصف الناس طاغور . فكل يوم يخرجون منتشرين في فجاج الارض ، يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشباك . ولكن كيف يكون منقلبهم ؟ ذلك ما لم يرد طاغور ان يتكلم فيه . بل انهُ ترك جميع الناس يخرجون صبيحة كل يوم من مآويهم يجوبون ذلك البحر اللجيّ ، بحر الوجود ، بآلاف من الشباك ، يتساقط كل منهم حظه ونصيبه من الدنيا

اما انهم يعودون الى مآويهم بهذه الشباك مرة اخرى ، فذلك امر محتوم . اما الشباك فحمل على اكتافهم ، سواء اخرجت بالصيد الطيب ، ام بالرمل والحصى . فلا بد اذن للناس من شباك ولا بد لهم من نصيب تخرجه هذه الشباك . ولا بد لهم ايضاً من ان يحملوا هذه الشباك ويجوبون بها بحر الوجود . والوجود

« دنيا تعجّ بسكانها فهذا يغني وذاك ينوح وذاك مستسلم للقدر »

وكان « يوحنا » من المستسلمين للاقدار . يحمل شبكته كل يوم ويخرج يجوب بحر الوجود مع الذين يجوبونهُ ، ويعود راضياً بما وقع في شبكته . يمضي الى مأواه ساكناً ، ويلقي بصيده جانباً ، ثم يمضي يتأمل في بحر هذا الوجود . يعيش مع احدى بنات حواء ، وحولهُ عشرة من الاولاد . اما هو فكان قد حطم الاربعين . وأما الشبكة التي كان يخرج بها الى بحر الوجود ، فلم تكن من الشباك التي يزوّدها ذلك البحر إلا بالحاجة من زاده . ولكن اقدر اخرج « يوحنا » الى الوجود سليل رجل كان بحر الوجود يزوده بالكثير من صيده ، وترك له من الدنيا نصيباً يكفيه التعب والكدح في سبيل العيش ، بل كان في يسار . وبحر الوجود بعد ان زوّد التاجر بالصيد الكثير ، منّ على الابن المفكر بصيد ولو كان قليلاً ، مما يرد السغب ويشبع بطناً عضّه الجوع

وهكذا خرج « يوحنا » الى الدنيا بمال ابيه ، ولكن برأس جديد . رأس يضن عليه بحر الوجود بخيره ، بل هو يبتلع اذا استطاع ما بين يدي صاحبه من صيد جاد به على غيره من اسلافه الاولين

وكان « يوحنا » يحمل رأس فيلسوف مستهتر ، ابيقوريّ من الطراز الاول الذي عاش قبل ان يكون ابيقور ، ذلك الطراز الذي عاش في الاسكندرية ابان ازدهارها بالعلم والفلسفة ، من طراز الفلاسفة الذين عشقوا « لايس » خليعة اثينا ، او الذين لعبت بهم « تايس » في

المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمه وزير مالية العراق سابقاً

لم يرو لنا المؤرخون العرب شيئاً عن اشتراك المنذر بن ماء السماء في الحرب الشعواء التي اثارها على الروم سنة ٥٤٠م اذ عبر الفرات قرب قرقيسيا وهبط على انطاكية وغزاها ودمّرها ونقل سكانها الى العراق الاّ ان كلاً من الطبري وابن الاثير[1] ينقل الينا خبراً نظن له علاقة بهذه الحرب وبملوك الحيرة اللخميين وان احتاج الى تمحيص ونقد من وجوه عديدة واليك خلاصته : كان بين كسرى ابو شروان وغطيانوس Justinian ملك الروم هدنة فوقعت فتنة بين رجل من العرب كان غطيانوس ملّكه على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة وبين رجل من لخم كان ملّكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة والطائف وسائر الحجاز يقال له المنذر ابن النعمان. فأغار خالد على المنذر ابن النعمان فقتل من اصحابه مقتلة عظيمة وغنم امواله فكتب كسرى الى غطيانوس يذكّره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالد ويطلب ان ينصف المنذر ويأمر خالداً ان يعيد اليه ما نهبه منهُ فلم يفعل به[2]. فغزا كسرى بلاد الروم في سبعين الفاً وكان طريقه في الجزيرة فأخذ مدينة دارا واقرها وعبر الى الشام فملك منبج وحلب وانطاكية وقامية وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدن وسبى اهل انطاكية وقتلهم الى ارض السواد وأمر فبنيت لهم مدينة الى جانب مدينة طيسفون واقتدى غطيانوس المدن الرومية من كسرى . ويقول الطبري ان رومية المدائن كانت تشبه كل الشبه انطاكية حتى ان الاسرى الانطاكيين دخلوا رومية المدائن ووجد كل واحد بيته بدون صعوبة كأنهم في انطاكية ولم يخرجوا منها

ان هذه الرواية توافق الاحوال التاريخية كلها الاّ ان امراً واحداً يتطلب الحلّ. لا غرابة في امر تولية المنذر الحكم في عمان والبحرين واليمامة والطائف بعد زوال ملك كندة من آكل المرار. قال المستشرق السر تشارلس ليل[3] : ولما انقضى امر كندة وسبي ملوك الحيرة نطاق مملكتهم فشملت النصف الشمالي من جزيرة العرب والجانب الشرقي منها مما يلي خليج

---

(١) الطبري ٢ : ١٢١ والكامل ٢ : ١٢٩ (٢) وجد ذكر هذه الوقعة في انشاءنامه للفردوسي في الترجمة العربية ٢ : ١٢٦ — ١٢٩ (٣) في خطبة القاها في مؤتمر المستشرقين التاريخية احتوان تاريخ العرب من شعرهم القديم ونشرها الملتطف في عدد فبراير ١٩١٤ ص ١٦٣ — ١٦٩

فارس ويكثر ذكر المنذر الثالث وابنه عمرو بن هند في اشعار ذلك العصر » . ونعلم ايضاً ان المنافسة بين الغساسنة والمناذرة على عرب الشمال كانت متأصلة في النفوس منذ حكم الكنديين وكان كل من الغسانيين والمناذرة ينازعون الكنديين هذا الحكم [1] . ولكن المشكل الوحيد الذي يقوم امامنا في رواية الطبري وابن الاثير قولهما المنذر بن النعمان ونحن نعلم ان ملك الحيرة كان المنذر بن امرىء القيس الثالث وهو المعروف بالمنذر بن ماء السماء وليس المنذر ابن النعمان . فيحل هذا المشكل رأيان اولهما ان المؤرخين الطبري وابن الاثير ذكرا سهواً المنذر بن النعمان بدل المنذر بن امرىء القيس وقد اشار الى هذا السهو كليمان هوارت اذ قال يسميه بعضهم غلطاً ابن امرىء القيس البدء وبعضهم ابن النعمان [2] والرأي الثاني ان عميل كسرى في عمان والبحرين واليمامة والطائف كان احد اللخميين المسمى المنذر بن النعمان عن ما رواه المؤرخون العرب

ومن حوادث المنذر بن ماء السماء المشهورة عند العرب انهُ كان له نديمان من بني اسد وهما خالد بن فضلة وقيل ابن المضلل وعمر بن مسعود فشملا فراجما الملك ليله في بعض كلامه فأمر وهو سكران فحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة ودفنهما حيين فلما اصبح استدعاهما فأخبر بالذي امضاه فيهما فعمهُ ذلك وقصد حفرتهما وامر ببناء طربالين عليهما وهما صومعتان وقال ما انا بملك ان خالف الناس امري [3] وسنَّ الا يمرَّ بهما احدٌ الا سجد لهما وكان اذا سنَّ الملك منهم سنة توارثوها وأحيوا ذكرها وجعلوها عليهم حكماً [4] وجعل لهما في السنة يوم بؤس ويوم نعيم يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويغري بدمه الطربالين ولبث بذلك برهة من دهره وسمى احد اليومين يوم البؤس وهو اليوم الذي يقتل فيهِ ما ظهر له من انسان وغيره وسمّى الآخر يوم النعيم يحسن فيهِ الى كل من يلتى من الناس ويجملهم ويخلع عليهم فخرج يوماً من ايام بؤسهِ فطلع عليهِ عبيد بن الابرص الشاعر الاسدي وقد جاء ممتدحاً فلما نظر اليهِ قال هلاَّ كان الذبح لغيرك يا عبيد فقال عبيد اتتك بحائن رجلاه [5] وبعد كلام طويل بين المنذر وعبيد نسب العرب اليهِ منشأ امثال كثيرة في لغة الضاد . وبعد ان انشد عبيد بعض الاشعار قال له المنذر يا عبيد لا بدَّ من الموت وقد علمت ان النعمان [6] ابني لو عرض لي يوم بؤسي لم اجد بُدًّا من ان اذبحه فاما ان كانت لك وكنت لها فاختر احدى ثلاث خلال ان شئت فسد تلك من الاكفان وان شئت من الاجل وان شئت من الوريد فقال عبيد ابيت اللعن [7] ثلاث خلال كلاحيات واردها شر وارد وحاديها شر حاد ومعاديها شر معاد فلا خير فيها لمرتاد

(١) زيدان : العرب قبل الاسلام ١ : ٢٠٧ (٢) Huart : His. des Arabes I : 87 . ويدعوه الطبري ٢ : ٨٦ المنذر بن النعمان الاكبر وأمه ماء السماء وفي ٢ : ٩٤ قال نقلا عن ابن هشام وملك بعد ابي يعفر بن علقمة المنذر بن امرىء القيس البدء وهو ذو القرنين وامه ماء السماء (٣) معجم البلدان مادة « غري »
(٤) المسعودي مروج الذهب ٢ : ٢٥٢ تمثل هذه الرواية على ان نواميس الملوك عندهم شرائع واجبة الطاعة
(٥) راجع مجمع الامثال للميداني ١ : ١٠٢ (٦) ان صح هذا القول كان المنذر بن ماء السماء ابن اسمه النعمان
(٧) تحية الملوك ومعناها لا تأت بعمل يستوجب اللوم واللعن

ان كنت لامحالة قاتلي فاسقني الخمر حتى اذا ماتت فما مغاصني ودعلت منها دراهي فشأنك وما تريد من مقاتلي فاستدعى له المنذر الخمر فشرب فما احدثت منه وطابت نفسه وقدمه المنذر للسيف وقال:

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه خلالاً ارى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة سحائب ما فيها لذي خيرة انق
وسحائب ريح لم توكل ببلدة فتتركها الا كما ليلة الطلق

ثم امر به المنذر فقصد حتى نزف دمه فلما مات غرّى بدمه الغريّين

وبقي المنذر[1] على تلك السنة حتى مرّ به في بعض ايام البؤس حنظلة بن ابي عفر فاستمهله في قتله سنة بكفالة شريك بن عمرو قاتله المنذر. ورجع حنظلة بعد سنة في آخر نهار الاجل المضروب لينفذ كفيله شريكاً من القتل فراح المنذر هذا الوفاء وسأل حنظلة عن سببه فاجابه حنظلة ابرّ بوعده لانه كان على دين النصرانية الذي يأمر بالوفاء فأثّر هذا الكلام في المنذر واكبر هذه الخلة الشريفة فتنصّر هو واهل الحيرة وابطل هذه السنّة العاتية

وعلى ذكر تنصّر المنذر تقول ان امه كانت على النصرانية وهي ماوية الملقبة ماء السماء على اشهر الاقوال[2] الا انهُ تقلّب في اعتقاده بين وثنية عرب الجاهلية والمجوسية وقد ذهب بعضهم الى انهُ دان بالمزدكية[3] وكانت زوجته هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي مسيحية وتسمى هند الكبرى وهي صاحبة الدير الذي باسمها وكانت قد كتبت عليه[4]

« بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر المذكة بنت الاملاك ولد الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده في ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مار افرام الاسقف . فالاله الذي بنت لهُ هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها ويقوّمها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الذهر الداهر »

وتزوج المنذر بن ماء السماء بأخت زوجته هند ايضاً واسمها امامة. وولدت لهُ كل منهما اولاداً. وكان له من هند ولد اسمه عمرو بن هند خلفه في الملك ومن امامة ولد عرف بعمرو ابن امامة[5]

ومن حروب المنذر بن ماء السماء حرب «يوم عين اباغ»[6] وكان سببها ان المنذر سار من الحيرة في معد كلها وحدث ان نزل بعين اباغ بذات الحيار وأرسل الى الحرث الاعرج بن جبلة ابن ثعلبة بن جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر الغسّاني ملك العرب بالشام[7] اما ان تعطيني العذبة فانصرف

(١) يسند بعض المؤرخين هذه الرواية الى النعمان الاول ويرويه غيرهم عن النعمان ابي قابوس. وتقول الراي المرجح انه المنذر بن ماء السماء (٢) النصرانية وآدابها ٨٨ (٣) كذلك. ولكن هذا القول يخالف ما ذكره بعض المؤرخين من اسباب تكبته كان امتناعه عن قبول المزدكية (٤) معجم البلدان مادة دير هند الكبرى (٥) معجم البلدان في المادتين (قصيب) و« مرجح » (٦) الكامل لابن الاثير ١ : ٢٢٢ وعين اباغ ليست بعين ماء وانما هو واد وراء الانبار على الفرات الى الشام. قال ياقوت في معجمه وكان عندها في الجاهلية يوم مهم بين غسان ملوك الشام ومن ملوك الحيرة قتل فيها المنذر بن المنذر ابن امرىء القيس النمري. قلت والمشهور ان القتيل فيها المنذر بن امرىء القيس . (٧) وقيل ابو شمر عمرو ابن حجلة بن النعمان ابن الحرث الايهم ابن ماوية الغساني وقيل هو ازدي نسب على غسان

عنك بجنودي واما ان تأذن بحرب فارسل اليه الحرث انتظرنا ننظر في امرنا فجمع عساكره وسار نحو المنذر وأرسل اليه يقول له انا شيخان فلا تهلك جنودي وجنودك ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر واذا فني اولادنا خرجت انا اليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك فتعاهدا على ذلك فعمد المنذر الى رجل من شجعان اصحابه فأمره ان يخرج فيقف بين الصفين ويظهر انهُ ابن المنذر فلما خرج اخرج اليه الحرث ابنه ابا كرب فلما رآه رجع الى ابيه وقال ان هذا ليس بابن المنذر انما هو عبده او بعض شجعان اصحابه فقال يا بني اجزعت من الموت ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليه وقاتله فقتله الفارس والقى رأسه بين يدي المنذر وعاد فأمر الحرث ابناً له آخر بقتاله والطلب بثأر اخيه فخرج اليه فلما وافقهُ رجع الى ابيه وقال يا ابت هذا عبد المنذر فقال يا بنيَّ ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليه فشدَّ عليه فقتله فلما رأى ذلك شمر بن عمرو الحنفي وكانت امه غسانية وهو مع المنذر قال ايها الملك ان الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام وقد غدرت بابن عمك دفعتين فغضب المنذر وامر باخراجه فلحق بعسكر الحرث فأخبره فقال سل حاجتك فقال له خلتك وخلتك فلما كان الغد غدر الحرث اصحابه وحرضهم وكان في اربعين الفاً واصطفوا للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل المنذر وهزمت جيوشه

وفي رواية ان شمر بن عمرو الحنفي احد بني سحيم قتل المنذر غيلة وذلك ان الحرث ابن جبلة الغساني بعث الى المنذر بثلثة غلام تحت لواء شمر هذا يسأله الامان على ان يخرج له من ملكه ويكون من قبله فركن المنذر الى ذلك وأقام الغلمان معهُ فاغتاله شمر بن عمرو فقتله [1]

وجاء ان غسانا اسرت امرىء القيس بن المنذر يوم قتلت اباه فأغارت بكر بن وائل على بعض بوادي الشام فقتلوا ملكاً من ملوك غسان واستنقذوا امرىء القيس بن المنذر واخذ عمرو ابن هند بنتاً لذلك الملك يقال لها ميسون [2]

وقال ابن الاثير [3] بعد قتل المنذر آمر الحرث بابنيه القتيلين فحملا على بعير بمنزلة العدلين وجعل المنذر فوقهما فرداً وقال «بالعلاوة دون العدلين» فذهبت مثلاً وسار الى الحيرة فانهبها واحرقها ودفن ابنيه بها وبنى الغريين عليهما في قول بعضهم الاَّ ان بعض المؤرخين يستبعدون ذهاب الحارث الغساني الى الحيرة ويستبعدون اكثر منه دفن ابنيه وبناء الغريين عليهما

وفي يوم اباغ يقول ابن الرعلاء :

كم تركنا بالعين عين اباغ من ملوك وسوقة اكفاء
امطرتهم سحائب الموت تترى ان في الموت راحة الاشقياء
ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الاحياء

ويظهر من مقارنة الحوادث ان موقعة يوم اباغ كانت سنة ٥٦٣ ميلادية

ومما يذكر عن المنذر بن ماء السماء انه اوفد وفداً على ابرهة بعد ان فتح الاحباش بلاد

(١) الاغاني ٩ : ١٧٢ (٢) كذلك ص٧٣ (٣) الكامل ١ : ٣٢٣

الحين[١] وينسب الى المنذر هذا بناء قصر الزوراء في رواية[٢]. ويقال انه كان يجير جاره شديد الشهامة عليه ومن ذلك ان اياد دواد الشاعر كان جاره . فنازع ابو دواد رجلاً بالحيرة من بهراء[٣] يقال له رقبة بن عامر فخرج ابو دواد بين له ثلاثة في تجارة إلى الشام فبعث رقبة الى قومه فقتلوهم فحبس المنذر اباد دواد وبعث كتيبتيه الدوسر والشهباء لمعاقبة المجرمين[٤]

ومن حديث الادباء ان الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء بن امرىء القيس فاخرج المنذر بردين يوماً يبلو الوفود وقال ليقم اعز العرب قبيلة فيأخذها فقام عامر بن احيمر بن بهدلة فاخذها واتزر باحدها وارتدى بالآخر فقال له المنذر أأنت اعز العرب قبيلة قال العز والعدد في معد[٥] ثم في نزار[٦] ثم في مضر[٧] ثم في خندف[٨] ثم في تميم[٩] ثم في سعد[١٠] ثم في كعب[١١] ثم في عوف[١٢] ثم في بهدلة[١٣] فمن انكر هذا فليناقرني فسكت الناس[١٤] ومما يذكر عن المنذر انهُ كانت له ابنة اسمها فاطمة كان يهواها المرقش الاصغر الشاعر وقال فيها الغزل[١٥]

وقد نسب العرب بعض الاقوال المأثورة الى المنذر بن ماء السماء ومنها : العز تحت ظلال السيوف . وحصون العرب الخيل والسلاح . والحرب سجال عثراتها لا تقال[١٦] ونسب اليه الميداني[١٧] المثل القائل « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » وذلك في حكاية طويلة ملخصها ان بني ضمرة بن جابر وقعوا في يد لقيط بن زرارة فاساء ولايتهم واهانهم فوسط بنو نهشل المنذر بن ماء السماء لاسترجاعهم من لقيط فاسترجعهم ودعاهم امامه وكان يعجبه ما يسمعه عن خلال شفة بن ضمرة ولم يكن منظره يرضيه فقال له « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » . فاجابه شفة أبيت اللعن واسعدك الملك ان القوم ليسوا بجزر يعني الشاء « يعيش الرجل باصغريه لسانه وقلبه»[١٨]. وجاء ذكر المنذر في كثير من اشعار عرب الجاهلية الذين عاصروه[١٩] وقصارى القول ان المنذر بن ماء السماء من اشهر ملوك الحيرة[٢٠]

---

(١) زيدان العرب قبل الاسلام ١ : ١٥٩ و ٢٠٧ (٢) كذلك ص ١٥٩ (٣) بهراء بطن من قضاعة من القحطانية وهم بنو بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة (٤) الميداني مجمع الامثال ١ : ٣١ في تفسير المثل (انا النذير العريان) (٥) معد بطن من عدنان وقيل هو بطن متسع ومنهم تناسل جميع بني عدنان (٦) بنو نزار بطن من عدنان وهم بنو نزار بن معد بن عدنان

(٧) مضر قبيلة من العدنانية وهم بنو مضر بن معد بن عدنان (٨) بنو خندف بطن من مضر من العدنانية وهم بنو الياس بن مضر . وخندف اسم امرأة الياس عرف بنوها بها (٩) بنو تميم من طابخة وهو من عدنان وهم بنو تميم بن مر بن ادبن طابخة وكانت منازلهم ارض نجد . وتزلوا من هنالك على البصرة واليمامة وامتدت الى القرى من ارض الكوفة ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر (١٠) بنو سعد بطن من تميم (١١) كعب بطن من تميم من العدنانية وهم بنو سعد بن زيد مناة (١٢) عوف بطن من تميم من العدنانية وهم بنو عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة كان له من الولد عطارد وبهدلة وغيرهما (١٣) بطن من تميم وهم بنو بهدلة بن عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم (١٤) شعراء النصرانية ١٣٣ (١٥) الاغاني ٥ : ١٧٩ (١٦) الاعلم ابو منصور الشنتمري : الاجاز والانجاز ص ١٥ (١٧) مجمع الامثال ١ : ٨٧ (١٨) كذلك ٢ : ٢٥٣ (١٩) كارلوس ليل : المقتطف يونيو ١٩١٤ (٢٠) استثنا هذا المقال من كتابنا المخطوط « الحيرة: المدينة والمملكة العربية » . راجع مقتطف اكتوبر ونوفمبر ودسمبر ١٩٣٢

انا الميت الحي

لترفيق مفرّج
صاحب كتاب « آلام وأحلام »

الوداع ايها الشعر والحب
الوداع ايها الشباب والقلب
انتم الحياة ، فالوداع ايتها الحياة
الوداع ايتها العاطفة التي لا تزال مضطرمة متأججة في صدري
الوداع ايها الفن — ايتها الموسيقى — ايها الغناء
الوداع ايها الخيال — الوداع ايها الالهام
انا سائر في سبيلي
انا اعدو وراء اشغالي واعمالي
انا منصرف عن ادبي الى تجارتي ، وعن جمع الحكمة والافكار، الى جمع المال والدينار
فالوداع ياقلمي !

* * *

منذ عشر سنوات القيت بنفسي في بحر هذا العالم الواسع
قلت للناس — انا اديب احب الادب وعالم احب العلم و مفكر احب التأمل والتفكير
وقفت في زوايا الشوارع اعرض بضاعتي واقدم اثمار افكاري
وكانت الجماهير العمياء تمر وتنظر نحوي بازدراء واحتقار، وفي نظراتها شفقة اشد من ذلك الازدراء ، ورحمة أذلُّ من ذلك الاحتقار
وكانت تموجات الاثير تحمل اليَّ كلمات عابري السبيل يقولون :
شاعرٌ تاعس وكاتب فقير !

***

وكنت انادي بصوت عال
عندي اشعار وعندي علوم !
عندي فلسفة وعندي آداب !
فلم يكن ثمة من يسمع

ولم يكن ثمة من يجيب
ولم يكن ثمة من يشتري
كسدت افكاري ، وبارت بضاعتي ، وضاعت آمالي
فاضطررت ان اصرف عن الشعر والعلم ، الى التجارة والمال

* * *

وبعد سنين جئت الى اولئك الذين احتقروني شاعراً وازدروني كاتباً وقلت
عندي اشياء جديدة
عندي اموال
عندي سيارات
عندي منازل وعزب واطيان
واذا باعداء الامس يتحولون الى أصدقاء
والذين يقولون شاعر تاعس فقير ، ثم ثم يقولون
تاجر عظيم ومتمول كبير
راجت بضاعتي المادية لان الناس ماديون يفهمونها ويطلبونها . وكسدت بضاعتي الادبية لان الناس لاهون عن الادب ، عن الشعر ، عن الفلسفة ، عن الخيال والفن

* * *

اما انا —
فأنا التاجر الخاسر رغم ارباحي
انا الكاتب الغني الذي يشعر بفقره
بعت روحي لاشتري جسدي
اضعت حياتي لاجد لذتي
هبطت من الحياة الى الموت ، ومن النور الى الظلمة ، ومن سماء الخيال الى حضيض الارض
بعت القصور الجميلة في الهواء ، لاشتري داراً حقيرة على الارض
أنا الشاعر الذي قدم دفاتره إلى محكمة الادب العليا فاعلنت افلاسه
أنا الشاعر التاجر الذي مات شاعراً ليحيى تاجراً

* * *

وها أنا الآن استعرض امام نفسي ما جمعت من مال فاجده لا يوازي كلمة واحدة من شعري

لان شعري وليد روحي وغذاؤها وحياتها
هو رفيقها بعد الموت الى ما وراء الابدية
هو سلواها في أفراحها وأحزانها لانهُ خالد مثلها
هو جزءٌ مني لا يتجزأ عني إن عشت ، ويبقى معي بعد أن أموت
أما مالي فلصعبة ألهو بها أياماً ثم أتركها لسواي

***

فيا أيها العالم الجميل البديع الذي عرفتهُ في تعاشر اهل الدنيا — قل لي كيف وأنا صحيح عقلاً وجسداً ، اهجر قلمي وانبذ شعري لاعود إلى تجارتي ومالي
كيف أرضى أن أحيي يوماً لاموت أبداً
أيها الذين يعرفونني — انظروا إليَّ وأشفقوا عليَّ
أنا الميت الحي !
انظروا كفني
هو أوراق مالية مكتوب عليها تدفع ذهباً ولا تدفع إلاَّ ورقاً
انظروا إلى نعشي
سندات وقراطيس
انظروا إلى قبري
هو قطعة من الفضة موشاة بالذهب
ايها الناس !
لقد ربحت العالم وخسرت نفسي
ايتها السماء
خذي مالي وجميع ما ملكت يداي وارجعي اليَّ شعري

***

لبست ثوب الشاعر فمات جسدي جوعاً وبرداً
ولبست ثوب التاجر فتنعم ذلك الجسد بالدمقس والحرير
اما الروح التي تنعمت في جسد الشاعر لفقره وبؤسه
فهي الروح التي تتألم في جسد التاجر لثروته وماله

عصر الانسانية المقبل

الانتقال من الفردية المطلقة الى التنظيم الاجتماعي
والبناء على مثال النمل والنحل

من بحث لاندره موروى الكاتب الفرنسي المشهور

هل ثمة اساس لما يقال من ان تاريخ الانسانية تتداوله عصور يتلو جديدُها قديمَها ؟ اليس تتابع الحوادث في التاريخ مستمراً فاذا عمد المؤرخ لدرس الماضي اخذ الشريط الذي دوّنت عليهِ الحوادث ، وقطعهُ قطعاً تسهيلاً لتناوله فيدعو قطعة منهُ «العصور الوسطى» واخرى «العصر الحديث» وهكذا . ثم أليس من المتعذّر اقامة الدليل على ان ابناء عهد ما كانوا يشعرون بأنهم منتقلون من عصر الى عصر . فالحوادث التي نحسب الآن اعلاماً في طريق التاريخ لم يحسبها كذلك الذين عاصروها . فبنطيس بيلاطس لم يتخيل قط ما سوف يكون مقامهُ في التاريخ . فلما انقضت نحو ستمائة سنة على ميلاد المسيح قرر احد الرهبان ان يجعل سنة ميلاده مبدأ للتقويم المسيحي . ولما هجم الفرنسيون على حصون البستيل يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ترنّمت لويس السادس عشر ليدون في يوميته وصف حفلة صيد وقنص حضرها !

ان الثورات الحقيقية هي بمثابة قنابل تنفجر بعد ما ترتدُّ اسبابها الى آفاق الماضي الداهية

وتيار التاريخ يكون آناً رهواً وآناً صاخباً متدفقاً . وهو تارة بطيء فاذا استطلع المؤرخ ضفافهُ ألفاها على وتيرة واحدة ثم يسقط فجأة من مرتفع فيحدث دويّاً وسخباً

ولو ان رجلاً من معاصري الامبراطور ديوقلطيانوس رأى رومانيّاً من عصر الامبراطور الغسطس لعرفهُ رغم القرون الفاصلة بين عهدي الامبراطورين . او لو ان فرنسياً نام في باريس سنة ١٦٦٦ واستيقظ سنة ١٧٨٨ لعرف الملك وبلاطه . واذا ألمَّ بآراء الفلاسفة استغربها ولكنها لم تذهلهُ . ولكنه لو نام ثانية سنة ١٧٨٨ واستيقظ سنة ١٧٩٨ لوجد نفسه في عالم لا يفهمهُ على الاطلاق . ولو ان اميركيّاً من العقد السابع في القرن الماضي ظهر في نيويورك سنة ١٩٣٠ لحسب متوحشاً جاهلاً لا يعرف ابسط حقائق الحياة

فاذن نستطيع ان نحسب كل فترة قصيرة من الزمان حدث في خلالها انقلاب اساسي في حياة الناس وافكارهم ، بواسطة عقيدة جديدة او سلسلة من المستنبطات او ارادة عبقري متفوق ، مفتتح عصر جديد . فهل نحن في مفتتح عصر جديد ؟ واذا كنا في مفتتحهِ فما أسباب الانقلاب وما ينتظر ان يتصف بهِ العصر المقبل . وقد قلنا ان اسباب الانقلاب تعمل فعل القنابل ، فهل تحت اركان المجالس النيابية الآن ، مراجل تغلي وشيكة الانفجار ؟

في القرن السادس عشر غرس المصلحون البروتستانت ، وبوجه خاص المصلح كلفن ، فكراً جديداً في اذهان الناس . قالوا انا لا نحتاج الى وسيط بيننا وبين الله ، بين الكتب المقدسة وعامة القراء . فدعوا بذلك الى الحرية في ميدان العقيدة الدينية ، ومهدوا الطريق للدعوة الى الحرية في ميدان التفكير السياسي . فالرجل الذي يستطيع ان يفسر التوراة يستطيع كذلك ان يحكم في شؤون الدولة . والرجال الذين يتساوون امام الله ، يجب ان يكونوا متساوين امام القانون . فالفلسفة الفردية كانت مطوية في تضاعيف الاصلاح الديني

ومن الغريب ان الفلسفة المقابلة للفلسفة الفردية اي فلسفة الاشتراكية العمل Collectivism كانت مطوية فيها كذلك . « فبادىء البروتستانت عزلتهم عن غيرهم ولكن حماستهم في سبيلها وحدتهم فجعلتهم قوماً واحداً » هكذا قال لوثيروس . فان افكارهم دفعتهم الى طلب الحرية ، ولكن النزاع الشديد اقتضى التنظيم الدقيق والخضوع للنظام . فوحدتهم الاجتماعية لم تكن وحدة جماعة دينية وانما كانت وحدة جيش محارب . وعلى ذلك ايد لوثيروس بعض الامراء ، وكانت حكومة كلفن نفسه بمثابة دكتاتورية . وقد سلم الناس بهذه المفارقات حينئذ لان الحمية الدينية جعلت الاستبداد مقبولاً

ولكن لم يطل المطال حتى ظهرت بلاد لا تسلم بالاستبداد ، فآتت العقيدة البروتستانتية فيها اشهى ثمارها . تلك البلاد كانت « نيو انجلند » (الولايات الشمالية الشرقية في الولايات المتحدة الاميركية التي نزل فيها المهاجرون اولاً) فقد كان معظم المهاجرين الغلاة « البيوريتان » من طبقة اجتماعية واحدة . ولما كانت افكارهم قد وحدت بينهم في منافاتهم لم يتعين عليهم ان يقاوموا اي اضطهاد في بيئتهم الجديدة . ففي نيو انجلند سارت الفردية البروتستانتية سيرها الطبيعي متجهة الى الديمقراطية الصحيحة

ومن البلدان البروتستانتية العظيمة — من انكلترا عن طريق ڤولتير ومنتسكيو ، ومن اميركا عن طريق لافايت وفرنكلن ، ومن جنيف عن طريق روسو — استمدت الثورة الفرنسية فلسفتها في « حقوق الانسان » . وكان روسو تلميذاً لكلفن فبدر بزور مذهبي الفرد والجماعة ودعا الى دولة يكون السيد فيها كلي السلطان لان السيد هو الشعب . وفي كلامه كثير مما يذكرك بروسيي العقد الثالث من القرن العشرين

اما القرن الذي تلا الثورة الفرنسية فكانت السيطرة فيه للناحية الفردية من هذه الفلسفة . فطالبت الشعوب بحقوقها — وفوقها كلها حق التصويت لانه كان رمزاً للمساواة وضماناً للحرية . وكان التصويت اولاً ميزة تمتاز بها بعض الطبقات (فكان مبنياً على مقدار الضرائب في انجلترا وفرنسا وحبس عن بعض السلالات الملونة — الزنوج — في اميركا) ولكن لم يشرف القرن التاسع عشر على ختامه حتى كان حق التصويت قد اصبح عاماً في طائفة من اكبر

البلدان ، على اثر ثورات واصلاحات اخذ بعضها برقاب بعض . ولو انهُ طُلب من عاقل ان يبدي رأيهُ في اتجاه الاجتماع سنة ١٩٠٠ لقال ان العالم في مفتتح عصر الحرية . وفازت دول الاحرار في الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وعلى اساس الدعوة الى الحرية فاقبلت الامم على تقليدها في نظامها الحكومي والاجتماعي

ولكن قوى خفية جديدة كانت تتهوض دعائم الديمقراطية والفردية . فالتصويت العام جعل السلطة في ايدي الجماهير . فلم تحجم الاحزاب عن اي عملٍ للفوز بالاصوات . فاصبح المحافظون من اتباع الدجل السياسي وحاول الاغنياء التأثير في الرأي العام باساليب مبتدعة من الدعاية . وهكذا بدأت الديمقراطية تنحو نحو الدماجوجية (الدجل السياسي) والبلوتوقراطية (حكومة الاغنياء)

ولولا الحرب العالمية والازمة الاقتصادية لخانقة التي تلتها ، لامكن ترقيع النظام القديم بالاصلاح والتعديل والاحتفاظ به الى مدًى . على ان الديمقراطية تحتاج ، لتبقى راسخة البنيان الى تعليم الشعوب في فترات السلام والرخاء . فاذا هبَّت الزوابع فضَّل الناس السلامة على الحرية . ولا تطاق الحكومة المستبدة في هذه الحال ، الاَّ اذا بدا في نظامها شيءٌ جديد . كذلك استبدل كلتن حكومة الاقلية الارستقراطية في جنيف باستبداد ديني . وكذلك قضى الروس على استبداد القيصر واحلّوا محلّهُ دكتاتورية العمال

اما الدماجوجية وسيطرة الاغنياء في بعض البلدان التي اخذت بمذاهب الاحرار ، فاورثت شروراً ومساوي طغت على مآثر الافراد . أما في ايطاليا وروسيا فالرأي الآن انهُ يجب ان يخلى السبيل للدولة . واما المانيا فيظهر انها تبحث عن قوة جبارة يستطيع ان يجد فيها شبابها التصوف قبلة للاجلال . ان نفس الامم المتمدنة اخذت تشيح بوجهها عن الديمقراطية . والصحف في اميركا لا تفتأ تعرب عن مخاوفها من النزعات الحرة ورغبتها في الحكومة القوية

ان في روسيا جيلاً جديداً غير ملمٍّ بمذاهب الاحرار في غرب اوربا واميركا ، بل هو يحتقرها ويزدريها ، اذ بسطها احد لهُ . ففي روسيا لا يبحثون قط في حقوق الانسان ، بل في واجبات الانسان . والفرد يرى شيئاً من النشوة الدينية اذ نسي ذاته ليشترك في ذات الدولة . ان وكر النمل وقفير النحل اصبحا النموذج الذي تبنى عليهِ الجماعات الانسانية . وهذا مناقض كل المناقضة للمثُل التي كانت سائدة في القرن الماضي . فهل نستنتج ان التطرف الذي بدا في البلدان «الفردية» النزعة قضى على هذه المثُل ؟ وهل يكون العصر الجديد عصر النمل والنحل ؟

اما القبلة الثانية التي أُشعلت مراراً في العالم الحديث ، فطفئت ثم اشعلت ثانية وثالثة فهي قبلة العلم التجريبي . اشعلها اولاً بعض الشعوب القديمة كاليونان . وتلاهم العرب فزادوها لهباً . ثم تعهدتها اوربا بعيد عصر النهضة أو الاحياء . ولكن الانتصار العظيم الذي نشهد آثاره جاء في مطلع القرن التاسع عشر . فقد خلق العلم التجريبي الآلة ، وهي أداة وضعت قوى الكون في متناول يد الانسان

وزيادة طاقة الانسان زيادة لا تحد عمل مفيد اذ يستطيع بها ان يزيد ما يصنعه من العروض ثم هي تمهد السبيل امامه لابتداع عروض جديدة . وتمكنه من ملاءمة كانت لغلائها ونذرتها فوق طاقته . واذ حلت الآلة محل العامل ، تحمد العين الى الحقل فزاد غلاله وجوده صنفها . وكل هذا لا تنكر فائدته . ولو ان مراقباً حاول ان يحكم على حالة العمران في مطلع القرن العشرين لقال هذا مفتتح عصر الرخاء . اما الآن وقد انقضى نحو قرن ونصف قرن على استنباط الآلة البخارية فاننا نرى نتائج لم تخطر ببال احد من ثلاثين سنة على الاكثر

فتوسيع نطاق الانتاج يفضي الى صنع عروض لا يحتاج الناس اليها كلها . والبضائع المصنوعة في طبقة عالية من الجودة والمتانة ولكن الناس لا يبتاعونها . وها هي المصيبة نزلت ببني الانسان . واية مصيبة هي — مصيبة كثرة البضائع والعروض التي كانت تحسب سبيلهم الى الرخاء . والآلة التي كان ينتظر ان تغني الانسان وتخفف اعباءه جلبت في أثرها العطل عن العمل واليؤس — وليس هذا لان الآلة شر بحد ذاتها ، بل لضعف الذكاء الانساني

وكان من أثر الاساليب العلمية التخصص في الصناعة والزراعة . فكانت كل جماعة قبلاً تصنع ما تحتاج اليه فكان لهذا أثره السيء لانه اذا اصابت الحقول سنة حلت المجاعة بالجماعة التي تعتمد عليها للحصول على الغذاء . اما وقد خلق العلم وسائل للمواصلات السريعة فقد اصبح من الميسور نقل الغلال من مكان الى آخر نقلاً سريعاً فبدا للمفكرين ان كثرة الغلال وسرعة المواصلات ازالتا شبح المجاعة من العالم

ولكن الاعتماد على المواصلات السريعة حمل الناس على تركيز الصناعة والزراعة في مواقع خاصة ممتازة . وهذا عمل مفيد لولا انهم اهملوا العناية بتوفير اسباب التبادل . وقد اباتت الازمة العالمية التي ما زلنا نعانيها ، ان شبح المجاعة ما زال يهدد العالم . فغارس اشجار المطاط قد يموت جوعاً والى جانبه اكوام من غلته التي لا تباع . وزارع الحنطة قد يهرأ برداً وحواليه اكداس الحنطة . ففكرة الوحدة الاقتصادية العالمية قد منيت باخطبة — الآن على الاقل

ثم ان الشك العلمي ، قد قتل في نظر البعض صدق الايمان . وبعض الناس يحيون من دون الايمان الصادق واما البعض الآخر فلا يستطيع ذلك . فالذين يمكن الناشئين من الصبر على آلامهم املاً في الجنة حيثما لا اوصاب ولا آلام . ولكن المادية العلمية دفعت الذين لا يرغبون في الملذات العقلية الى البحث عن اكفاء الشهوات العارضة . على ان الانغماس في الشهوة التي لا ضابط لها مناقض للطبيعة البشرية . فهو يهدم الجماعات التي تتصرف اليه ولا يلبث ان يسبح نقيض اللذة وهو الالم

ثم ان الانسان لا يستطيع ان يعيش من دون مثل اعلى يرنو اليه . وفي عصرنا هذا أسبغ على القومية ثوب ايمان جديد . ولكن القومية العنيفة المحاربة لا تستطيع ان تعيش في جماعة اساس نظامها الاقتصادي التبادل الدولي ، او في عالم اشترك فيه السلم والتجنيد الاجباري لجعل

الحرب بمثابة انتحار للبشرية. فليس امامنا في ميدان السياسة الا عقيدتا الفاشية والبلشفية . في رومية وموسكو اصبحت الدولة مصدر الآداب ومعلمة الفضائل . اما نحن في عالم تعوزه العقيدة والحكمة ، فقد لا نرى سبيلاً آخر للخلاص

والظاهر ان العصر الذي اشتركت فيه مذاهب الاحرار والعلم لتحقيق السعادة الانسانية قد بلغ غايته . قد نستطيع ان نخلص الحرية السياسية من البوار ولكن يجب ان نضحي في سبيلها بالحرية الاقتصادية . ونحن الآن في مفتتح عصر كلة السر فيه «التنظيم» وهذا التنظيم يحاول ان يتخذ في اميركا مثلاً شكل حكومة مؤلفة من خبراء ، وفي بلدان اخرى شكل جماعات من الماليين Cartels تسيطر على الحكومة من وراء ستار . فهل يكون البناء في العصر الجديد على مثال ما تفعله النمل ؟

قد تفوز النزعة الاشتراكية . واذا نجحت التجربة الروسية تكون قد ابدعت مثالاً جديداً من النظام الاجتماعي . ولا يلزم ان تذيع طريقتها في تنظيم الحياة الاقتصادية بالفتح والثورة بل يمكن ان تذيع بالعدوى والتقليد . فالثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ لم تحدث انقلاباً عنيفاً في انكلترا ولكن مبادىءها سنة ١٧٨٩ هي اهم البواعث على الاصلاح الانتخابي الذي تم في انكلترا سنة ١٨٣٢ بل نستطيع ان نقول ان سقوط الباستيل كان اهم حادث في تاريخ انكلترا . ولعل سقوط القيصرية الروسية يحسب في المستقبل اهم حادث في تاريخ الولايات المتحدة

ولكن عصر التنظيم الاجتماعي والاقتصادي قد ينتهي بالخيبة . ولم يثبت حتى الآن ان الذكاء الانساني يستطيع ان يسيطر على مستقبلنا الاقتصادي وتنظيم حاجات الناس واعمالهم . فهل من السهل ان نلائم بين عالمي الزراعة والصناعة ؟ هنا لب المسألة وليس غير التجربة كفيلاً بالجواب . فاذا انتهى هذا العصر بالخيبة فقد نشهد انحطاطاً عالمياً . فتحمل الروح القومية كل امة على الاكتفاء بذاتها . ويقل التداول الدولي حتى يكاد يمحى . وتسبح آية العصر الجديد شبيهة بآيات الحضارة الزراعية الغابرة

ومع ان هذه الخيبة ليست مستحيلة الا انها في نظرنا غير محتملة . واعتقد ان العصر المقبل سوف يتصف باتساع الثروة . على انني لست ادري أي الطرق يُعمَد اليها في توزيع الثروة توزيعاً منصفاً ، وانما احسّ ان لا بدّ من وجود حلّ ما بعد كثير من العناء والألم . ثم ان مقدار البضائع التي تستهلك آخذ في الازدياد مع ان عدد السكان يميل الى النقص . واذن فالانسان المتوسط سوف يكون اعظم ثروة مما هو الآن . ويكاد يكون في حكم اليقين ان ساعات العمل تكون اقل مما هي الآن . وسواء كان النظام الاقتصادي في العصر الجديد رأسمالياً أو اشتراكياً فالرجّح عندي ان الثروة فيه سوف تكون أعظم وساعات الفراغ أطول والمساواة اتم مما هي الآن . وقد يبقى هذا النظام مستقراً تعلوه مسحة السعادة الى مدى ثم يحدث انفجار يضع التوازن فيبدأ الانسان بحثه من جديد

الوراثة والمحيط

الدكتور شريف عيران

ضلّ الناس قديماً ضلالاً بيناً بجعلهم المحيط الشأن الاكبر في حياة الفرد لا بل خبطوا خبط عشواء في تحديد تأثير الوراثة وتأثير المحيط وفرّقوا بينهما تفريقاً ظاهراً وجعلوا لكل منهما تأثيراً مستقلاً عن الآخر . كان الرأي القديم ان المحيط هو كل شيء وذهب هذا المذهب ثلة من اساطين العلماء بل نجد في نص اعلان استقلال الولايات المتحدة صورة واضحة لعقيدة ذلك العصر فقد نص اعلان الاستقلال ان كل الناس خلقوا متساوين وعلى هذه الفكرة الاساسية فكرة ان المحيط هو العامل الاكبر في حياة الفرد نشأت اكثر الاوضاع الاجتماعية وما فيها من انظمة وقوانين او غير ذلك من محسنات المحيط فالشطر الاكبر من المدنية في عرفهم هو المحيط الحسن وتقدم المدنية معناه تحسين المحيط

وعكس ذلك النظرية الحديثة التي تجعل للوراثة الشأن الاكبر في نشوء الفرد وما ينتج عنهُ من المظاهر الاجتماعية التي هي وليدة عمل الناس ونتيجة كفاءتهم الوراثية . ولا نتوغل الآن في تحليل نظريات الوراثة والمحيط والتفضيل بين الرأيين لاننا سنفصل ذلك في سياق البحث ونأتي باحدث الآراء المعززة بالادلة والبراهين العلمية . وقد قسمت البحث الى قسمين فأتناول في الاول الوراثة والمحيط واعقبه ببحث في توريث الصفات المكتسبة

﴿ تأثير المحيط في تعيين الصفات ﴾ بيّنا ان صفات الفرد تتوقف على عوامل خلاياه وعلى السيتبلازم والمفرزات الداخلية ورأينا كيف نتمكن من تحويل الانثى الى ذكر والابله الى نبيه بواسطة المفرزات الداخلية فهل من الممكن تجهيز عوامل خارجية لها نفس التأثير فيه . والجواب نعم لانهم كما بيّنا تمكنوا من استخلاص خلاصة الغدة الدرقية وهو الثيرودين الذي يعطونه للبله فيصيرون اصحاء . وقد استخلصوا خلاصة اكثر الغدد الصماء فتقدم هذا العلم تقدماً بيّناً في العشرين سنة المتأخرة وزاد في الخمس سنوات الاخيرة فما بلوبنا ما يحدث بعد مائة سنة او الف . لابدّ ان يكون التقدم في هذا الناحية وغيرها من نواحي الحياة عظيماً

فهل للمحيط الخارجي التأثير الذي للمحيط الداخلي فتختلف الصفات باختلافه . اننا نعرف ان افراز الغدد الصماء تحت تأثير الجهاز العصبي . فالخوف والغضب يزيدان افراز الادرنالين وزيادة افراز هذه الغدة أو نقصها يؤثران في سلوك المرء . وقد رأينا فيما مضى كيف ان الخردون المائي المعروف بالـ ... يتحوّل من حيوان مائي الى حيوان برّي باطعامه خلاصة الغدة الدرقية فتتلاشى خياشيمه وذنبه وتتغير كل صفاته . ووجدوا ان نفس التأثير يحصل في هذا

الحيوان باجباره على تَرك الماء وتعويده الحياة البرية وتمريضه لدرجة خاصة من الحرارة فيتبدَّل من حيوان مائي الى بري كما لو اضمناه خلاصة الغدة الدرقية . وعلى الارجح ان هذا التبدل ناشيء عن تأثير العوامل الخارجية في الغدة الدرقية فيجعلها تزيد افرازها في الدم فيحصل التبدُّل ان العوامل الخارجية تعمل فعلها بالتأثير في المفرزات الداخلية التي هي مصدر التغيير والتبديل

ليس الجسم وحده يولد المواد الكيماوية كالمفرزات الداخلية التي تؤثر تأثيراً كبيراً في الصفات الوراثية بل هناك مواد أخرى طبيعية خارج الجسم لها فعل يشبه فعل المفرزات الداخلية . فقد دلت الابحاث الحديثة في الغذاء ان الجسم لا يكتفي في تموّنه بالمواد الاساسية النيتروجينية والدهنية والنشوية والمعادن بل هناك مواد تحققوا فعلها ولم يهتدوا الى تحديدها وتسمى الفيتامين فاذا كان الطعام خلواً منها فان الجسم يضعف ويتأخر ويصاب بامراض مختلفة وقد اكتشفوا حتى الآن خمسة انواع من الفيتامين نذكرها باختصار وهي :

(١) فيتامين A . وهو يكثر في الحليب والزبدة والدهن وصفار البيض وزيت كبد الحوت وفي الخضر كالسبانخ والخس والقرنبيط والطماطم وما أشبه وفقدان الغذاء له يعيق النمو ويولد استعداداً لعدوى الامراض ويسبب في الاولاد خاصة مرض يسمى الرمد الجاف (Xerophthalmia) فتجف سوائل العين وتتقرّح اغشيتها وتهرأ فيفضي ذلك الى فقد النظر احياناً او ضعفه ويعزى العشوُ (عدم النظر ليلا) الى فقدان هذه المادة من الغذاء

الفيتامين B وهو غزير في صفار البيض والحليب واوراق الخضر كالخس والجزر والقرنبيط وما أشبه وفي الاعضاء كالقلب والكبد والكلية الخ

ان فقدان الغذاء له يؤخر نمو الجسم ويعرضه لاخطر الامراض وهو المرض المعروف بالبري بري ومعناه « لا أقدر » اي ان المصاب لا يستطيع عمل شيء لشدة مرضه ومن اهم علاماته ضمور العضلات وشلل الاعضاء وخفقان القلب واسهال وانحطاط عام في الجسم يرافقه استسقاء وهو كثير خاصة في اليابان والصين وما جاورها وينشأ من أكل الارز المقشور لان الفيتامين موجود في القشر

الفيتامين C يكثر في عصير الليمون الحامض والبرتقال وفي الطماطم والفول والخس والتفاح والعنب (الحليب) والبيض وفقدانه يسبب مرض الاسقربوط واهم اعراضه انحطاط في الجسم واضطراب القوى العقلية والجسدية وألم وورم في المفاصل ونزف دموي تحت الجلد وفي غشاء الفم المخاطي واللثة بوجه خاص وتساقط الاسنان ويشتد الصداع وغيره من الآلام العصبية ، ونقصه من اسباب نخر الاسنان في الاطفال

الفيتامين D غزير في زيت كبد الحوت وغيره من انواع زيوت الاسماك وفيه مقدار يسير في الزبدة وزيت جوز الهند . اما نقصه فيسبب مرضاً من اشد الامراض وهو منتشر انتشاراً هائلاً بين الاطفال من سن الستة اشهر الى السنتين ولا نبالغ ان ٩٠ بالمائة من الاطفال حتى بين الشعوب المتمدنة يصابون به ويظهر انه علاقة وثيقة بنمو العظام وتور

الشمس أو بالحري الاشعة فوق البنفسجية لها نفس التأثير الذي لهذا الفيتامين . وهذا المرض هو المرض المعروف بالكساح الذي يسبب تشوهات في العظام كاعوجاج القدم وانحنائها وبروز عظام الصدر وارتخاء عضلات الجسم وتأخر نموه واضطراب الامعاء وفقدان شهية الطعام وبرود البدن والسدر بصورة غير طبيعية وضحاياه في الاطفال اكثر من ان تحصى فاعطاء الطفل قليلاً من زيت كبد الحوت أو عصير البرتقال أو تعريضه لاشعة الشمس أو الاشعة فوق البنفسجية تزيل هذا المرض وتعيد المصاب الى حالته الطبيعية

الفيتامين قد يؤثر في التناسل وهو موجود في ورق الخس وفي القطائي واللحم الجديد وصفار البيض فاذا خلا منه طعام الام مات الجنين في اليوم ١٢ — ٢٠ من تكونه فنقصه سبب من أسباب العقم

وقد اكتشف رولف حديثاً نوعاً سادساً سماه فيتامين G وهو موجود في البيض والحليب والخميرة ونقصه يسبب مرض البلاغرا Pellagra وهو من الامراض المنتشرة في ايطاليا واسبانيا وغيرها من الامصار الاوربية والولايات المتحدة وبقي سببه غامضاً حتى أعلن حديثاً هوكلاند مدير دائرة الكيمياء الحيوية في واشنطن اكتشاف الفيتامين واتم علامات هذا المرض عوارض جلدية وعقلية ومعوية فيظهر طفح جلدي وتقرح في الفم يرافقها اسهال واضطرابات عصبية . فهذه المواد عوامل خارجية تؤثر في صفات الفرد فتجعل الابله سليماً والعقيم توجاً وتبرىء المصابين بالعاهات الناشئة عن فقدان تلك المواد وهي دليل على تأثير المحيط الخارجي. وهنا يظهر تناقض في اقوالنا فقد بينا فيما سلف ان الكروموسوم والبيتيلازم هما العامل في نشوء الصفات ونعترف الآن ان الصفات تتغير بفعل العوامل الخارجية ايضاً اي المحيط وسنورد بعض الامثلة التي توضح الحقيقة وتكشف الستار عنها وتبين العلاقة بين الوراثة والمحيط

وجد R. A. Emerson ان مختلف الالوان في الاذرى ورائي وحينما تنمو هذه النباتات في الحقول المعرضة للشمس يصير بعضها احمر (بكل ما فيه من ورق وزهر الخ) ويبقى البعض اخضر . واذا زرع كل من هذين النباتين الملونين على حدة خرج كل بلونه . واذا تاسلا الاحمر بالاخضر تبعا في نظام وراثتهما قانون مندل اي ٣ غالب الى ١ كامن . ولكن اللون يتوقف على المحيط فالانواع التي تنبت الاحمر لا تنبته الا اذا زرعت في الشمس اما اذا زرعت في الضوء فيسمأ النبت اخضر فاذا كان عندنا نوعان احمر واخضر فالاحمر لا ينمو احمر الا اذا زرع معرضاً لنور الشمس وأما الاخضر فينمو اخضر سواء ازرع في الشمس او الضوء . واذا كان عندنا نوعان احمران وزرعنا احدهما في الشمس والآخر في الضوء فالاول ينشأ احمر والثاني اخضر . فهذه الامثلة توضح لنا علاقة العوامل الوراثية بالمحيط فالعوامل لا تخرج اللون المطلوب الا اذا كانت في محيط خاص والمحيط لا يرتد اللون المطلوب الا اذا كانت هناك عوامل خاصة فالعوامل تتوقف على المحيط والمحيط يتوقف عليها . فلا نستطيع ان نقول هذه الصفة وراثية وتلك محيطية فلاخراج صفة من الصفات ينبغي ان تتوافر لدينا عوامل خاصة ومحيط خاص . فالعوامل لا تخرج

الصفة المطلوبة اذا كانت في المحيط الخاص والمحيط لا يخرجها الا اذا توافرت العوامل الخاصة

وقد وجدوا ان عوامل اخرى تؤثر في اللون منها فقر الغذاء فالارض الفقيرة بالمواد الغذائية تثبت اللون الاحمر في بعض النباتات. وخزن المواد النشوية في الانسجة يولد اللون الاحمر ايضاً

ذكرنا بعض الامثلة من مملكة النبات ونذكر الآن غيرها من مملكة الحيوان. يربي العلماء ذباب الفواكه في زجاجات خاصة فيها موز نهري فيصير هو غذاءها وطعاماً فالذباب الذي ينمو بهذه الصورة يظهر عيب في بطن بعض افراده. فالاجزاء التي تتركب منها البطن لا تكون واضحة ومن المحقق ان هذا العيب وراثي يتوقف على نوع العامل ولكنهُ لا يظهر الا اذا نشأ الذباب في محيط خاص والمحيط الخاص لا يؤثر فيهِ ما لم يكن ذلك العامل موجوداً. ويوجد عيب آخر في هذا الذباب اذ تكون له أرجل أو عقد مكررة وهذا العيب يورث بالطريقة الجنسية وهو ناشيء عن خلل بالعامل أكس X ولكنه لا يظهر اذا نشأ الحيوان في محيط دافيء فالمحيط البارد يسبب تكرر الساق والرجل في الذباب الموجود فيهِ عوامل هذا العيب. اما الذي يكون خلواً من العيب فينشأ صحيحاً ولو كان في محيط بارد. ويوجد نوع ضخم من هذا الذباب حجمه ضعف الحجم العادي وهذه الضخامة وراثية تظهر اذا تغذى الحيوان تغذية جيدة وهو في الدور الدودي ولا تظهر ان لم يتغذى الحيوان الغذاء الخاص في ذلك الدور وتتلخص العوامل المحيطية المثارة المذكر بما يلي: (١) نور الشمس (٢) الغذاء (٣) الرطوبة والجفاف (٤) البرد والحر

﴿ علاقة الوراثة بالمحيط ﴾ ان المرء يرث عوامل مختلفة تكون فرداً ذا صفات معينة فتلخص العوامل تنشيء صفات مختلفة تحت تأثير المحيط ولا تناقض بين العوامل والمحيط فاختلاف بعض العوامل لا ينشيء الصفات المختلفة الا في محيط خاص فبعض الصفات تتوقف على العوامل وحدها فتدعى وراثية وتسر تلك الصفات تتغير بتغير المحيط فتدعى محيطية فالعوامل تظهر نوعاً من الصفات والمحيط نوعاً آخر

فاذا اخذنا نوعين من الاذرى احمر واخضر عاملهما واحد فالفرق بين لونيهما يعود الى المحيط واذا قابلنا نوعاً احمر مع غيره اخضر نمى في نفس المحيط فالفرق بينهما وراثي

﴿ شأن الوراثة والمحيط ﴾ ايهما اهم في صفات الفرد الوراثة او المحيط او بكلمة اخرى ايهما أهم في بناء البيت المواد التي يبنى منها أو طريقة بنيانه. ان لكل منهما ميزة خاصة فبعضها ناشيء عن اختلاف العوامل وغيرها عن اختلاف المحيط فيؤثر المحيط في بعض الانواع في الصفات الاساسية كالجنس ولا تأثير له في غيرها. ففي ذباب الفواكه الذي درسوه حق الدراسة من هذه الوجهة لا تأثير للمحيط في الصفات البارزة كالحجم والشكل واللون والبنية والجنس تتوقف على العوامل الوراثية كما ورد في الامثلة التي ذكرناها من تسطيح العيون وعيب البطون ومضاعفة الساقان وغيرها. وفي كثير من النباتات وبعض الحيوانات السفلى تتوقف اكثر الصفات على المحيط. والخلاصة ان الصفات البارزة في اغلب الحيوانات كالماشي والارانب وكل ذوات الثدي لا تتوقف على المحيط فاختلاف

المختلفتان تنتقلان بالارث الجنسي فلو زاوجنا الآباء التي تطير نحو النور بالامهات التي لا تطير نحوه فان صفة الطيران نحو النور لا تظهر في الابناء بل في البنات

وثمة عدة صفات اخرى حسّية في الحيوانات تنتقل بهذه الطريقة . ان الالفة والوحشية تتوقفان في الحيوانات على العوامل الوراثية فبعضها تكون اليفة وغيرها وحشية . وتتوقف في الانسان بعض صفات الحس عليها فعمى اللون وهو من الصفات الوراثية ينتقل بواسطة الكروموسوم X بالاتصال الجنسي وكذلك قوة النظر والسمع وضعفهما يورثان بطريقة مندل وقوة العقل وضعفه يتوقفان على العوامل الوراثية ويورثان بحسب قانون مندل . ومما يدل على ان هذه الصفات وراثية تكرر ظهور صفات متشابهة في العائلة الواحدة او فيمن يمتّون بعضهم الى بعض بقرابة شديدة حيثما لا يكون اختلاف في محيطهم . وعليه نرى استعداداً لبعض انواع الجنون يسري في أعضاء العائلة الواحدة . ولا يعني هذا ان الافراد الذين فيهم هذه العوامل يصيرون مجانين حقًّا بل معناه انهم يجنّون في احوال لا تؤثر في غيرهم اذا لم تكن فيهم تلك العوامل (اي عوامل الاستعداد للجنون) . إننا نعلم ان البلادة وانبطاء وغيرها من الخصال تتوقف على مقدار أفراز الغدد الصماء ونوعه ويتوقف هذان بدورهما على العوامل الوراثية فالاشخاص الذين لا تفرز غددهم الدرقية الافراز الكافي لا تنمو مواهبهم العقلية النمو المطلوب فيصيرون قوماً « بُلهاً » ومتى أعطيناهم خلاصة هذه الغدة زال منهم هذه العاهة. ولدينا عدة شواهد من هذا القبيل اتينا على ذكرها لما بحثنا في الغدد الصماء . ويظهر لنا ان توقف الصفات العقلية على العوامل الوراثية لا يكون رأساً بل بواسطة الغدد الصماء التي بدورها تتوقف على العوامل والصفات العقلية تتوقف على هذه الغدد فأي خطر يطرأ على العوامل يؤثر بالغدد وهذه تؤثر بالصفات العقلية

ان سلوك الفرد يتوقف على تأثره بالمؤثرات او هو ملاءمته للاحوال (الماضية والحاضرة والمستقبلة) التي تصادفه . والمؤثر الداخلي هو العقل ولا يتجاسر احد ان يقول ان لا علاقة لسلوك الانسان باحوال الحياة فسلوكه حين وجود الطعام يختلف عن عدمه فما اثر العوامل في هذا السلوك . من البديهي ان العوامل لا تؤثر في الغدد تأثيراً مجرداً عن الظروف التي تحيط به بل تجعل التأثير تحت الظروف الواحدة مختلفاً باختلاف الافراد . فان بعض الافراد يتأثر بجزء من المحيط وبعضهم يتأثرون به كله وآخرين لا يتأثرون بتاتاً ويكون بعضهم سريع التأثر وغيرهم بطيئه فهل العوامل هي المسيطرة على هذا الاختلاف . وهنا تزداد المسألة تعقداً . فان اختبارات الافراد الماضية والاحوال التي تمر بهم اثناء نشأتهم تغيرهم وتغير مبلغ تأثرهم بالظروف فسلوك الشبعان يختلف عن الجائع والتعبان عن المرتاح والشخص الذي يعلم شيئاً عمن يجهله وهكذا نرى الشواهد عديدة على اختلاف السلوك باختلاف الظروف ومن البديهي ان للعوامل الوراثية والمحيط تأثير في سلوك المرء وقد ضربنا امثلة كثيرة تبين علاقة الوراثة بالمحيط فما

تعرضه هنا أو باستعمال التلقيح ضدها فانه لا يصاب ايضاً . ويعتقد الناس ان العلة أو العيب الوراثيين لا بد من حصولها معها احتاط المرء ولكن الحقيقة غير ذلك فان المرء يرث مزاجاً خاصاً لتبديل العلة وتصيبه في احوال خاصة ولا تصيبه في احوال اخرى كما بين . ولا تقتصر الوقاية على تأثر المرء الحاضر بالمحيط بل ان للمحيط الماضي اثراً لا ينكر فمن أصيب بالجدري أو تلقح ضدها في الماضي لا يصاب بها في الحاضر في الغالب ومن تعرض لاقصى درجات الحر والبرد لا يعود شديد التأثر بهما فلو اخذنا ثلاثة اشخاص لم يصابوا بمرض ما حين انتشار وباء ذلك المرض كالطاعون مثلاً فاحدهم لم يصب بسبب مناعته الوراثية وآخر لانه اصيب بالمرض قبلاً أو تلقح ضده والثالث توقاه فابتعد عن المحيط الملوث وهذه الامثلة تبسط لنا تأثير الوراثة والمحيط في آن واحد

﴿ علاقة الصفات العقلية بالوراثة والمحيط ﴾ ان للصفات العقلية والاخلاقية شأناً كبيراً في المجتمع فما علاقة العوامل والمحيط بها وما تأثيرها في الاخلاق والسلوك او حياة الانسان الفنية والعلمية والادبية ؟ بعضهم ينسب كل شيء للمحيط . يقول وطن اننا لا نرث صفاتنا واخلاقنا ومواهبنا الخاصة بل يجبرنا آباؤنا على اكتسابها . ويدعي البيولوجيون عكس ذلك فينسبون كل شيء الى الوراثة فايهما اصدق . ويجدر بنا توصلاً للحقيقة ان نبحث في هل علم الوراثة الحديث الذي رأيناه ينطبق على النبات والحيوان ينطبق على الانسان ايضاً

ثبت من الابحاث التي ذكرناها سابقاً ان صفات الفرد تتوقف على العوامل الوراثية فتتغير بتغيرها تتغير الصفات ولكننا لم نتقصَ انها تتغير بطرق أخرى وقد بينا العلاقة بين الوراثة والمحيط وتعلق الواحد بالآخر فلا حاجة للاعادة . وبيت القصيد من بحثنا الآن ان نعرف هل الصفات العقلية تختلف باختلاف العوامل الوراثية . ان التجارب التناسلية والوراثية تؤيد هذه الحقيقة فالنظام الوراثي يبين لنا كيف تنتقل الصفات من الآباء الى الابناء بقانون مندل والانفصال الجنسي الخ وهذا دليل كاف على ان الصفات العقلية تنتقل بالوراثة . فان النظام التناسلي ينطبق على الانسان كما ينطبق على الحيوان ففي الانسان ٤٨ كروموسوماً تنتظر ٢٤ زوجاً في الابوين وتنتقل الى الابناء وتورث . ومن قوانين الوراثة ان البنية وطول القامة وقصرها والصفات الفسيولوجية والاخلاقية والسلوكية والعقلية تتوقف على العوامل الوراثية ولا يوجد صفة من الصفات لا تتأثر بها . فهل هناك صفة لا تتأثر بها وهل بعضها يتأثر بالمحيط

نلجأ الآن الى التجارب العلمية ونستنبطها فنطبقها على الحيوان اولاً ثم نرى اذا كانت تنطبق على الانسان . ان الصفات السلوكية في ذباب الفواكه تتغير بتغير العوامل . والعامل الدافع لهذا الذباب لكي يتجه نحو النور موجود في الاكس كروموسوم ومركزه في النقطة ٢٧٫٥ من مصوّر الكروموسومات الخاص بالذباب المذكور . فوجود هذا العامل بحالة خاصة يجعل الذباب يطير للجهة التي يأتي منها النور Positive Phototaxis ومعناه الانجذاب الايجابي نحو النور . ووجود ذاك العامل بحالة أخرى لا يجعل الذباب يطير نحو النور . فهاتان الصفتان

المختلفتان تنتقلان بالارث الجنسي فلو زاوجنا الآباء التي تطير نحو النور بالامهات التي لا تطير نحوه فان صفة الطيران نحو النور لا تظهر في الابناء بل في البنات

وثمة عدة صفات أخرى حسّية في الحيوانات تنتقل بهذه الطريقة . ان الالفة والوحشية تتوقفان في الحيوانات على العوامل الوراثية فبعضها تكون الفة وغيرها وحشية . وتتوقف في الانسان بعض صفات الحس عليها فعمى اللون وهو من الصفات الوراثية ينتقل بواسطة الكروموسوم X بالاتصال الجنسي وكذلك قوة النظر والسمع وضعفهما يورثان بطريقة مندل وقوة العقل وضعفه يتوقفان على العوامل الوراثية ويورثان بحسب قانون مندل . ومما يدل على ان هذه الصفات وراثية تكرر ظهور صفات متشابهة في العائلة الواحدة او فيمن يتصلون بعضهم الى بعض بقرابة شديدة حينما لا يكون اختلاف في محيطهم . وعليه نرى استعداداً لبعض انواع الجنون يسري في أعضاء العائلة الواحدة ولا يعني هذا ان الافراد الذين فيهم هذه العوامل يصيرون مجانين حقًّا بل معناه انهم يجنّون في احوال لا تؤثر في غيرهم اذا لم تكن فيهم تلك العوامل (اي عوامل الاستعداد للجنون) . إننا نعلم ان البلادة والبطء وغيرها من الخصال تتوقف على مقدار أفراز الغدد الصماء ونوعه ويتوقف هذان بدورهما على العوامل الوراثية فالاشخاص الذين لا تفرز غددهم الدرقية الافراز الكافي لا تنمو مواهبهم العقلية النمو المطلوب فيصيرون قوماً « بُلهاً » ومتى أعطيناهم خلاصة هذه الغدة تزول منهم هذه العاهة. ولدينا عدة شواهد من هذا القبيل اتينا على ذكرها لما بحثنا في الغدد الصماء . ويظهر لنا ان توقف الصفات العقلية على العوامل الوراثية لا يكون رأساً بل بواسطة الغدد الصماء التي بدورها تتوقف على العوامل والصفات العقلية تتوقف على هذه الغدد فأي خطر يطرأ على العوامل يؤثر بالغدد وهذه تؤثر بالصفات العقلية

ان سلوك الفرد يتوقف على تأثره بالمؤثرات او هو ملاءمته للاحوال (الماضية والحاضرة والمستقبلة) التي تصادفه . والمؤثر الداخلي هو العقل ولا يتجاسر احد ان يقول ان لا علاقة لسلوك الانسان باحوال الحياة فسلوكه حين وجود الطعام يختلف عن عدمه فما أثر العوامل في هذا السلوك . من البديهي ان العوامل لا تؤثر في الغدد تأثيراً مجرداً عن الظروف التي تحيط به بل تجهز التأثير تحت الظروف الواحدة مختلفاً باختلاف الافراد . فان بعض الافراد يتأثر بجزء من المحيط وبعضهم يتأثرون به كله وآخرين لا يتأثرون بتاتاً ويكون بعضهم سريع التأثر وغيرهم بطيئه فهل العوامل هي المسيطرة على هذا الاختلاف . وهنا تزداد المسألة تعقداً . فان اختبارات الافراد الماضية والاحوال التي تمر بهم اثناء نشأتهم تغيرهم وتغير مبلغ تأثرهم بالظروف فسلوك الشبعان يختلف عن الجائع والتعبان عن المرتاح والشخص الذي يعلم شيئاً عمن يجهله وهكذا نرى الشواهد عديدة على اختلاف السلوك باختلاف الظروف ومن البديهي ان للعوامل الوراثية والمحيط تأثير في سلوك المرء وقد ضربنا امثلة كثيرة تبين علاقة الوراثة بالمحيط فما

تعرضه لها أو باستعمال التلقيح ضدها فانه لا يصاب ايضاً . ويعتقد الناس ان العلة أو العيب الوراثيين لا بد من حصولها مهما احتاط المرء ولكن الحقيقة غير ذلك فان المرء يرث مزاجاً خاصاً لقبول العلة وتصيبه في احوال خاصة ولا تصيبه في احوال اخرى كما بينا . ولا تقتصر الوقاية على تأثر المرء الحاضر بالمحيط بل ان للمحيط الماضي اثراً لا ينكر فمن أصيب بالجدري أو تلقح ضدها في الماضي لا يصاب بها في الحاضر في الغالب ومن تعرض لاقصى درجات الحر والبرد لا يعود شديد التأثر بهما فلو اخذنا ثلاثة اشخاص لم يصابوا بمرض ما حين انتشار وباء ذلك المرض كالطاعون مثلاً فاحدهم لم يصب بسبب مناعته الوراثية وآخر لانه اصيب بالمرض قبلاً أو تلقح ضده والثالث توقاه بابتعاده عن المحيط الموبوء وهذه الامثلة تبسط لنا تأثير الوراثة والمحيط في آن واحد

﴿ علاقة الصفات العقلية بالوراثة والمحيط ﴾ ان للصفات العقلية والاخلاقية شأناً كبيراً في المجتمع فما علاقة العوامل والمحيط بها وما تأثيرها في الاخلاق والسلوك او حياة الانسان الفنية والعلمية والادبية ؟ بعضهم ينسب كل شيء للمحيط . يقول وطسن اننا لا نرث صفاتنا واخلاقنا ومواهبنا الخاصة بل يجبرنا آباؤنا على اكتسابها . ويدعي البيولوجيون عكس ذلك فينسبون كل شيء الى الوراثة فيهما اصدق . ويجدر بنا توسلاً للحقيقة ان نبحث في هل علم الوراثة الحديث الذي رأيناه ينطبق على النبات والحيوان ينطبق على الانسان ايضاً

ثبت من الابحاث التي ذكرناها سابقاً ان صفات الفرد تتوقف على العوامل الوراثية فتتغير بها تتغير الصفات ولكننا لم نثبت انها تتغير بطرق أخرى وقد بينا العلاقة بين الوراثة والمحيط وتعلق الواحد بالآخر فلا حاجة للاعادة . وبيت القصيد من بحثنا الآن ان نعرف هل الصفات العقلية تختلف باختلاف العوامل الوراثية . ان التجارب التناسلية والوراثية تؤيد هذه الحقيقة فالنظام الوراثي يبين لنا كيف تنتقل الصفات من الآباء الى الابناء بقانون مندل والاتصال الجنسي الخ وهذا دليل كاف على ان الصفات العقلية تنتقل بالوراثة . فان النظام التناسلي ينطبق على الانسان كما ينطبق على الحيوان ففي الانسان ٤٨ كروموسوماً تنشطر ٢٤ زوجاً في الابوين وتنتقل الى الابناء وتورث . ومن قوانين الوراثة ان البنية وطول القامة وقصرها والصفات الفسيولوجية والاخلاقية والسلوكية والعقلية تتوقف على العوامل الوراثية ولا يوجد صفة من الصفات لا تتأثر بها . فهل هناك صفة لا تتأثر بها وهل بعضها يتأثر بالمحيط

نلجأ الآن الى التجارب العلمية ولنتبعها فنطبقها على الحيوان اولاً ثم نرى اذا كانت تنطبق على الانسان . ان الصفات السلوكية في ذباب الفواكه تتغير بتغير العوامل . والعامل الدافع لهذا الذباب لكي يتجه نحو النور موجود في الاكس كروموسوم ومركزه في النقطة ٢٧٫٥ من مصوَّر الكروموسومات الخاص بالذباب المذكور . فوجود هذا العامل بحالة خاصة يجعل الذباب يطير تجاه التي يأتي منها النور Positive Phototaxis ومعناه الانجذاب الايجابي نحو النور . ووجود ذلك العامل بحالة أخرى لا يجعل الذباب يطير نحو النور . فهاتان الصفتان

البسمات الساخرة

يرعمك مثلي أيها الزهر تغتدي ... الى الكون من أكمامك النضرات ؟
وتوفي على الدنيا وفيك ابتسامة ... تعبّر عما عبّرت بسماتي ؟
وما بسمتي إلاّ مقالة ساخرٍ ... خلصت من مرير النطق والهمسات
وليس يجازى الدهرُ في حال غدرهِ ... سوى بابتسام ساخرٍ وثباتِ
أتبسمُ مثلي هازئاً مسترفعاً ... تُرى ؟ أم حياة الزهر غير حياتي ؟
خلصت من الآلام؟ الا بل تعدّدت ... عليكَ ، ولا تدري الذي هو آتِ
نجوت من القيد المذلّ ولم تعُد ... تحجّبك الأكمامُ منطبقاتِ
فطِرْ عن حماك الآن ... لستَ بنائلٍ ... خلاصاً ، وما الأغصانُ غير حُمّاقِ
الى أنْ يرى القاطفون فتنتهي ... الى عالمٍ مُستبهم الظلماتِ
نعم ! أنتَ مثلي أيها الزهر مُرغَم ... وما هذه الألوان غير شبياتِ
وما العطر إلاّ أنّةٌ وتوجّعٌ ... كأمتداد الغاب ورجع شكاتي
يغني شجيُّ القلبِ والناسُ حولهُ ... طروبين بالإنشادِ والنغماتِ

* * *

تردّد في أفقِ الرياض صدى الذي ... أقولُ ، وشاعَ الحزنُ في كلماتي
ومالَ جميعُ الزهر في خطراته ... وذرّفَ من دمع الندى قطراتِ

حسن كامل الصيرفي

آثار جرش الفخمة

﴿ جغرافيتها ﴾ جرش بلدة قديمة تقع على هضاب جلعاد Gilead بعيدة عن طريق السياح على ٤٥ كيلو متراً من مدينة عمان (عاصمة إمارة شرقي الاردن) من الجهة الشمالية ويسكنها الآن نفر من الجرش استوطنوها في سنة ١٨٧٨ م في عهد السلطان عبد الحميد ويحيط بها الجنائن من جميع جهاتها ولذلك فهي تعد من أجمل مدن شرق الاردن

﴿ نبذة من تاريخها ﴾ ما يعرف عن تاريخ هذه المدينة نزرٌ يسير . فلا يعرف تماماً متى بنيت ومن بناها ولم يصلنا شيء من تاريخها إلا ما نجده من القطع الصغيرة في كتب بعض المؤرخين الاقدمين . فيوسيفوس[1] Josephus يقول أن الاسكندر الكبير كان قد فتح المدينة سنة ٨٣ ق.م ويؤيد هذا[2] Jamblichus بقوله أن فريقاً من اتباع الاسكندر كانوا قد سكنوها وخربوها وبقيت من ذلك الوقت خراباً إلى أن فتح الرومان هذه البلاد واستعمروها وكان من نتيجة هذا أن بناها المستعمرون في سنة ٦٥ ب . م . وأخذت من هذا التاريخ تنمو وتتقدم حتى أصبحت في أيام الامبراطور انطونينوس (١٣٠ — ١٨٠) ب.م ثاني مدينة بين المدن العشر[3] Decapolis ومن اهم المدن العظيمة التي كان لها شأن خطير في تاريخ الامبراطورية الرومانية

ولقد ذكرها كثيرون من مؤرخي الرومان والاغريق امثال بطليموس Ptolemy واسترابون Strabo وبليني Pliny وذكرها ايضاً ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان فقال عنها أنها كانت مدينة عظيمة وأنهُ شاهد فيها آثاراً خربة وكان في وسطها نهر جار (وهو لا يزال إلى يومنا الحاضر) يدير عدة رحى عامرة

وذكر المدينة ايضاً فريق من السياح الاجانب الذين زاروا هذه البلاد منهم السائح J. S. Buckingham في كتابه « رحلة بين قبائل العرب Travels Among the Arab Tribes » في سنة ١٨٢٥ م وهو يصف قبور المدينة وآثارها وصفاً اجمالياً . وقد ذكرها ايضاً السائحان الانكليزيان فرنجل واربي James Frengles & Charles Leonard Irby في كتابهما « رحلة الى مصر ونوبيا Travels in Egypt and Nubia » فوصف احدهما المدينة والشوارع وصفاً وافياً

---

(١) مؤرخ يهودي عاش سنة ٣٧ — ٩٥ ميلادية (٣٧ ق.م حوالي سنة ٣٣٠ م . وهو اكبر ممثل لمدرسة الافلاطونية الحديثة السورية Syrian Neoplatonism سوري المولد

(٣) وهو اسم يطلق على اهم المدن العشر في الامبراطورية الرومانية في الشرق الادنى راجع The Historical Geography of the & Holy Land By George Adam Smith pp. 596

آثار جرش

مقدمة : — إن آثار هذه المدينة هي من أروع ما هو باقٍ في هذه البلاد من آثار العمران القديم . فالاعمدة الكبيرة القائمة في وسطها والمعابد الكثيرة المنتشرة في أرجائها تترك في النفس أثراً لا يزول مع مضي الايام ولا غرو في ذلك إذ أن فترة استعمار الرومان لهذه البلاد كان من دون شك هذه المدينة وهي تقع في مربع غير هندسي طول ضلعه الواحد ما يقارب الميل ويحيط بها سورٌ سمكه ٨ أقدام ولهذا السور ستة ابواب[1] . واليكم الآن أهم ما فيها من الآثار

(ا) قوس النصر : (The Arch of Triumph)

عندما نصل إلى المدينة من الجهة الجنوبية يقع نظرنا اولاً على قوس النصر القائم على ثلاثة أقواس ، منتصفها مزيّنٌ بأربعة أعمدة عليها ثلاثة من النقوش الجميلة . واذا ما دخلنا هذا القوس وجدنا على يسارنا ، وذلك بعد السير مسافة قصيرة ، ملعباً كبيراً Stadium كان الرومان يقيمون فيه العابهم ويظهر من البناء انهُ كان يستعمل أيضاً للالعاب المائية ويقال أنهُ كان يستعمل لتعبة الكرة والصولجان Polo[2]

ومساحة هذا الملعب تقرب من ٦٠٠ ياردة مربعة وعلى بعد ٣٠٠ ياردة شمالاً من قوس النصر بوّابة المدينة كانت تدعى بوّابة فيلادلفيا وهذا الاسم هو الاسم القديم لمدينة عمان الحالية

(ب) معبد زفس Zeus أو المعبد الجنوبي The South Temple

وبعد المرور من هذه البوّابة إلى داخل المدينة نجد على يسارنا معبداً قائماً على مرتفع يحفُّ بهِ سفان من الاعمدة في كل صف منهما ثمانية أعمدة . ولم يبق من هذه الاعمدة في محلها سوى عامود واحد وكانت مساحة المعبد الداخلية تساوي ٥٠ × ٧٠ قدماً مربعاً

(ج) الملهى العمومي Theater : الى الجهة الغربية من هذا المعبد ملعب كبير يرتفع من باحته مدرّج مؤلف من ٢٨ حلقة من المقاعد وهو على حال حسنة من العمران ومقاعده مقسمة وهي لا تختلف كثيراً عن تقسيم مقاعد بعض انديتنا في هذا الوقت وكان الرومان يمثلون فيه رواياتهم المسرحية

(د) : الميدان (The Forum)

وهو بيضوي الشكل تحيط به الاعمدة الايونية Ionic . ويبلغ محيطه ٣٠٨[3] أقدام . اما الغاية منهُ فيقول الدكتور[4] C. S. Fisher أنه كان محلاً للاجتماعات السياسية والاجتماعية وارضهُ مرصوفة بحجارة جميلة في دوائر متوازية ذات مركز واحد ويقال أنه كان يستعمل ايضاً باحةً للاسواق ويوجد حوله الآن ٥٧ عاموداً تامّاً ولا يمكن أن يكون هنالك اكثر من ١٠٠

(١) راجع ما هو مكتوب عن جرش في دائرة المعارف الانكليزية Encyclop. Brittannica

(٢) وهي لعبة اسمها فوسية انتقلت الى الهند ونقلها الانكليز عن الهنود الى بلادهم في سنة ١٨٦٩م

(٣) راجع Murray's Hand Book of Palestine & Syria (٤) استاذ كبير في علم الآثار تفنى سنين عديدة في مصر وسوريا وفلسطين منقباً عن بعض الآثار ولقد كان رئيساً لبعثة جامعة Yale في جرش سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١

عامود وهيذا يظهر من الآثار الباقية الى الآن ويتباين طول العامود الواحد من ١٦—٢٠ قدماً

(هذا الشارع العمومي (The Main Street)

وهو يمتد من الميدان إلى نهاية المدينة من الجهة الشمالية ، وعلى جانبيه أعمدة كورنثية . ويقطع هذا الشارع شارع آخر في زاوية قائمة وفي نقطة التقاطع تقوم أربعة أحجار كبيرة طول الواحد منها ٧ أقدام وعرضه ١٢ قدماً وسمكه ١٢ قدماً ايضاً . ويوجد على جانبي هذا الشارع أعمدة كورنثية كالشارع الاول وهو يمتد إلى القرية الحالية وذلك بعد ان يقطع النهر الجاري في وسطها بجسر كبير مبني من الحجارة الكبيرة

وهذه الحجارة الاربعة « Pedestals »هي مركز المدينة لانها تقع على مفرق بعض الطرق ويقع في شمالي الشارع العمومي بوابة الشام ولقد نقب عنها حديثا الماجور هورسفيلد Horsfield [1] وهي تشابه في هندسة بنائها بناء بوابة فيلادلفيا Philadelphia الواقعة جنوب الشارع المذكور

(و) : معبد أرتميس Artemis [2]

يحسب هذا المعبد من أعظم آثار جرش واروعها يقع على رابية تشرف على البلد من جميع نواحيه وهو على حالة لا بأس بها من العمران ويرجع هذا إلى عدم تأثر بنائه بحوادث الزمان كالزلازل والحروب . ويحيط به حائط أساسهُ لا يزال موجوداً . وجدران هذا المعبد استعملت في العصر المسيحي كمحجر لكثير من الناس . وتدل الحفريات الاخيرة ان العرب استعملت هذا المعبد حصناً ولقد تخرب هذا الحصن على أيام بلدوين الثاني Baldwin II في سنة ١١٢١ م وأعمدته الباقية في الجهة الشرقية منهُ لا تزال قائمة على ما كانت عليه والدهليز الذي تقع عليهِ هذه الاعمدة الفاخرة ظهر بعد ان نقبوا عنهُ سنة ١٩٣٠ . وكان يتعبد في هذا المعبد كثيرون من عبدة الاصنام ولكن لما جاءت النصرانية قلَّ عددهم وضعف شأنهم ولم يكن منهم الا ان يتركوا معبدهم للمسيحيين الذين استعملوا كثيراً من فسيفساء المعبد وحجارته فيما بعد في بناء كنائسهم

جرش والبعثات الأثرية

كانت جرش ولا تزال قبلة لكثير من السياح وكان بعضهم يأتيها على سبيل درس آثارها ومبانيها ومن أهم من قام بهذا العمل العالم الالماني Gothlieb Schumacher [3] شوميكر الذي تعد اعماله أساساً لمن جاء من بعده . وكذلك العالم Prechstein [4] فانه قام ببعض الحفريات للبحث عن بعض النقوش الخطية

---

(١) وهو من كبار الموظفين الانكليز في حكومة شرقي الاردن

(٢) راجع A Preliminary Report of Jerash Campaign 1931 By Dr Fisher & Dr McCown

(٣) مهندس ألماني كان يعيش في حيفا وكان يشتغل لحساب Palestine Exploration Fund

(٤) عالم ألماني جمع وقرأ النقوش الخطية التي وجدت على سطح الارض في جرش . ولكن بعد التنقيب الحديث تمكنت البعثات الحديثة من العثور على ما يزيد عن ٢٠٠ نقش خطي وهي مكتوبة على حجارة صغيرة وكبيرة في الحجم وأكثرها مكتوب باللغة اليونانية وقليل باللغة اللاتينية وأيضاً باللغة العربية

وعند ما احتلّ الانكليز هذه البلاد اشتركت حكومة شرقي الاردن وحكومة فلسطين وارسلتا بعثةً تحت رئاسة الاستاذ جارستانغ Prof. Garstang (أحد رؤساء دائرة الآثار في فلسطين سابقاً وأستاذ علم الآثار في جامعة ليفربول في الوقت الحاضر) لترميم عمارات المدينة ثم قام بالحفر بعد هذه البعثة الاستاذ كروفوت Crowfoot (وهو أحد رؤساء دائرة المعارف في السودان سابقاً) فرسم كثيراً من خرائط الكنائس والمعابد. أما البعثة التي قامت بعملية الحفر في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ فكان يرأسها الدكتور فيشر ممثلاً لمدرسة الآثار الاميركية في القدس بالاشتراك مع جامعة ييل Yale

وأهم ما قامت به بعثة سنة ١٩٣٠ كان ما يلي [١]

(١) التنقيب حول معبد أرتميس Artemis والعثور على دهليزه

(٢) الحفر حول بعض الاماكن التابعة لهذا المعبد

(٣) الحفر حول بعض الاماكن التي تلقي نوراً على تاريخ المدينة بوجهٍ إجماليّ

أما نتائج الحفر فكانت

(١) العثور على كثير من آثار العرب والبيزنطيين والرومان في هذه المدينة

(٢) العثور على فسيفساء جميلة ذات ألوان زاهية

(٣) العثور على بعض من القبور البيزنطية

(٤) العثور على معبد صغير على مقربة من معبد Artemis

اما نتائج ما قامت به بعثة سنة ١٩٣١ فكانت [٢]

(١) الحفر في «الميدان» forum والعثور على بيوت حجرية عربية يرجع تاريخها إلى سنة ١١٠٠ م

(٢) العثور على كثير من النقوش الخطية

(٣) إثبات أن الجهة الجنوبية من المدينة كانت اقدم محل فيها

(٤) التنقيب حول بوّابة فيلادلفيا وكذلك حول قوس النصر

(٥) العثور على ختم مكتوب عليه بالعربية «علي ابن ابي طالب» أما الخط فليس بكوفي وهو الخط الذي كان يستعمل في عهد الخليفة المذكور وعليه فلا يعرف تماماً ان كان هذا الختم هو الختم الحقيقي للخليفة الرابع أو انهُ كان لاحد عماله أو هو ختم مقلّد فقط. وهذه مسألة أتركها للمختصين بتاريخ العرب

داود . ت فيشر

---

(١) راجع المقال المكتوب عن جرش في Bulletin of the American School of Oriental Research No 43 Oct. 1931 by Dr. C. C. McCown.

(٢) راجع المقال المكتوب عن جرش في المجلة نفسها عدد ٤٥ في شهر فبراير سنة ١٩٣٢ . وايضاً راجع The Campaign at Jerash in Sep. & Oct. by Dr. C. S. Fisher

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

عمر فينيقية بمصر

اتيانها بالآثار الناطقة

آثار جبيل

اجمع المؤرخون وعلماء الآثار على ان علاقة فينيقية بمصر انما هي علاقة تاريخية قديمة العهد قائمة على اساس راسخ من المصالح المتبادلة بدليل ما وجد في غير مكان اثري من ساحل لبنان ولا سيما في جبيل المدينة الفينيقية الشهيرة من التحف الاثرية المهداة الى ملوك المدينة من فراعنة مصر وفي جملتها الآنية الخزفية التي استخرجت من مدفن اكتشف فيها سنة ١٩٢٢ وقد نقش عليها اسم امنمحات الثالث وخليفته (١٧٩٢ — ١٨٠٠) امنمحت الرابع . ومنها تحف اخرى وجدت في برين من القبور الخمسة التي اكتشفت هناك لامراء جبيل الذين عاصروا الفراعنة في تلك الحقبة وعلى هذه التحف كتابات هيروغليفية متقنة. ومما قاله المسيو مونته استاذ علم الآثار المصرية في جامعة ستراسبورج واحد اعضاء المجمع العلمي الفرنسوي في مصر وهو الذي عهد اليه معهد الآداب العلمي في باريس في التنقيب عن الآثار في جبيل : ان الآثار التي عثر عليها هناك تدل على ان لتاريخ جبيل علاقة وثيقة بتاريخ مصر ولا سيما من الوجهة الاقتصادية فان الفراعنة كانوا يعولون على جبيل في استيراد ما لا تنتجه ارض مصر من الاخشاب الصلبة والمواد الاولية الضرورية. والكتابات التي وجدت تدل على انهم جردوا الحملات منذ اربعة آلاف سنة في طلب هذه المواد ولا سيما خشب الصنوبر والارز والجوز والسنديان والخرنوب لانهم كانوا يصنعون منه الزوارق المقدسة وتوابيت الكهنة والاسوار الخشبية التي كانوا يقيمونها امام الهياكل . ويستوردون من جبيل السفن القوية التي امتاز الجبيليون بصنعها كما جاء في التوراة. ويستجلبون منها القطران لحفظ المومياات والقار لتحنيط الاجسام لاعتقادهم ان القار يجعل الاجسام الاهية غير قابلة للفساد. ومن اجل ذلك كانوا يطلون به تماثيل الملوك انفسهم كما يرى في تمثالي توت عنخ آمون وتمثال اوزيريس . والآثار المستكشفة تشير الى ما كانت مصر تعلقه من الاهمية على علاقاتها

الحسنة مع فينيقية ولا سيما مع جبيل . ويستدل من كتابة نقشت على مسلة موجودة في متحف تورينو بايطاليا ان سنفرو من السلالة الرابعة قصد الى جبيل وأخذ منها سفينتين مصنوعتين من خشب الصنوبر طول الواحدة مائة ذراع . وقد وجد في المكان الذي اقيم عليه هيكل ربّة جبيل عدة اوانٍ بينها تحف مهداة الى ملوك جبيل من بابي الاول وبابي الثاني وميكارينوس وهو الذي شاد احد الاهرام الكبيرة اي ان تاريخ هذه التحف يرتقي الى عهد السلالات المصرية الثلاث الاولى

ولم تقتصر علاقات مصر وجبيل على الوجهة الاقتصادية بل تناولت المسائل الدينية ايضاً بدليل ان المصريين اقاموا هيكلاً لآلهة جبيل في المدينة نفسها كما يتضح من الآثار التي استكشفت . ويستدل من التماثيل والنقوش في هذا الهيكل على ان بناءهُ يرتقي الى عهد السلالة المصرية الرابعة والى ما قبلها . وفي ذلك دليل ايضاً على ان الفراعنة لم يكرهوا الفينيقيين على انتحال ديانتهم . وقد وجدت كتابة منقوشة على آنية مقدمة الى الهيكل المشار اليهِ هذا تعريبها : « من اوناس المحبوب من الاله الشمسي الموجود على بحيرة فرعون » ومعنى ذلك انهُ محبوب من الاله المحلي اله جبيل . واوناس يزعم انهُ محبوب من هذا الاله كما هو محبوب من الشمس الاهة مصر الكبرى التي يمثلها هو . وفي ذلك دليل على ان مقدم هذه الآنية كان سائداً في جبيل كما كان سلطاناً على مصر . واما بابي الاول فانهُ رفع نفسه الى مقام اله جبيل عملاً بما كان متبعاً في العصور الخالية من اتخاذ الملوك بمنزلة آلهة متجسدة تحمي المدينة وبمنزلة الامثلة الحية للاله امون . ولذلك كانت تماثيلهم تزان برسوم ترمز الى سلطتهم السامية . والآثار التي وجدت في هيكل عشتروت المجاور لهذا الهيكل وذكره لوقيان تدل على مقدار السيادة التي كانت لفراعنة مصر على تلك المدينة ، وهذه الآثار وجدت تحت بلاط الهيكل . وهي تدل على انهُ شيد ما بين القرن الخامس والعشرين والقرن التاسع عشر قبل المسيح اي بين عهدي السلالة السادسة والسلالة الثانية عشرة . وقد تهدم مراراً وكان الرومان آخر من جدّد بناءهُ . على ان عهد بابي الاول في جبيل لم يكن زاهراً ولذلك اعرض الجبيليون عنهُ دلالة على زوال هيبة الفراعنة في تلك الحقبة من ارض الفينيقيين

واظهر ما يستوقف الانظار من الكتابات التي عثر عليها المسيو مونته ذكر ادونيس المتواتر في تاريخ جبيل مقروناً بذكر عشتروت . وقد وجد بين الآثار التي عثر عليها ملفا عليهِ حروف هيروغليفية يستدل منها على انهُ لاحد ملوك جبيل وقد ورد فيهِ اسماء الهة نيغا وهي الالهة التي تشير اليها الكتابات المنقوشة على الاهرام . وعثر في جبيل على رسم محنور يمثل اله البلاد والاهتها يعبدها فرعون . وفي ذلك دليل على ان الفينيقيين كانوا يعبدون الهاً والاهة اي ذكراً

وانني يظهر ان لها علاقة بادونيس وعشتروت وقصتهما مماثلة لقصة اوزيريس وايزيس الواردة في الكتابات الهيروغليفية بمصر كما قال فلوطرخس فان بطل الرواية في « قصة الاخوين » يشبه ادونيس ويسكن وادي نهر ابرهير يموت فيبعثه اخوه ثم يحول الى شجرة مثل اوزيريس وينقل الى مصر

وقد ألقى المسيو مونته في المعهد العلمي الفرنسوي في القاهرة في ٩ يناير سنة ١٩٢٣ خطبة قال فيها انه كان في جبيل اله الشمس والاهان آخران يحرسان المدينة وان فرعون مصر اعترف جهراً بانهُ صديق وابن هذه الآلهة كما انهُ ابن الاله « رع » . ومعزى ذلك ان هذا الملك ما كان يستطيع ان يطأ ارض فينيقية من غير ان يعترف بالاله . والخلاصة ان مصر اضطرت بحكم الحاجة الى انشاء علاقات ودية مع فينيقية لتتمكن من الحصول على ما كانت تفتقر اليهِ من محصولاتها ولاسيما الارز والصنوبر والسنديان والقار والقطران . وبسبب هذه العلاقات عرف المصريون ديانات الفينيقيين فنقلوا بعضها الى بلادهم واتحلوها

وقد نشرت التيمس الانجليزية رسالة للمسيو مونته ألقى فيها على خلاصة اعماله الاثرية في جبيل ومما جاء في هذه الرسالة ان ذكر جبيل ورد في ما كتب عن آلهتها التي كان المصريون يعبدونها او في ما كتب عن المحصولات والبضائع التي كانت مصر تستوردها من فينيقية نظير خشب الصنوبر والعرعر والارز والخرنوب والقلفونة والقار . واخذ المصريون عن الجبيليين صناعة بناء السفن لانهم كانوا في حاجة اليها لجلب البخور من بلاد العرب . ووجدت صورة بارزة تمثل احد الفراعنة ساجداً لاله جبيل وإلاهتها وعثر على معبدين احدهما مصري والآخر فينيقي وكان امام الاول اربعة تماثيل كبيرة وفي داخله تمثال للآلهة يكاد يكون سليماً . أما المعبد الفينيقي فلم يكن باقياً منه سوى البلاط المرصوفة به أرضه وقد وجدوا فيهِ كثيراً من التماثيل والحلي والكؤوس والاسطوانات واكثر الكؤوس كان مصرياً وعلى بعضها اسماء بعض الفراعنة نظير ميتارينوس واوناس وباني الاول وباني الثاني . وعثر على غرفة تحت الارض فيها ناووس حجري ضخم يحوي تحتهُ بينها كأس من الشبح مطرَّقة بالذهب وقد نقش عليها اسم امنمحت الثالث الذي ملك على مصر من ٨٥٠٠ الى ١٨٠٠ ق.م. وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٢٣ عثروا على دهليز صاعد من هذه الغرفة وجدت فيهِ كتابة هيروغليفية جاء فيها: «ان زو أحد امراء جبيل لم يرد ان ينشىء لنفسه مدفناً يدفن فيهِ وحده بل اراد ان يدفن مع والده ليرى احدهما الآخر كل يوم في العالم الثاني » . وعثروا في غرفة أخرى تحت الارض على كثير من الآنية الخزفية المطلية بينها كأس مصرية مصنوعة من حجر رمادي اللون وهي بديعة الصنعة وعلى غطائها كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : «من الاله الكامن الحي ان امنمحت الشمس الى خدمهِ دائماً» والمقصود بالخدم أهل جبيل . وحفة جواهر من الشبح على قواعد من الذهب وغطاؤها من الذهب

والسج وحوله أطار ذهبي منقوش على الاسلوب المصري وفي وسط الغطاء كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : «الآله الحي الكامل سيد البلادين ملك مصر العليا والسفلى معخر ورع المحبوب من تم الله هيو بوليس المعطاة له حياة ابدية كالشمس » . ومعخر ورع أحد الاسماء التي كان يعرف بها امنمحت الرابع الذي ملك على مصر من ١٨٠٠ الى ١٧٩٢ ق.م. وهو الذي ارسل هذه الهدية الى ابن ملك جبيل الذي انشأ الدهليز بين مدفن أبيه ومدفنه وقد ورد اسمه في كتابة هيروغليفية على سل منتفخ الاوداج يلتف حول مخصرة من البرونز وهذه ترجمتها: « صنع للامير ابي سخيمو المتوفي — امير جبيل ايب سخيمو ابي المعاد الى الحياة » .وفي ذلك ما يدل على ان الفينيقيين كانوا يستعملون الكتابة الهيروغليفية قبل ان استعملوا الكتابة المسمارية في مراسلاتهم السياسية بثلاثة قرون ولكن القلم الذي كانوا يكتبون فيه وقتئذ اقرب الى الهيروغليف الحثي منه الى الهيروغليف المصري

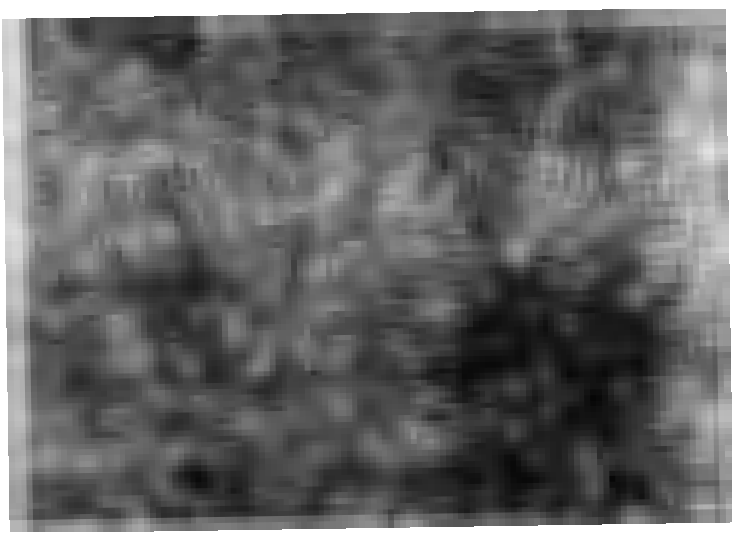

طوق من الذهب وجد في جبيل سنة ١٩٢٤

وعثروا في مدفن ثالث على تابوت خشبي مزخرف بالقيشاني والذهب وعلى آنية من الخزف بينها مخصرة من البرونز وطوق من الذهب بديع الشكل يماثل الطوق المصري المؤلف من عقود لؤلؤ معلقة بين رأسي باشقين من الذهب مع هذا الفرق بين الطوقين وهو ان العقود ابدلت بصقر باسط جناحيه ويحمل في كل من رجليه خاتماً ذهبياً يرمز الى تجدد الحياة وخلودها . وهناك مدفن رابع عثر فيه على آنية خزفية مزخرفة مع قطعة من انا البستر نقش عليه بالهيروغليفية ما ترجمته . « الى نفس الامير الشريف شيخ الشيوخ أمير جبيل المعاد الى الحياة»

وهناك كثير من التحف الأثرية الثمينة وجلها آتية من الفخار وشارات منكية واسلحة عليها كتابات هيروغليفية مهداة من الفراعنة الى ملك جبيل وحرار ودلاء وتحوت وانطاق من الخزف والبرونز وآتية من الرخام عليها كتابات هيروغليفية وقطعة ذهبية تمثل مرتين الملك جالساً امام العقر وهو شعار فراعنة مصر وسدانية ذهبية وحجارة كريمة وخاتم من الذهب وخنفسة من الحبشة وعقود من اللؤلؤ والبلور وسوارات ذهبيان وصولجان من خشب وذهب عليه شعار من الفضة يمثل الشمس وسارح من البرونز بقبضة ذهبية وخنجر ذهبي وعصا من ذهب وخشب وصولجان من البرونز وكما ان احداها من ذهب والاخرى من حجر وطاسة من الفضة وانا من العظم فيه مسامير من الذهب ورصائع ذهبية وقبضات اسلحة

وعثر بالقرب من جبيل على مدفن يرتقي تاريخه الى عهد رعمسيس الثاني في القرن الثامن ق.م. وجد في أحد غرفه فاووس عليه كتابة فينيقية هي اقدم ما وجد من نوعها حتى سنة ١٩٢٥. وقد اكبر علماء الآثار قيمتها لما يتوقعون ان يكون لها من الشأن في تاريخ الاقلام الفينيقية التي لم يستطيعوا الى اليوم ابداء رأي فاصل فيها وهذا علاوة على ما ينتظر ان يستخرجوا من الكتابات التي وجدت في هذا المدفن من الحقائق التاريخية الهامة التي تصلح اساساً لتعيين العلاقات القديمة بين مصر وفينيقية تعييناً جليًّا واضحاً

وقد عثر احدهم في جوار جبيل على تمثال ذهبي صغير طوله ٨ سنتيمترات يمثل امرأتين معريتين واقفتين وعاريتين من الملابس ويبدو ان منهما منبعطتان على ركبتيها وقد برزت اثداؤهما وفي موضع الحلمة من كل ثدي حجر كريم وهو مرتكز على قاعدة تدلت من اسفلها حلقة مربوط بها حجر من السيلان . وهذا الحجر معروض الآن في المتحف اللبناني

وفي شهر مايو سنة ١٩٣٢ نشر مدير المتاحف في لبنان بياناً باكتشاف عثر عليه في جبيل من آثار الاقدمين والتحف الأثرية النادرة فقال ما يؤخذ منهُ ان اعمال الحفر وصلت الى الهيكل الفينيقي الذي يرجع عهد انشائه الى القرن الثامن عشر قبل المسيح وقد عثروا فيه على آثار ثمينة هي اقدم ما اكتشف من نوعها حتى الآن . من هذه التحف فأس من الفضة وثلاثة فؤوس من الذهب الخالص مثلث على [illegible] وكلها في غاية الدقة لم يعرف لها مثيل في تاريخ فينيقية ونصال وقبضات من الذهب يتركب منها ثلاثة خناجر واحدى هذه النصال مزدانة برسم رجل فينيقي يركب حماراً وقد تقدم امامه يسوقون سعادين وأسداً وماعز. وقبضة ذهبية كسرجفت دقيقة الصنع. وعدة اسطوانات ذهبية وفضية صغيرة دقيقة الصنع. واربعة تماثيل من البرونز المطلي بالذهب محفوظة حفظاً جيداً واكبرها يبلغ طوله ٣٥ سنتيمتراً ويمثل شخصاً واقفاً وعلى رأسه قبعة كالبلوطة . وشخص يمثل ابي الهول — السفنكس — طوله ١٢ سنتيمتراً من الشبه (البرونز) المطلي بالذهب »

آثار صيدا وصيداء

وهناك تحف اثرية اخرى بالغة منتهى الجمال والدقة في الصنعة وجدت في السنوات الاخيرة سواء كان في جبيل او في سواها من المدن الفينيقية اللبنانية ولا سيما في صور وصيداء حيث وجدوا عدة نواويس حجرية ورصاصية عليها نقوش جميلة وصور حيوانات وحشرات ممثلة بأشكال متنوعة . وهناك تحف اثرية اخرى بينها آنية من ذهب عليها كتابة هيروغليفية وثلاثة تماثيل وجدت بين صور وصيداء احدها محطم والثاني بشكل جذع او مذبح للتضحية والثالث بشكل سمكة وبالقرب منها تابوت من الرصاص موضوع في ناووس من الرخام منقوش عليه رسم ابي الهول . ووجدوا في قرية صانوي بجوار صيداء اربعة نواويس من المعدن وناووساً من الرخام وجرتين من الخزف عليها كتابات هيروغليفية وزهرية خزف وقطعتين من الذهب تمثلان صولجاناً وعدة قطع ذهبية اخرى . وعثروا في قرية كفر جرة التابعة لصيداء على مدفن قديم فيه كثير من التحف الاثرية الثمينة بينها آثار مصرية ترجع في تاريخها الى القرن السادس ق. م. وهناك تحف اخرى وجدت في مدافن فينيقية في تلك البقعة يرتقي عهدها مع آثار كفر جره الى عصر القضاة او الكهنة اي الى الحقبة الفاصلة بين عهدي الاسرتين المصريتين الثانية عشرة والثامنة عشرة وتتناول خمسة قرون تبتدىء في القرن الثامن عشر وتنتهي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وبين الآثار التي وجدوها هناك تحف نفيسة مماثلة للتحف التي عثروا عليها في مدافن الاسرائيليين في فلسطين وبينها كثير من الجرار من حجر الجشت والحجر الكلسي . ووجدوا هناك مدفنين آخرين يرتقي تاريخهما الى عهد الكهنة وعثروا فيهما على رياش فاخر في جملته آنية خزفية وآنية من البرونز وخناجر ونبوس ونصال وجرار وطابع بشكل عمود وغير ذلك

ومما لا ريب فيه ان الآثار القديمة التي لا تزال مدفونة في هذه المنطقة الساحلية لتضارع في عظم شأنها آثار جبيل ولو ان هذه المدينة ذات مكانة خاصة للصبغة الدينية التي كانت لها في ما سلف من الدهر . ونحن في غنى عن القول ان ما استكشف الى اليوم من آثار الاقدمين ولا سيما آثار الفينيقيين في تلك البقعة الساحلية الممتدة من صور الى اللاذقية انما هو عشر معشار ما هو مدفون في ارضها من الكنوز الاثرية التي لو عني باستخراجها وادخارها كلها في المتحف الوطني اللبناني الذي انشىء خصيصاً لها لكانت ثروة عظيمة للبنان وأثراً تاريخياً جليلاً يحدث العالم بحضارته القديمة الممتازة التي كان المسيو مونته آخر من قال فيها : «انها تضارع حضارة مصر وكلدية »

تعلم اللغات الاجنبية

بقلم جريدة بعولة

«كل لسان انسان» كذلك جرى المثل العربي القديم. اما وأبناء العالم المتمدن اصبحت مرتبطة اوثق ارتباط بوسائل المواصلات والمخاطبات السريعة وبعملات التجارة المتبادلة، فهذا المثل العربي القديم اصبح ضرورة يقتضيها العصر الحديث

فالمسافر الذي يرحل الى بلاد لا يعرف لغة اهلها تمرُّ امامهُ مشاهد الحياة والعمران كما تمرُّ امام عينيهِ على شاشة الصور المتحركة من دون ان يتنبه الى كنهها، ولكنهُ اذا كان يعرف لغة القوم تمكن من التفاعل مع نفسياتهم فيتحدث معهم بما فيتكشف لهُ الحديث عما يساورهم من آمال وآلام، ويستطيع ان يقرأ ادبهم فيتسع افق نظره الى الحياة بل يصبح قادراً ان ينظر الى الحياة والعمران بعيونهم فكأنهُ يضيف بذلك حياة جديدة الى حياتهِ فيصدق عليه المثل العربي «كل لسان انسان». ثم اذا كان من رجال المال والاعمال سهل عليهِ ان يتصل بعملائهِ في البلدان المختلفة، من غير ترجمان او وسيط، فيتحدث معهم بلغتهم، ويبلغ في حديث ساعة من هذا القبيل، ما لا يبلغهُ في مراسلات يتبادلها معهم بالبريد في خلال اسابيع او شهور؟

يضاف الى ذلك ان معرفة الانسان بلغة قوم غير قومهِ، واطلاعهُ على أدبهم وفلسفتهم يمهدان لهُ سبيل فهمهم على ما هو حقيقة، فلا تذهب بهِ الاوهام والتصوُّرات في تعليل ما يقولون ويفعلون «كلٌّ مذهب». وهذا التفهم مهمة الوفاق الدولي، الذي ينشدهُ العالم في المؤتمرات العالمية من اقتصادية وسياسية وحربية. وقد ذكر ان برهان داعية السلام في القرن العشرين قال على اثر اتفاق لوكارنو: «لقد تكلمنا لغة اوربية وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها» اشارة منهُ الى انهُ تفاهم بين شعوب القارة

فتعلُّم اللغات الحيَّة واجبٌ على ابناء هذا العصر سواءٌ نظرنا اليهِ من ناحية الثقافة الشخصية او من ناحية المنفعة العملية او من ناحية التفاهم الدولي

***

والطريقة المثلى لتعلُّم اية لغة اجنبية يجب ان تتصف بالصفات الآتية: —

يجب ان تكون مما يمكن استعمالهُ في حضرة درس او مدرسة خاص، كما يجب ان تكون مما يصلح للاستعمال في فرق التدريس، جاريةً على احدث ما عرف في علم التربية من وسائل درس اللغات

ويجب ان تمكن المتعلم من التحدث بها في موضوعات الحياة اليومية مع معرفة ما تجب معرفته من قواعدها بوجه عام ليكون الكلام بها سليماً من الخطإ المزري

ثم يجب ان تمكن المتعلم من التفكير باللغة نفسها مباشرة لانه اذا فكر بلغته الاصلية وجب عليه ، لدى المحادثة ان يترجم الكلام لفظاً لفظاً وعبارة عبارة ، فلا يسلم حينئذ من العجمة علاوة على التردد والتعثر في اثناء الكلام

يضاف الى كل ذلك ان طريقة التعليم يجب ان تمكن المتعلم من النطق باللغة كابنائها وبلهجتهم فاذا خاطبهم بها لم يحسب بينهم غريباً

* * *

قرأنا منذ بضع سنوات كتاباً للكاتب الانكليزي المشهور المستر ولز (H. G. Wells) عنوانه « خلاص الحضارة » عرض فيه ، في فصل مسهب لمشكلة التعليم والطرق التي يجب ان تتبع لكي يخرج المتعلم كامل التعليم مثقفاً مهذباً يصلح ان يعيش في عالم يقتضي الترابط بين اجزائه التفاهم التام بين طوائفه وشعوبه . وفي الصفحة (١٦٠ — ١٦١) قال ما يأتي في تعليم اللغات : —

« ان المدرسة الحديثة يجب ان تحتوي على عدد كبير من الجراموفونات . ولكنها لا تستعمل في تعليم الموسيقى والتمرينات الرياضية فقط بل في تعليم اللغات كذلك . فبدلاً من ان يضطر معلم اللغة الى التظاهر بانه يجيد اللغة الاجنبية التي يدرسها لتلاميذه ، وهو لا يعرف الا مبادئها ، يصبح عوناً لاداة التعليم الكاملة — وهي الجراموفون ..... وفي السنة الاولى من تعلم اية لغة اجنبية يسار المعلم اقراص الجراموفون فيتعلم التلميذ منها اللهجة السليمة والنطق الصحيح . وتدرس كل لغة في مختلف اقطار العالم بلهجة واحدة ومقدار واحد من المصطلحات — وهو عمل مرغوب فيه »

كانت امنية المستر ولز مقدمة لاستنباط الطريقة الجديدة في تعلم اللغات التي جعلناها موضوع هذا المقال . فان للمستر وُسْتُن تدبُّر امنية المستر ولز بعد ما عالج تعليم اللغات خمساً وعشرين سنة وخبر نقائصه ومقتضياته فخطر له ان يحقق هذه الامنية فانشأ طريقة اللنجوافون

وأساس هذه الطريقة ان من يرغب في تعلم لغة اجنبية يجب عليه ان يتعلمها كما يتعلم الطفل الكلام . فان الطفل يصغي اولاً الى من يتكلم حوله فتختزن ذاكرته الاصوات ومعانيها ، فاذا نضجت اعضاء النطق فيه نطق بالالفاظ كما سمعها من والديه واخوته وغيرهم ممن يحيط به . فجاء المستر وستن بأستاذ انكليزي فوضعا ثلاثين درساً انكليزياً تتناول موضوعات الحياة اليومية ووضعا لكل درس صورة تحتوي على الاشياء المذكورة في الدرس . ثم جعل الاستاذ ينطق

بالجمل التي في الدرس ، بما هو مشهور عنهُ من سلامة اللهجة وفصاحتها ودون ذلك على قرص من اقراص الجرامرفون . وطبعت الجمل في صفحة من كتاب امام الصورة . وفعلا ذلك في بقية الدروس . وهذه الدروس مفسرة بلغة كل طالب الخاصة . فهي مفسرة بالالمانية للالماني وبالفرنسية للفرنسي

فاذا شاء رجل ان يتعلم الانكليزية أخذ هذه الاقراص التي دوّنت عليها الدروس المختلفة ، ووضع القرص الاول على الجرامرفون وأداره وجلس يصغي اليهِ . وهو ينظر الى الصورة . فيتدرع عليهِ اولاً ان يتبين الالفاظ ومقاطعها . ولكنهُ يعيد الكرة على القرص نفسهِ ثانية وثالثة ورابعة حتى ترسخ الالفاظ في ذهنه . وهو في اثناء ذلك ينظر الى الصورة فيربط بين الاسماء ومسمياتها . فيتعلم اللغة الاجنبية كما يتعلم الطفل لغة والديهِ

ثم ينتقل الى الدرس الثاني فالى ما يليهِ وهو في خلال ذلك يزداد تثبتاً للالفاظ ومقاطعها ، وفهماً لمعانيها ، فاذا حاول بعد بضعة دروس ان يقول جملة باللغة الجديدة التي يتعلمها قالها بداهةً بلهجة ابنائها من دون ان يعمد الى ما يريد ان يقولهُ ثم الى اختيار اللفظ الموافق لهُ ثم الى التفكير في بناء الجملة بحسب القواعد المرعية

هذه هي الفكرة التعليمية التي تقوم عليها الطريقة الجديدة . وقد جرّبت فوقت بالغرض المقصود ايّما وفاء . وهي تستعمل الآن فيما يربي على ٨٠٠٠ مدرسة في انكلترا والمانيا والسويد والنرويج وفرنسا وغيرها . وشهد لها كبار الادباء والمعلمين بالفائدة التي تجنى من استعمالها . وقد قرأنا عن فتى كان يتعلم في المدرسة بلندن اللغة الاسبانية وكان يستعين على تعلمها بطريقة الفنجرافون في داره ، فلما جاء الممتحن الاسباني الى لندن ليمتحن الطلاب ، عجب لهجة هذا الفتى الاسبانية وسألهُ في اية مدرسة من مدارس اسبانيا درس اللغة الاسبانية

***

ولما وثق المستر رستن من وفاء هذه الطريقة بالغرض التي انشئت لهُ استعان باكبر اساتذة اللغات في البلدان المختلفة لوضع دروس في اللغات المختلفة فثمة دروس انكليزية لابناء الالمان والفرنسيين وغيرهم وثمة دروس فرنسية لابناء الانكليز والالمان والايطاليين وغيرهم ودروس المانية لابناء الفرنسيين والانكليز ودروس ايطالية واسبانية الخ والمعهد سعيٌ الآن بوسم الكتب والدروس اللازمة للناطقين بالعربية

واذا كان ثمة من يعرف لغة من اللغات واراد ان يتوسع في ادبها وجد اقراصاً في بعض اللغات وقد دوّنت عليها قطع ادبية مختارة كما يتلوها افصح الفصحاء ، والى جانبها كشف يفسّر ما غمض منها . فالطريقة مستكملة للشروط التي يجب ان تتوافر في تعليم لغة اجنبية وعندنا انها من افضل ما ينفق فيهِ المثقفون جانباً من اوقات فراغهم

الفيلسوف سبينوزا

على ذكر الاحتفال بانقضاء ٣٠٠ عام على ولادته

من كتاب « الفلسفة في كل العصور »

انتهيت من تأليف هذا الكتاب معتمداً بضعة عشر مؤرخاً للفلسفة من اشهر رجالها ، في اوربا واميركا ، كاردمن ، وتلي ، ولوس ، وزرز ، وماركس ، وجانيه وسيال وغيرهم وبعد انجاز تأليف اسعدني الحظ برعاية طائفة من اساتذة الفلسفة ومساعدتهم لي اء سفراً نفيساً مضبوطاً سهل المأخذ وافياً بالمرام في تاريخ الفلسفة وزعمائها ، ومذاهبها ، وتطورها ، وعصورها وتتمة لرغبة المقتطف تقدمت له المقالة التالية في « سبينوزا » سادس خمسة هم اساطين الفلسفة في كل ادوارها وهم : افلاطون . ارسطوطاليس . ديكارت . لينز . كنت : والسادس « سبينوزا » والكلام فيه مقسم الى ثلاثة اقسام ، هي ترجمته ، وفلسفته ، ورأيه في الخلاص

(١) ترجمته

ولد « باروخ سبينوزا » بامستردام هولاندا ١٦٣٢ . وهو من اصل يهودي برتوغالي . هذّبهُ الربّاني « موسى اوتيريا » ، وهو مفكّر يذكرنا بأتباع « ابن ميمون » المدرسيين ويرمي الى التوفيق بين الفلسفة والديانة اليهودية

رفض « سبينوزا » شرح التوراة بحسب فلسفة « ارسطوطاليس ». وارتقّا «بابن عزرا» وقد قرأ الأدب الجرماني على الطبيب « فرنزفان دن اند » وهو زنديق شهير ، والطبيعيات على الطبيب « لودويغ ماير ». وحرّمهُ المجمع الاسرائيلي سنة ١٦٥٦ ، فلم يكلمهُ احد حتى ولا شقيقته ، لانهم حسبوه كافراً . فلاذ برجل يدعى « بريفنبرجر » . وبرح امستردام الى الهاي . وعاش مع « فندريسبيك » [اردمن]

ولم يؤلف شيعة ، على ان كل فلسفة بعده ممتزجة كثيراً او قليلاً بافكاره . وكان الجيل الذي تلاه ينبذ نبذ الحذاء المرقّع .لكن « لبنغ » ردّه الى شهرته .فدهش « جاكوبي » من كون « لبنغ » سبينوزيًّا ، ولا فلسفة عنده الاّ فلسفة « سبينوزا »

ثم وجّه « هردر » الانظار الى كتاب : الاخلاق : اشهر مؤلفات سبينوزا ، ولقّبهُ « شليرميخر » : بالقديس المحروم ، ودعاه احد الشعراء : الانسان النشوان بالله ، ثم لفت « جاكوبي » اليه نظر شاعر المانيا العظيم « جيته ». فقرأ هذا كتاب « الاخلاق» فوجد فيه الفلسفة التي تصبو اليها نفسه . فارتقى باعتناقها من الغرام الهمجي ، الذي ساد اشعاره ، الى ذرى الشعر الفلسفي . و بلغ « فخت » « وشلنغ » و« هيغل » مذاهبهم المنوّعة في « الوحدة الكون » بمقارنتهم فلسفته بالستموئوجيا (فلسفة المعرفة) كنت

وقد تولّدت : ذاتية : فلسفة « لبنغ » من عبارة« سبينوزا »الشهيرة : حفظ الكيان: وكذلك شعار فلسفة كلٍّ من المفكرين «شوبنهور» و«نيتشه» وبرغسن . فشعار الاول: الارادة.

والثاني : القوة . والثالث النشاط . وعلا قدر «سبينوزا» في انكلترا مع انتشار الثورة . وترجم «شلي» رسائله في : الدين والسياسة . و «جورج اليوت» كتابهُ في الاخلاق . ومات سنة ١٦٧٧ . وفي القرن الثاني بعد وفاته اقاموا له في هرلاندا نصباً عديم المثال «دوزانت»

(٢) فلسفته

«سبينوزا» تلميذ «ديكارت» من حيث المنطق والمنهج . الاّ انهُ سار بمذهب «ديكارت» الثنائي الى تأليهِ الكون : معتمداً على اسناد «ديكارت» التصوُّرات الى الله . ويتناول تفكير «سبينوزا» ثلاثة موضوعات : الله والطبيعة والانسان ، او الجوهر وصفاته وصيغتهُ جانبه وبيان

﴿ الله ﴾ : الله اول الفلسفة وآخرها

قسم «سبينوزا» الكون الى قسمين متمايزين مجموعهما الله . وكانت فلسفته خاضعة الى مذهب «ديكارت» بحذف الله من الكون ، كانهُ لا صلة له تعالى به . واساس ذلك عنده ماهية الكون ، التي بها تتلاشى الاشياء . ونقطة تفكيره هي : ان الاشياء المحدودة وهمية

غرض الفلسفة عند «سبينوزا» الهرب من عالم الظاهرات ، التي لا تهب سعادة حقيقية ، واحراز النعمة التي يهواها العقل والقلب ، ولا يدانيها تغيُّر وهي وحدها الجديرة بمحبتنا ، لانها وحدة الكون السرمدية ، التي تضمُّ في ذاتها الاشياء الفانية ، وتهب لها اليقينية . وبلغة دينية هي — الله — فعوض استبداله تعالى من الاشياء ، اذا هو هي . فقادنا نتصها الى كماله . فان الفلسفة تتناول الواحد اليقين ، لا الاشياء الفانية

(المؤلف : لكي نفهم فلسفة «سبينوزا» نرجع الى الميتافيزيقا التي يعتمدها واليك بيانها)

الجوهر والصفات والصيغ : تندرج كل حقيقة تحت ثلاثة رؤوس : الجوهر ، والصفة ، والصيغة

الجوهر : وهو ما وجد بذاته (دون استناد الى آخر) ، وفهم بذاته (دون افتقار الى ما سواه)

الصفة : هي ما صاغها الفهم كلباب الجوهر ، او خلاصته

الصيغة : او تطور الجوهر : هي ما قام بغيره ، وفهم به

فالجوهر واحد ابداً . لان المادة والعقل (وهما صيغتان) يقومان بالله ، لا بذاتهما . والماهية واحدة ، ازلية ، غير محدودة ، هي مناط الاشياء كافة . اما الصفات فلباب تلك الماهية ، والاشياء تغيرات الصفات او تطوراتها ، وهي فانية . وان علاقة الله بالكون طبيعية ، لا منطقية

﴿ الصفات ﴾ : صفات الله لا تحصى عدداً ، لكننا نعرف منها اثنتين فقط ، هما : الفكر والامتداد . فالفكر يحرك المادة ، والمادة تثير الفكر ، فهما متفاعلان . وبينهما تمام المطابقة . فكل صيغة فكر ، هي صيغة امتداد . ولما كان لا تداخُل بين الفكر والامتداد فالفكر يتوضح بمنهج فكري ، والامتداد بصيغة مادية ؛ فلا لبس بينهما . وسواء نظرنا الى الطبيعة بالفكر او بالامتداد فالنظام ، او ترابط العلل ، واحد

الله علة تصورنا الدائرة في العقل (هذا هو الفكر) وهو ايضاً علة وجود الدائرة في الطبيعة (هذا هو الامتداد) . فقد انشأ تعالى الصورة في فكرنا بصفته الفكرية ، وأوجدها في الطبيعة بصفته الامتدادية (المؤلف يعني «سبينوزا» ان الفكر والامتداد صفتا الجوهر)

الله العلة الاولى لكل الاشياء وهو تعالى كنهها ، ولباب وجودها . فالذين نسبوا القصد الى الحوادث الجزئية برهنوا على جهل مطبق . فاذا سقط حجر من علو ، فاصاب احداً فقتله قالوا ان الحادث فعل غائي ، اراد به الله ان يقتل ذلك الانسان . على انه ليس من غاية في الطبيعة . واعتقادنا القصد فيها مبني على تأنيسنا الله . فنعزو كل حادث اليه تعالى عزواً مباشراً . ونبحث في قلوبنا عن قالب نسبك الله فيه ، ناسبين اليه تعالى اشكال تقصتا . لذا نرى آلهة الناس تدير الطبيعة خدمة للانسان . فيختار كل واحد طريقاً خاصاً لعبادة الله ، الذي ميزه عن سواه ، ووفّق مصالحه . فيصير التميز خرافة سائدة متأصلة في النفوس . على هذا الاساس يجدّ الناس في استجلاء الغاية النهائية . فلا يرون في الحرب والزلازل والاوبئة ضرراً . وبالرغم من تكذيب حوادث كل يوم اوهامهم ، مبينة ان الخيرات والشرور تصيب الاخيار والاشرار سواسية ، نرى الناس لا يقلعون عن وهمهم

على ان شهادة الطبيعة صريحة ضد وهمهم . فان حرارة الشمس تكون خيراً في حال وشراً في حال آخر . وكذلك بلة المطر . وقد تكون هذه وتلك لا خيراً ولا شراً ، كالموسيقى فهي خير للسرور ، وشر للحزين ، وليست هذا ولا ذاك للاصم . فالذين لا يفهمون الطبيعة فهماً صحيحاً يحكمون ، وهماً ، بانتظام الاشياء ، فالمتحبّ عندهم منتظم ، وغيره فوضى . ويؤثر المرء نسبة النظام الى الطبيعة ، قائلاً : عمل الله كل شيء حسناً

(على ان النظام في عقولنا لا في الطبيعة) وكذلك الجمال محصور فينا ، في اختبارنا وفي حكمنا . فلا يجوز ان ننسب لله تعالى كالذي في الانسان . فاذا كان لله عقل وارادة فهما خلاف ما للانسان . فبماذا نصفه تعالى ؟ وهو اكثر من جوهر مجرد ! ... (روبرس)

(٣) الخلاص

﴿ الاستعباد الانساني ﴾ : نحن في ثورة عواطف ، لنقص محبتنا وتقلّبها ، لاعتمادنا الاشياء المتغيرة المستقبلة ، دون الثابتة . فنحب ونبغض ، ونفرح ونحزن ، ولا ندرك السلام . فنحن عبيد العاطفة والجهل اللذين يقيّدان الناس . فاذا لم يكن للانسان يقينية في نفسه فكل جهوده عبث

حين يتوقف حفظ الذات علينا قلنا «فعل» . وحين يتوقف على خارج عنا قلنا «شوق» . فما هو اساس الفرق بين الافعال والاشواق ؟ يرجع الجواب عن ذلك الى الصفات والصيغ . فاننا اذا اعتبرنا ظاهرات معرفتنا العالم ، في احوال وجودنا ، قلنا « صيغ » . . . فنحن نظن اننا قد تحسسنا العالم الخارجي لم نتحسّس الا شعوراً ، نتج عن التفاعل بين الموضوع وبين حواسنا

باعتبار كونه ناتجاً عن فاعلين فهو (اي الشعور) يمثل احدهما (التحسس الاشياء). وهذا هو تعليم نسبية الحس ومرجع هذا التعليم «بروتاغوراس». فمعرفتنا الحسية ناقصة وغير مطابقة

وهنالك طريقة اخرى لاعتبار العقل الانساني. فانهُ عدا كونهِ فانياً، هو قسم من طبيعة الله. بناءً على كون كل موجود كائناً في الله. فتصوراتنا، في جوهرها وابعد حدودها، ازلية. فهي مطابقة. فيرجع الفرق بين الافعال والاشواق الى الفرق بين الافكار المطابقة والافكار غير المطابقة. فالاولى كائنة في الله، والثانية فينا. الاولى أفعال، والثانية اشواق

والعواطف تصوُّرات ملتبسة او شهوة. والشوق الذي في النفس الى درجة عالية من الكمال هو «لذة» وبالاشارة الى اللذة والالم يجب تحديد العواطف على الصورة الآتية

المحبة لذة يصحبها تصوُّر خارجي: البغض ألم يصحبهُ تصوُّر نجس

الرجاء لذة غير حاصلة، ونشأت عن تصوُّر شيء مستقبل وهكذا

فلامتلاك الحرية جانبان (١) الهرب من العواطف (٢) الهرب من التصورات غير المطابقة. والفعلان واحد. فالنعمة الحقيقية هي المعرفة الصحيحة (سقراط) واعظم خدمة للحياة هي تكميل الفهم والذهن بشبع النفس الناشيء عن معرفة الله وصفاته واعماله. فالخير ما قاد الى المعرفة. والشر ما طمس معالمها. فقوتنا فهمنا. وضعفنا جهلنا. وليس البغض وحده رذيلة، بل ايضاً الجبن، والخجل والقلق، وجهلنا قدر انفسنا. فمن عاش بحسب الذهن يترفع عن الرأفة والخنوع، ويتقابل الحياة بصدر رحيب، ولا يطيع سوى وجدانه. فالحرية ثمرة الفلسفة

يزعم الناس انهم يفعلون احراراً، لانهم عن وعي يفعلون، كالطفل اذا جاع فانهُ يأكل، وكالجندي في الجبهة، فانهُ يجاهد. وقد فاتهم ان الحافز هو وراء الافعال. وان كل الافعال ثمرة الضرورة الالهية (للتحكمة في الوجود: فالانسان مسيَّر يتوهَّم انهُ مخيَّر) فعلى المرء ان يفهم تلك الضرورة، لا أن يحاربها

متى رأينا الاشياء في الله، مرة واحدة، زالت المعاكسات فينا. فمصدر الالم حسّنا ما لا سبيل لنا الى الحصول عليه. فلا يشتاقنَّ المرء الاّ لما هو في متناول يده. فالقوَّة تظهر المعرفة وتعيّزها. ومعرفة الله تتغلَّب على العواطف. وبذلك تستولي على العقل محبة ازلية. ذهننا حر من الحواجز، لانهُ قسم من الاله غير المحدود. «حقائق الاختبار كحقائق البديهة — كلها — مستمدة من الحقيقة الواحدة — الله. عن هذه المعرفة ينشأ شبع النفس. وكلما زدنا معرفة زدنا خيراً وبركة وحبًّا لله. وهذا الحب هو حب الله ذاته فينا

يتلخص تعليم الحرية في القواعد الآتية: — ١: العمل بحسب ناموس الله، والاشتراك في طبيعته. ٢: صرف النظر عما ليس في الحول ٣: عدم البغض او احتقار الآخرين او حسدهم الخ. ٤: معرفة الامة كيف تحكم وتحكم، كاحرار لا كعبيد (روجرس)

يمثل سبينوزا ارقى صورة للاخلاق واقسام مذهبه هي: —

١ الله ٢ اصل العقل ٣ اصل العواطف وطبيعتها ٤ قدرة العقل او الحرية الانسانية

﴿الله﴾ : اذا كان الجوهر مستقلاً فهو غير محدود . فلا يكون في الوجود الا جوهر واحد. ولا يوصف الجوهر باوصاف الشخصية أو الفردية ،لان تلك الاوصاف مختصة بالمحدود

الله والطبيعة واحد . هو المبدأ الفياض في الكون — الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة وعبارته اللاتينية هي هذه Natura naturans et natura naturata

﴿الصيغ﴾ : هي اشواق الجوهر وتطوراته . فلا تدرك الا فيه

الانواع سرمدية ، والافراد بائدة (افلاطون) يتجلى الجوهر الازلي بطرق لا تحصى في نظام التطورات ، وفي نظام الاجسام . فمجموع التطورات هو العقل المطلق ، غير المحدود. ونظام الصيغ هو حركة وسكون . والاتفاق معاً مجلى الكون . وهذا الخير سرمدي ، الا ان تتمة تتغير . فالطبيعة جسم عضوي (كبير جداً) تتغير صوره وتظل ذاتيته . فاذا رمنا ان نصور الله بصورته الازلية فهو : صفاته غير المحدودة . واذا رمنا ان نتصوره في الزمان فهو الكون . فالله هو الكون

منهج «سبينوزا» الرياضي دليل تأثير «ديكارت» فيه . فاليقين الرياضي والفلسفي واحد. لأن الادلة الرياضية جلية بطبيعتها ، فلا يسلم سبينوزا بالغاية في الكون ، اذ لا غاية في الرياضة . وعنده عوض الغايات تعليلات . فان الفضاء علة الاشكال الهندسية ، بل هو شرط وجودها الضروري . فهي غير ممكنة من دونه . وواضح ان ليس هنالك غاية

فنقطة شروع «سبينوزا» مضمون الكون المنطقي ، لا علة الاشياء او خالقها . والله عند «سبينوزا» الطبيعة . فمن اراد ان يفهم فلسفته فليبدل كلمة (الله) حيث وجدها (بالطبيعة) فهو مراده. وتصور انعدام الصيغة ممكن، لانها بالجوهر تقوم. أما تصور انعدام الجوهر فمستحيل، لانهُ بذاته يقوم (فهو واجب الوجود) وبه تقوم الصيغ . فالازلية مختصة بالجوهر . هو الوحدة الشاملة . والصيغ جزئية هو مجموعها ، يؤلفها ولا تؤلفه . كالامواج بازاء البحر وكالمربعات الصغيرة في المربع الكبير. فقد كان قبلها ويبقى بعدها . الا ان الامواج لا توجد دون البحر ، ولا المربعات الصغيرة دون السطح الذي هي عليه

الانسان مؤلف من صفتين — الفكر والامتداد — فالانسان في الله غير [illegible] لان الله ليس [illegible] من ليس الانسان جسداً ، فقط ، ولا ارادة كذلك . لان الاول امتداد ، والثاني فكر . فهو مجموع الاثنين . وقد تكون كلمة «طبيعة» اكثر انطباقاً على الامتداد غير المحدود . فالله والطبيعة ، لفظان يعربان عن الفكر والامتداد ، وهما نعت الكائن . الجوهر شرط ، وكل موجود شرطي. فامتداد الجوهر شرط الطويل، وفكره شرط التفكر. الاول اساس الدائرة في الطبيعة والثاني اساس تصورها في العقل. الجسم مؤلف من ذرات ، والعقل من تصوراته . اردنا

باب الزراعة والاقتصاد

نظرات في الحالة الزراعية

للمستر جاردنر وزير الزراعة الأسبق في مصر

المستر وليم جاردنر وزير الولايات المتحدة المتوفر في شبكة المصرية من اعلام الاميركيين الذين جمعوا الى الاشتغال بالسياسة العلم الغزير والخبرة الطويلة في ميدان الزراعة. ولد سنة ١٨٧٩ في ولاية ايداهو في مشجر maple فلتاً وترعرع بين الحقول والبساتين. وقد استهل حياته العملية بأن تولى التعليم في المدارس الابتدائية. فكأنها نشأت قياساً تحتهم ... وكأنهم فلذات من صخورها

ينطبق عليه . ولما كان في الحادية والعشرين من العمر انتظم في كلية ولاية يوتا الزراعية وتخرج فيها سنة ١٩٠٤ ثم درّس فيها سنة ثم تولى ادارة محطة زراعية كبيرة فكان في طليعة الذين استحدثوا المحاريث البخارية في الزراعة. ثم عاد الى الكلية التي تخرج منها استاذاً للزراعة. ورأت وزارة الزراعة الاميركية ان تستفيد من خبرته فعينته خبيراً في الحبوب في فرعها الخاص بالولايات الغربية فقضى في هذا المنصب اربع سنوات انشأ خلالها محطات للتجارب الزراعية في الولايات المتحدة الغربية البعيدة في الوسط التي تمكن الفلاحين من زيادة محصولاتهم رغم قلة المطر. فطارت صيته واستدعته كلية كنساس الزراعية للانضمام اليها فعمل بعد سنتين مديراً للاعمال الزراعية وعميداً فيها ثم انتخب رئيساً [illegible] في هذا المنصب دعاه المستر كولدج لتقلد منصب وزير الزراعة . وال القراء اليأمن أكثر تكلمه

***

تجتاز الزراعة في جميع انحاء المعمورة أزمة من أشد الأزمات التي عرفها تاريخ العصر الحديث. غير أن هذه الأزمة الخطيرة لا تقتصر على المشتغلين بزراعة الارض بل تتناول جميع رجال الاعمال كبارهم وصغارهم ، ولكن مصر تختلف عن معظم البلدان بان ثروتها أتم موارد الثروة فيها ، وانها تستمد معظم هذه الثروة من محصول واحد هو القطن . ولهذا السبب تستطيع مصر اكثر من اي بلد آخر أن ترجع اسباب أزمتها الحالية الى مصادرها بشيء من الدقة . ثمن القطن هو البارومتر الذي به نقرأ ثروة القطر المصري صعوداً وهبوطاً . وقد اصاب القطن كما اصاب غيره من المحاصيل الزراعية [illegible] الخطورة

اما في امريكة فيصعب تقدير الاسباب الحقيقية [illegible] التي حلت بها ، فقد

الزراعة هناك ليست المحصول الذي يتخذ مقياساً للثروة فيها . فهناك منتجات عديدة لا تقل قيمة عن الزراعة كالمناجم والبترول والنحاس والفسفوجات والسيارات والآلات الزراعية التي بلغ الكساد فيها الحد الفظيع . بالاضافة الى ذلك أن الانتاج الزراعي في امريكا يشمل عدة محاصيلات قليلة القيمة تقريباً كالقمح والذرة واللاشية وصناعة الالبان والقطن والفاكهة والخضر ... وهي محاصيل تقريباً خسائر مالية فادحة . فاذا افترضنا رجوع حالة القطن إلى نصابها السوي فان ذلك لا يؤدي الى انتعاش السوق هناك الا بدرجة لا يعتد بها ، بخلاف الحالة في مصر فان ارتفاع أثمن القطن ينعش الحالة المالية في جميع أنحاء البلاد المصرية فالعائلة في مصر أقل اتساعاً بالتجارة منها في ولايات اميركا المتحدة

وفي خلال السنوات الاخيرة ظهرت عوامل كثيرة كان من شأنها ايجاد ازمة زراعية نخص بالذكر من هذه العوامل ما يأتي :

(١) مساعدة الانتاج الزراعي في جميع الجهات على سد حاجات الجيوش من طعام وحاجيات على اختلاف انواعها . فلما وضعت الحرب اوزارها وانضمت المنتجات الزراعية التي تركت في مخازنها بعد تسريحها . وقد زاد الطين بلة تسابق الزراع في الانتاج رغم التضخم النقدي الذي سبب الغلاء ورغم زوال الاسباب التي أدت الى هذا التضخم

(٢) أن معظم أمم العالم وعلى رأسها انكلترا عزمت على تموين نفسها بقدر المستطاع من محاصلاتها الزراعية وموادها الخام

(٣) تغير العادات فيما يختص بالطعام واللباس واستبدال بعض الأطعمة والأنسجة التي كانت هي وحدها شائعة الاستعمال ، بغيرها من المواد . مثال ذلك أن مقادير وافرة من الفاكهة والخضر ومستحضرات اللبن والدجاج وغيرها من المواد الغذائية قد حلت محل اللحم واللبن . كذلك في الملابس أصبحت الالياف الحريرية تنافس السلع القطنية . وفضلاً عن ذلك فان النساء في كثير من بلاد العالم يستعملن في ملابسهن جزءاً بعد عام لا فيما يختص ببعض الثياب فحسب بل بالكميات اللازمة لهذا العدد ايضاً ونتج من ذلك نقص المقطوعية ونقص الكميات المستهلكة وهبوط الاثمان

(٤) استخدام الآلات الزراعية التي ساعدت على تخفيض ثمن الانتاج وزراعة ملايين من الفدادين في اراض جديدة [illegible] خصوصاً في ولايات اميركا المتحدة وكندا . وقد أدى هذا الى توزيع ملايين من الافدنة التي كانت تخصص لتربية الخيل والبغال ومراعي الحيوان لزراعة محاصيلات اخرى كالقطن والقمح وغيرها من المحاصلات التي يحتاجها السكان . ففي ولايات اميركا المتحدة وحدها كان هناك نحو ٨٠ مليون فدان من الاراضي كانت تزرع خصيصاً لتربية الدواب الزراعية بالمنطقة والعلف

وقد استعملت كلها الآن الى امثال من نوع آخر تنافس بقية الاراضي في انتاج القطن والقمح وغيرهما . يضاف الى هذه العوامل كلها زيادة الانتاج بسبب تحسين الاساليب الزراعية وما أدت اليه من التوسعة في الاسواق

(٥) وفرة الضرائب التي اضطرت الحكومات أن تفرضها على الأهالي تسديداً للديون التي تراكمت على عواتقها من جراء الحرب العظمى وقد سبب هذا بالطبع نقصاً فاحشاً في قوة الشراء

(٦) قلل وسائل التجارة الدولية من أماكنها المعتادة ، وتقلقل الحالة المالية عقب الحرب العظمى وتدرّض قيمة النقود الورقية للصعود والهبوط ، وتغير الحرائل التجارية وما تلا ذلك من عدم الثبات التجاري بعد ظهور روسيا السوفيتية كعامل في تدهور الحالة المالية وميل الميزان التجاري

لقد أثبتُّ الآن بصفة عامة بعض الأسباب التي أدّت الى مرض هذا الجسم الزراعي . والمسألة العظمى الآن هي القضاء على اسباب الداء ، ووصف الدواء ، ولابد من اختلاف وجهات النظر في العوامل التي أدّت الى الكساد الزراعي ، غير ان الكل يتفقون على أن جهود المصلحين ينبغي أن توجه الى رفع مستوى الحياة بين الزارعين او بعبارة اخرى زيادة الدخل بينهم في كل أسرة . وكيف يمكن الوصول الى هذه النتيجة ؟ لديّ وسيلتان : احداهما زيادة ثمن الحاصلات الزراعية وتخفيض ثمن الانتاج ونفقات البيع والشراء

في الواقع أن أكثر الصناعات نجاحاً هي التي خفضت فيها أثمان الانتاج ونفقات البيع والشراء ، ولم لا تكون الزراعة على قدم المساواة مع الصناعات ؟ يمكن بلوغ هذه الامنية اذا طبقنا على الزراعة المبادىء التي تطبقها على الصناعات الناجحة مع مراعاة الفروق بين الزراعة والصناعة . وقد كان لهبوط الأثمان في الماضي وفي هذه السنوات النصيب الأول من العناية واهتمام الجمهور بالمناقشات العامة ، ولم يفكر الناس في العناصر الأخرى التي تجعل ثمن كل وحدة من وحدات الانتاج اثقل مما هي عليه الآن

وقد فكرت الحكومات والمصالح المستقلة عنها في العهد الأخير أن تحدّد سعر عدد من الحاجيات كالملاط والبن والقمح والقطن والنحاس ، وقد نجحت هذه الطريقة في بعض الاحيان في فترات قصيرة ولكن كانت نتيجتها الفشل في النهاية ، لأنها اوقعت ارباب الانتاج في مشاكل مالية عسيرة إذ أخلت بالتوازن بين العرض والطلب

وتقليل الانتاج في الزراعة بأنقاص مقدار الأطيان المزروعة لغرض تحسين الثمن يختلف في هذه الحالة عنه في حالة الصناعة ، وذلك لأن صاحب المصنع يستطيع أن يضع هذا العبء — عبء نقص الانتاج — على العامل الذي يترك عاطلاً يتسكع في الطرقات في الوقت الذي يقفل فيه المصنع أو يفتح لانتاج مقادير محدودة . أما في الزراعة فان العمال الذين ينفصلون من

أعمالهم لغرض نقص الانتاج لا يؤثرون الا قليلاً فيه . وهذا هو السبب الذي يجعل الزارع الحكيم يعلم حق العلم أن نقص الانتاج لا يؤدي الى النتيجة المطلوبة لأنه يزيد النفقات بعد توزيعها على كل وحدة من وحدات هذا الانتاج . وفضلاً عن ذلك فان الزارع يخاف أنهُ اذا نقص الانتاج يستبرّ غيره من المزارعين على عالمهم ولا ينقصون الانتاج — ما لم يجبرهم القانون على ذلك — وبذلك يبقى هو وحده متحملاً نفقات الانتاج بغير ان ينتفع بزيادة الثمن المنشودة ولذلك لا يجد في مسألة تقليل الانتاج فائدة تذكر

غير أن هناك فرقاً بين نقص مقدار الاطيان المزروعة نقصاً مطلقاً بغير تحديد وبين نقص المزروع من محصول خاص في أطيان خاصة في جهة خاصة والاقتصار على زرع بعض الأطيان بمحاصيلات ومقادير تختلف باختلاف الحاجة اليها وأثمانها حسبما تقضي به الظروف المحلية أو المالية . ومن المهم جداً أن يكون هناك توازن بين الانتاج، والحاجة ، وانخفاض الأثمان لأن ذلك يعود على المنتج والمستهلك كليهما بالنفع ، كما أن كثرة الانتاج تؤدي الى تخمة الأسواق وهبوط الثمن وهذا لا يفيد الا المضاربين . وقد فطن الزرّاع الناجحون في أعمالهم إلى الخطأ الناتج عن وضع الأثمان فوق كل الاعتبارات الأخرى واهمال غيرها من العوامل ، وأيقنوا ان نقص الانتاج لازم لتحسين الحالة المالية ، وأخذوا يتلقنون دروساً من رجال الصناعة وذلك باستعمال طرق فنية حديثة وآلات زراعية جديدة حتى ينتفعوا في اراضيهم ومعداتهم وأعمالهم أحسن انتفاع . وفي خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية زاد انتاج فلاحي أمريكا ٢٥ في المائة عما كان عليه سابقاً في معظم انواع المحاصيل ، غير أنه مما يؤسف لهُ أن هذه الزيادة لم تعد عليهم إلا بفائدة قليلة ؛ لأن هذا الانتاج مضافاً اليه محصول الأراضي الجديدة المزروعة زاد في مقدار العرض وفرّق مسافة الخلف بين العرض والطلب ونقص الثمن حتى بلغ أقل من ثمن الانتاج

ولنأخذ القطن مثالاً لذلك، وهو المحصول الذي توجه مصر وغيرها من الممالك الاجنبية عنايتها اليه . فمن سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٢٩ بلغت الزيادة في سكان العالم ١٠٠ الف نسمة في حين أن زيادة ما يستهلكه الفرد الواحد من سكان العالم من القطن بمقدار الـ ٩ في المائة أو نصف رطل ؛ أي أن زيادة الاستهلاك بلغت ٣ ملايين بالة بحساب ٥٠٠ رطل للبالة الواحدة أو ١٥ مليون قنطار . وفي هذه الفترة عينها ١٩١٣ — ١٩٢٩ زاد الانتاج العالمي في القطن من ٢٠ مليون و ٢٢٠ الف بالة بحساب البالة ٥٠٠ رطل الى ٣٥ مليون و ٦١٦ الف أو ٧ ملايين بالة في حين ان الزيادة في الاستهلاك هي ٣ ملايين بالة او بعبارة اخرى ان مقدار القطن الزائد عن المقدار المستهلك بلغ ٤ ملايين بالة وليست هناك لغة افصح من لغة الأرقام تعبيراً عن الاسباب التي انها يعزى هبوط أثمان القطن

وبرغم وجود عوامل اخرى واعتبارات ذات قيمة فانهُ لا يمكن أن ننسى أن العالم ينتج مقادير من القطن تزيد عن المستهلك زيادة توجب هبوط الاثمان وتفاقم الحالة الاقتصادية . وتعزى زيادة المقدار المستهلك من القطن التي اشرت اليها الى الاشياء الكثيرة التي أستخدم القطن في صناعتها في السنوات الاخيرة ، ولولا هذا الاستعمال لما بلغت أثمان القطن ما بلغتهُ في السنوات الاخيرة ولا يمكن التكهن بالمدى الذي يمكن بلوغه باستعمال القطن في اشياء لم يدخل في صناعتها حتى الآن ، غير ان المجال فسيح لبحث عن هذه الاشياء وبذل جهد المستطاع في ايجادها . واذا استمر الزارعون في زيادة انتاج القطن فلا بد لهم ان يبحثوا عن الوسائل التي يستخدم في استعمالها

ومما هو جدير بالذكر انهُ بينما نجد زيادة الاستهلاك في مقدار القطن لكل فرد من سكان العالم لم تبلغ ٩ في المائة في اثناء الخمس عشرة السنة الماضية ، قد بلغت هذه الزيادة في الصوف ٢٦ في المائة وفي الحرير ١٢٠ في المائة ، وفي الحرير الصناعي ١٥٠٠ في المائة وهذه جميعها تنافس القطن اشد منافسة ومن السهل اذاً أن نرى قيمة توجيه الانظار الى سياسة مستقبلة عالمية فيما يختص بزراع القطن ويجب ان نعلم ان الزارعين الذين ينتجون اكبر مقدار من اجود الاقطان باقل نفقات هم الزارعون الذين سيكون لهم النصيب الاوفر في الاسواق العالمية ، أيا كانت البلاد التي هم فيها

ومن اهم الوسائل التي يستطيع بها الزارعون أن يزيدوا أرباحهم ويفيدوا المستهلك في الوقت عينه ، هي تجنب طرق التوزيع التي تكلف نفقات باهظة والتي يلجأ اليها في عصرنا الحاضر . وقد تسبب عن نمو الصناعة السريع في خلال ربع القرن الماضي تركيز السكان في مراكز صناعية بعيد معظمها عن مراكز الانتاج التي تموّن السكان بالطعام ومواد خام اخرى ، وهذا مما يجعل نفقات التوزيع باهظة جداً غير معقول . وقد كانت طريقة التوزيع هذه وافية بالغرض المقصود عندما كانت الصناعة منتشرة في البلاد ومقسمة الى وحدات صغيرة وعند ما كان الفلاحون يكفون أنفسهم بما ينتجون في مزارعهم . واما اليوم فقد اتسعت المدن الكبرى وتضاعف سكانها . أصبحت مسألة التوزيع معقدة كثيرة النفقات ، ولا بد من درسها درساً جديداً حتى نستطيع أن نقوم بسد حاجاتنا على الوجه المرغوب فيه من الوجهة الاقتصادية . وكلما قلنا النظر ما في انحاء المعمورة في كل بلد من بلدانها نرى من السكان من يعوزهم الطعام واللباس وقد يستطيعون ان يستهلكوا اضعاف ما يستهلكونهُ الآن فيما لو بلغت اثمان حاجاتهم الضرورية حداً يكون في المتناول . وفي اعتقادي ان من اهم الفرص الساعة للفلاحين اليوم هي تحسين حالة التوزيع لانهُ بذلك يزداد الطلب بتكاثر الارباح . وقد اصبح الزارعون في خلال الخمس عشرة سنة الماضية ذوي دراية عظيمة ومقدرة واسعة في جميع انواع الانتاج

وقد كانت الجهود موجهة في خلال السنوات الماضية الى تحسين حالة الفلاح من وجهة الانتاج . فجاءت نتيجة هذه الجهود بالثمر الجيد ؛ وقد حانت الفرصة الآن لتوجيه العناية بكل ما اوتينا من قوة وذكاء الى مسألة توزيع المحصول في الاسواق تلك المسألة التي طال اهمالها . وفي الصناعات الاخرى يهتمون بمسألة البيع كما يهتمون بمسألة الانتاج وناهيك عن ذلك انهم بلغوا نتيجة يحمدون عليها في تخفيض النفقات التي يطلبها ايصال السلع الى مستهلكيها اينما وجدوا، وقد بلغوا هذه النتيجة بواسطة الانتاج بكثرة ، والتوزيع بكثرة مع قلة النفقات ، ويعزى بلوغ هذه النتيجة الى الآلات التي وفرت عليهم العمال ، والى الاعلان المنظم ، وتركز رؤوس الاموال الضخمة والمسؤولية في يد رجال ذوي نفوذ قادرين على تصريف مصنوعاتهم في اسواق العالم

وعلى هذا المنوال ينبغي للفلاحين ان ينسجوا . ويختلف تنظيم هذا العمل باختلاف المكان وحاجة السكان . غير ان تنظيم الانتاج والبيع من اهم وسائل النجاح لان اسواق العالم تشتري عادة الحاصلات التي يبلغ ثمنها حداً معقولاً

***

وتتعاون حكومة ولايات اميركا المتحدة بواسطة مجلس الزراعة الاتحادي الجديد تعاوناً تاماً مع الهيئات الزراعية وذلك بامدادها بالمال والنصيحة حتى تؤسس شركات تقوم بالتوزيع لاننا اصبحنا نعتقد ان هذه الشركات انسب لنا من اي طريقة اخرى . وقد اصبح لدينا الآن عدد من شركات التعاون الناجحة كشركة زراع الفاكهة في كاليفورنيا التي يوزع المنتجون بواسطتها ٨٠ في المائة من حاصلاتهم وبهذه الطريقة توزع في الاسواق بكيفية معتادة تمنع التخمة في الاسواق وهبوط الثمن وتنفع المنتج والمستهلك كليهما فاذا احصينا ملايين الوحدات الزراعية الصغيرة التي تنتج وتوزع محصولاتها ، مستقلة عن الاخرى ، وجدنا ان الواحدة تستفيد مالياً لو اتحدت لبيع حاصلاتها بعد خزنها جيداً وتسجيل علاماتها والاعلان عنها ، وقد يكون نوع التنظيم في هذه الحالة مختلفاً باختلاف الجهات كما اسلفت . غير ان الفكرة الاساسية تنحصر في وضع هذا النظام في ايدي رجال مدربين محنكين حتى تأتي مجهوداتهم بالغرض المقصود

ان الحالة الاقتصادية كما هي الآن تتطلب استثمار اكبر العقول وأظهر الزعماء لانعاشها . ويعتقد الكثيرون اليوم ان الانعاش لا يتم الا بملاحظة العوامل الدولية لانه مهما عظم مقدار المحصول الذي تنتجه امة من الامم فان اثمان محصولها تتأثر كما تتأثر اثمان السوق العالمية ، والحالة الاقتصادية العالمية تتأثر بما تنتجه الامم الاخرى ، والتعاون من جانب ارباب الانتاج في كل مملكة قد يعمل على تحسين الحالة في تلك المملكة غير ان المسألة تدعو الى همة اكبر ونشاط اعظم من جانب قادة الاعمال وزعمائها في جميع انحاء العالم

باب شؤون المرأة
وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الوقاية

آراء واحاديث صحية للدكتور شخاشيري

حديث المائدة

قبل أن أحدثك عن انواع المآكل التي نعيش عليها وقيمة ما فيها من غذاء ومتوسط ما يتطلبه الجسم منها اريد أن أوجّه نظرك الى شأن النظام في الأكل فان أثره في الصحة أقوى من تأثير الطعام ذاته فيها وهو للجسم كالأساس للبناء سواء بسواء فكما ترى اهتمام المهندس بالأساس ان يكون قويًّا في مواده محكماً في وضعه قبل شروعه في البناء لكي يطمأن الى مصيره من العلو والاتساع كذلك يجب ان يكون اهتمامك بضبط مواعيد الاكل والحرص عليها وعدم التفريط بها لا يقل عن اهتمام المهندس بالأساس لانهُ يضارعهُ في الشأن والخطورة . وما ظهي الطعام والتفنن في اعداده وبذل العناية في اختيار انواعهِ الا بمثابة اجرأتك لتحضير بقية المواد التي تستعين بها لاقامة البناء فاذا كان الاهتمام بها عظيماً دون الاهتمام بالأساس جاء البناء فاسداً من أساسهِ متداعياً للسقوط عندما تعصف بجوانبهِ العواصف والأعاصير او بعبارة أوضح اذا كان اهتمامك بالنظام ومواعيد الأكل دون اهتمامك بطهي الطعام والتفنن في تحضيره جاء بناء الصحة ضعيفاً في أساسهِ لا يعتمد لغارات الجراثيم المرضية بل يكون مرتعاً خصيباً لها تنمو فيهِ وتتكاثر من غير كبير عناء . وأنت من هذا ترى ان الاهتمام بالنظام او الأساس اولى بمن يبغي صحة نضيرة وحياة نشيطة وبدونهِ لا يستمتع بطيبات المآكل لحظة الا يشعر بنقيضها لحظات وكم من اكلة طاب مذاقها كانت منشأ العلل ومبعث الاسقام لا لسبب سوى ان آكلها لم يراع نظاماً في التهامها فاما ان يكون قد ازدردها من غير أن يجيد مضغها أو أن يكون قد أدخلها على طعام لا زال المعدة قائمة بهضمهِ او أنهُ تناول منها مقداراً كبيراً لا يجيزه

ان يمتنع عن ادخالها الى طعامه بضعة ايام فلا يجوز منع المريض من تناولها يوماً واحداً. وذكر الاستاذ سيك وغيره حالات عديدة تأصل الداء فيها وقطع الامل من شفائها ولكن لما اضيف البروتين ابتدأت علامات التحسن تظهر عليها ومن تقدمها الى الشفاء في اطراد الى ان تعادل البروتين في الدم وازدادت مقدرتهُ على انسياب الحمض الكربونيك وتوازن المنصرف من اليوريا وتحرر البول من الدم والخلايا والاسطوانات وحاجة اولئك المصابين بالالتهابات الكلوية من البروتين تتراوح بين ٤٠ و٥٠ غراماً في اليوم. وثبت انهُ لاخوف قط من استعمال ثلاثة اضعاف هذا المقدار والى جانب هذه المقادير من البروتين يجب ان تتوافر مواد الغذاء الاخرى كالدهن والنشويات الضرورية لتوليد حرارة الجسم وبعث النشاط فيهِ والاَّ اضطر الى الاستعانة بالمواد البروتينية وهي كما علمت ميزتها للبناء وتجديد ما مات من الخلايا وليست لتوليد الحرارة فضلاً عن ذلك ان الجسم بحاجة الى الانتفاع من ميزتها تلك الى اقصى حدٍّ لا الى الحرارة التي تتولد من احتراقها فيهِ والتي لا يستطيع من دونها ان ينهض باعباء المرض ويجب ان يعادل ما يحصل عليهِ من النشويات ٥٠ في المئة من مجموع الحرارة التي تتولد من غيرها من مواد الغذاء. والمواد البروتينية التي تدخل في طعام المريض هي اللحم والبيض واللبن بمقادير نصف رطل من اللحم وبيضتان ورطلان لبن في اليوم. والى ساعة كتابة هذه الكلمات لم اتمكن من اقناع مريض بالالتهاب الكلوي ان يتغذى بمثل هذا الطعام وسوف يمضي زمن ليس بقصير قبل ان تشاع هذه الطريقة الجديدة في التغذية ويعم استعمالها كاداة لتقوية الاجسام المنهوكة. وانواع الطعام على اختلافها مفيدة في نوعي الالتهابات الكلوية الحادة والمزمنة. وهناك نوع ثالث لا يصرح للمريض بهِ وهو ان لا يتغذى بالمواد البروتينية الاَّ بمقدار ما يتلف منها فيهِ وهو يختلف عن النوعين السابقين في ان تأثيره واقع على الاوعية لا على انسجة الكلى. واعراضه — الاَّ في الحالات الخبيثة — تتوقف شدتها على ضعف الدورة الدموية لا على اضطراب في بناء الكلى. ومقدار بروتين اللحم فيهِ لا يقل عن المعتاد لذلك لا حاجة ماسة الى احتواء طعام المصابين بهِ على مقادير من البروتين كما هي الحال في الالتهاب النزفي الحاد والالتهاب المزمن المتلاف. ولكن هذا لا يعني ان تمنع إدخال البروتين الى طعامهم الاَّ عند ما يضطرب نظام اليوريا في الجسم وما عدا ذلك فلا يجب المنع. والخلاصة ان هذا الانقلاب العظيم في تغذية حالات الالتهاب الكلوي الحاد النزفي والمزمن احدث رجة عنيفة ليس في المرضى فقط بل في الاطباء الذين لا يتتبعون سير العلوم ولا العلماء في ابحاثهم المتواصلة اما لكثرة اشغالهم واما لتقهقرهم عن علمهم بلغ الحد الاعلى من الكمال. ولكن لا كمال في العلم وان العالم الكبير يشعر دائماً بتوقهِ الى الاستزادة من المعارف والاطلاع على الآراء الحديثة في مختلف العلوم والفنون

٢ — مقام الطبيب من صحة الجمهور

نظام التأمين واثر الطبيب فيه

لم يكن التأمين في اول نشأته منظم الادارة كما تراه الآن ولا كان للطبيب الاثر البارز في اعماله كما لهُ اليوم وعلاقتهُ به لم تكن تخلو من عراقيل وصعوبات ذهبت بكثير منها الاصطلاحات التي ادخلت على نظامهِ في خلال السنين التي مرت على تأسيسهِ . وليس من الانصاف ان نوازن بين ما كانت عليهِ تلك الرابطة من عشر سنوات وما وصلت اليهِ في الوقت الحاضر او تكون عليهِ في المستقبل . كما لا يمكن ان نقارن نظام التأمين ذاتهُ اليوم بالنظام السابق لكثرة ما كان فيهِ من عيوب . ولا ريب ان النظام الحاضر سيتطور الى احسن ولا سيما عند ما يشمل آل المؤمَّن عليهم وذويهم وقد ظهرت بوادر هذا التحسين في قرار الجمعية الطبية البريطانية سنة ١٩٣٠ التي وافقت على التوسع في نطاق العناية الطبية وشمول ذوي المؤمَّن عليهم بشرط ان يضمن حقوق الاطباء مع عدم ارهاقهم . واذا علمت ان هذا القرار يشمل ٨٠ ٪ من الشعب البريطاني أكبرت هذه الجهود العظيمة وعجبت من هذا التفاني في الدفاع عن صحة الجمهور . ومع ان الاطباء في بعض المدن الاوربية غير مرتاحين الى نتيجة ما وصل اليهِ هذا النظام فان ابطالهُ يؤدي الى اسوأ عاقبة عليهم من بقائهِ والعمل بمقتضيات مبادئهِ . وطريقة تنفيذه تختلف باختلاف الشعوب والممالك ففي بريطانيا يشترط للالتحاق بهِ موافقة وزارة الصحة على قبول طالب الانضمام اليهِ واما في سواها فالمفاوضة تكون مع جمعيات التأمين نفسها او لجانها المؤلفة من الاطباء وغير الاطباء من اعضاء مجالس ادارتها مباشرة . وفي المانيا يدفع للطبيب اجر كل عيادة او اصابة او عن كل مؤمَّن او لمدة معينة وما عدا ذلك يكون الطبيب حرًّا في عمله الخاص . اما في بريطانيا فينال الطبيب مكافأة عن كل مؤمَّن ولكل طبيب مصرح لهُ بممارسة صناعتهِ ان يلتحق بهذا النظام اذا شاء . وفي بلجيكا يدفع للطبيب اجر عن كل استشارة فنية او عن كل وقت يصرفهُ في العيادات العمومية كما هو متبع في بولندا وتشكوسلوفاكيا والمجر ولا يزال الخلاف قائماً بين الاطباء وجمعيات التأمين على الطريقة المتبعة في اختيار الطبيب وقبول معاونتهِ فهم يريدون ان لا يكون للحكومة اي تدخل في ذلك على نحو ما هو جار في بريطانيا وسويسرا وبلجيكا ودانمرك والمانيا والنمسا . ولعل ارتياح اطباء الدانمرك الى هذا النظام يفوق ارتياح زملائهم في سائر البلاد فاولئك لا يشكون الا من عدم قبول انضمام بعض الطبقات الى صفوف المؤمنين لكي يزداد ايرادهم ويضاعف اجرهم على العناية بهم ولذلك تراهم يحثون على ضرورة قبول جميع الطبقات والانضمام الى احدى جمعيات التأمين ونشاهد بعض الاطباء في هولندا يقومون بادارة الجمعيات . وقد لاقى نظام التأمين في فرنسا معارضة عنيفة من

نطاق المعدة محال . وهذه عوامل كلها او بعضها فيها اساءة كبيرة وسوء تصرف غير محمود العاقبة وأهم هذه العوامل ادخال طعام على طعام أو الأكل بلا نظام . ولكي تقدر خطورة هذا الاسراف في الأكل بمواعيد مضطربة وما ينشأ عنهُ من اضرار ظاهرة تحس بها في الحال « كالألم والمغص والقيء والاسهال وأحياناً ارتفاع بالحرارة » واضرار خفية لا تحس بها الا بعد زمن طويل أو قصير « كالالتهابات المعوية والكلوية واحتقان الكبد وتصلب الشرايين وغير ذلك »

اعرض امامك حالة عامل يشتغل بالأمانة ويحرص على انجاز عمله في حدود طاقتهِ من غير تقديم ولا تأخير وانهُ كُلف عملاً فوق طاقتهِ او قبل ان ينجز العمل القائم بهِ احتج وحاول الهروب منهُ ولكن بصمت ومع هذا الاحتجاج والمحاولة لا يكف عن العمل ولا يتوقف ثانية عن الدأب في انجاز ما بين يديهِ . والعمل الدائم هو في ذاتهِ من اظهر الدلائل على حيويتهِ . والشاهد على اضطراب هذا العامل الامين الذي هو المعدة ما يبدو عليك من الانزعاج عند ما تأكل بنهم طعاماً غنيًّا بموادهِ الغذائية بما يزيد على مطالب الجسم عشرة اضعاف او اكثر . وكثرة الأغذية كما تعلم تولد في الجسم فضلات تنقلب الى سموم اذا لم يتخلص منها في مدى قصير وتحدث في الغالب اضطرابات معوية لا تزول الا بالصوم والامتناع عن الاكل بضعة ايام فضلاً عن الأدوية والمسهلات . واكبر عامل على اثارة هذه العلل والاضطرابات هو الفوضى في مواعيد الأكل فلو كنت على معيشة منظمة وبصيرة مثقفة في اختيار ما يصلح من المآكل وما لا يصلح ومقدار ما يتطلبهُ الجسم من الغذاء لكنت في منجاة من هذه الطوارىء المفتعلة والعثرات المختصة التي تفاجئك في طريق الحياة أو لو كنت متدبياً في معيشتك تأكل لوناً واحداً من الطعام ولا تأكل في اليوم اكثر من وجبة واحدة كما يفعل سكان البادية لقطعت على كثير من النزلات المعوية سبيل الوصول اليك ولا يكون الفضل في ذلك الى التقشف في الغذاء وحده وانما يعود الفضل فيهِ الى النظام الذي تتبعهُ في معيشتك . وأثر هذا النظام لا يقف عند تحسين الصحة وتنمية الجسم وصيانتهِ من عوادي الامراض فحسب بل يتجاوز هذه الحدود الطبيعية وتظهر بوادره في تفكيرك واحاديثك واعمالك . وان ما تصيبهُ من نجاح في ايام المدرسة وتحصيل في العلوم او كل ما يبدو منك بعد تلك الايام كبيراً كان او صغيراً سواء في البيت مع اهلك او خارج البيت مع معارفك وذويك يرجع الى هذا النظام الذي ادعوك الى المعيشة في ظله والاستمتاع بفوائده

التغذية الحديثة

يختلف الطعام الذي يصفه الطبيب المعالج اليوم للمرضى بالتهابات كلوية عن الطعام الذي كان يصفه في الماضي لتلك الحالات والذي لا يزال معظم الاطباء يعتقدون ملاءمتهُ لها الى الآن . والسبب في هذا التناقض هو ان الطبيب في الماضي كان يقصد بالمعالجة ان يداوي العضو المتأثر

بالمرض مباشرة اما اليوم فانهُ اصبح يداوي المريض نفسه لا عضواً من اعضاء جسمه والاَّ ما كان يقف في الامس من تلك الالتهابات الكلوية فيمنع المصابين بها ان يتغذوا بالمواد البروتينية التي من اهم خصائصها ان تجدد ما يموت من الخلايا والاغشية في الجسم واصلاح ما يقع في اعضائه من اضطراب وتلف . وهذه النظرية لا تخول له ان يمنع اولئك المصابين بأمراض الكلى من اكل اللحوم بل توجب عليه ان يشجعهم على الاكثار منها لعظم فوائدها ولان العلم اثبت ضرورتها لتجسم وهو في حالة المرض اكثر من لزومها وهو سليم . وهذا التباين في ميزات المواد البروتينية وتأثيرها في الجسم يرجع الى ما اثبتته الابحاث العلمية الحديثة من ان عملها الخاص هو لبناء ما يندثر في الجسم من خلايا واغشية وانه كما يعول عليها في حالة الصحة واطراد النمو يجب ان يعول عليها ايضاً في حالة المرض سواء بسواء . واقرب شاهد على صحة هذا القول تجده في احوال الالتهابات الكلوية الحادة منها او المزمنة ولا سيما التي تكون نشأت عن الحمى القرمزية او التهاب اللوزتين فان من شأنها اتلاف المواد البروتينية في الجسم وهدم ما هو قائم منها لحفظ كيانه وترى آثار التلف والتدمير ظاهرة في بول المريض وتزداد شدة في الظهور الى ان تدب عوامل الهدم في بروتين الدم وعندئذ تختل ميزانية الماء في الجسم وتبدو عليه اعراض الزبالة وظهور الورم في اطراف الجسم والوجه من اكبر علامات مرض الكلى وله علاقة وثيقة بمقدار البروتين في الدم . وموازنة الماء بين انسجة الجسم وبين الاوعية الشعرية تتوقف على عاملين فالاول الضغط على مصل البروتين او الزلال والثاني الضغط على السوائل في الاوعية الشعرية وفي حال انخفاض الاول بسبب ارتشاح البروتين من الخلية يضطرب السائل ويندفع من الشعريات الى الاغشية ويتجمع في غضونها ويظهر الورم او الزبالة كما تقدم ذكره في الجسم وليس هذا الاضطراب في الضغط الباعث الوحيد على اظهار الورم في الاغشية وانما ارتشاح او نقص البروتين من الخلية هو السبب الاكبر في احداث ذلك البلاء . وقد ثبت للاستاذ سليك ان المريض بالالتهاب الكلوي الحاد يقاوم المرض ويبرأ منه بسهولة اذا احتفظ جسمه بالمواد البروتينية والزلالية وحتى المصاب بالنوع النزفي فان شفاءهُ منه يتوقف على صيانة بروتين الجسم من الانتقاص والمريض الذي يفقد جسمه هذه المواد ويتعذر عليه استرجاعها يصبح المرض فيه مزمناً واذ ذاك يعلق امل شفائه بحبال الهواء ومما تقدم من الدلائل ان الشفاء من انواع الالتهابات الكلوية الحادة النزفية وغيرها يتوقف على الاحتفاظ ببروتينات الجسم وزلالياته وعدم التفريط بها وهذا لا يكون الا باضافة هذه المواد الى طعام المرضى بالمقادير المقررة للجسم السليم وبرهنت التجارب على ان تمثيل هذه المواد وانحلالها في الجسم لا يؤثر في الكلى لا في قليل ولا كثير وانها في حالة المرض كما في حالة الصحة لا تحيد عن مزيتها في بناء ما اندثر من الخلايا وتعويض الجسم ما احدثه المرض فيه من تدمير واذا جاز للرجل السليم

الاطباء في اول عهده . ولكن بعد ادخال تعديل في كثير من مواده ضعف صوت المعارضة. ولا يتسع المقام لاظهار ما بين الطبيب وجمعيات التأمين من روابط وما طرأ عليها من مشاكل وما يعزى الى نظام التأمين من مساوىء . ومن اراد الالمام بهذا الموضوع فعليه ان يطالع كتاب « الطب » تأليف السر ارثر نيوز هلم وهو كتاب جليل الفائدة غزير المادة دقيق في ابحاثه وتعليل وجوه الموضوع تعليلاً تربياً او يطلع على تقارير مجلس العمل الدولي فيجدها تحتوي على حقائق جديرة بالمطالعة والاهتمام . ومع هذا فلا مناص من ذكر بعض فوائد هذا النظام الذي هيأ لطبقات من الناس التداوي من الامراض ودفع اجور الاطباء والتي لولاه لما كانت تقدر على ذلك ولا على جزء منه . فضلاً عن هذا انهُ اوجد لعدد كبير من الاطباء الاعمال التي كافأهم عليها وساعدهم كثيراً على الظهور بمواهبهم وما تكنهُ صدورهم من الرحمة والبر بالفقراء وجعل لهم ايراداً ثابتاً ومستقبلاً باسماً في اشد الايام عبوساً . وحسبهُ انهُ قضى على السماسرة وأبطل فساد دماويهم . وتتجلى هذه الفوائد عند ما تعلم انهُ لولاه ما كان لجماعات عديدة ان تقوم بنفقات العناية الطبية كما يجب ولا ان تتداوى كما تفعل الآن . واكبر دليل على فائدة وجوده انتشار مبادئهِ ورسوخ اصولهِ وكثرة الاقبال على تأييده والانضمام اليهِ . وفي الامكان تلخيص سير تقدمهِ وكيف كان في اول نشأتهِ جمعية صغيرة الحول مكونة من اعضاء قليل عددهم وانهُ ما كان ينتشر خبر تأليفها والغرض الذي ترمي اليهِ الا واقبل على مناصرتها الافراد والجماعات والحكومات واخذت عوامل النمو تظهر في الفروع والاصول حتى بلغت بعد تطور طويل ما بلغتهُ الآن . والغريب ان بعض الاطباء يعترض على الاجر او المكافأة الضئيلة التي يكافأون بها مقابل اتعابهم وجهودهم والبعض يعترض على بعض القيود في توزيع الادوية على ذوي المؤمنين . ولكن الحال في ارتقاء على النقيض مما تقدم لان اكثر من نصف الشعب يحق لهُ ان يحصل على الادوية التي يدفع ثمنها صندوق الاموال العامة والمؤمنون انفسهم لا يحصلون على هذه الادوية بصفتهم مؤمنين وانما بصفتهم العامة اي افراد الامة والامة تدفع عنهم النفقات من تطبيب وادوية من المال المجتمع للصرف في سبيل الدفاع عن الصحة العامة

التأمين على صحة العامل

ودليل آخر على ان الشعب الاوربي يقدر خطورة العناية الطبية قدرها في تحسين الصحة العامة هو عنايتهُ بالحامل وفي دور الولادة وبعد ذلك الدور كايجاد مولدات واطباء مولدين يعتنون بكل حامل عناية تامة على احدث الطرق وافضلها . والنفقات تجمع من الشعب عامة ومن يستطيع النفع من السيدات الحوامل بحسب نظام التأمين . وهكذا ترى ان هذه الطريقة آخذة

في التعميم وقوامها القابلات التي تعنى الحكومة بتعليمهن ومساعدتهن على المعيشة خلال اثناء الدراسة وبعدها . وقد اصبحن او كدن يحتكرن عملية التوليد في انكلترا وهولند . فقد بلغ معدل ما يولد على ايديهن ٦٠ في المئة . وفي الدانمرك تعين الحكومة لكل مقاطعة عدداً منهن يكفي لاجابة كل نداء . وفي اسوج يزيد عدد القابلات على الاطباء ويعملن باجر غير كبير ويجرين معظم عمليات التوليد وفي نروج اجرين سنة ١٩٢٧ نحو ٩٠ في المئة من ٥٠٠٠٠ الف ولادة وغير مفرح لهن استعمال الجفوتة والملاقط في التوليد . والاطباء على تمام استعداد لمعاونتهن عند ما تدعو الحاجة اليهم . ومعدل الوفيات من حمى النفاس هبط الى ٣ في الالف . وفي روسيا يقمن بتسعين ولادة من كل مئة ولا ريب ان نتيجة المعالجة الطبية في اوربا تتأثر كثيراً بهذه المعاونة التي تؤديها السر اردثر نيومن حيث قال ان عناية المولدات بالمواليد وتعويلهن على معونة الطبيب عند الحاجة يضمن للاطفال العناية التامة بهم في وقت الولادة

الحماية ضد السرطان

ورد في تقرير مصلحة الصحة العمومية في فينا عن الزيادة المروعة في عدد وفيات داء السرطان في السنين الاخيرة ومما جاء فيه ان وفيات ذلك المرض في سنة ١٩٢٠ بلغت ٢٤٠٠ وفي سنة ١٩٢٩ وصل العدد الى ٣٧٠٠ واما في سنة ١٩٣١ فصعد الى ٤٩٠٠ وانت ترى ان عدد اصاباته تضاعف في مدى عشر سنوات . وقد لا يعدو السبب في ذلك زيادة انتشار الداء كما يتخيل البعض وانما يعود في الارجح الى اتقان التشخيص . واهم الاجراءات التي اتخذتها بلدية فينا لمكافحة السرطان هي شراؤها خمسة غرامات راديوم وانشاء مصحة لمداواة المرضى فيها

وفضلاً عن هذه المعالجة الحديثة انشأت في المصحة قسماً للجراحة على احدث الطرق وانشأت في المدينة عيادات للكشف على المرضى مجاناً . وحثت المرضى على الشخوص الى تلك العيادات عند ما يشعرون بألم خفيف أو تغير بسيط وطلبت من الاطباء أن لا يتوانوا عن اظهار ما يخامرهم من شك في أسباب المرض وان لا يكتموا حقيقة ما يشكون منهُ وقد دلت التجارب على أن داء السرطان اذا صار تشخيصه في بدائته سهل على الطبيب مداواته والتغلب عليه كما يسهل عليه مداواة داء الدرن . وغير الدرن من الامراض العضالة التي تستعصي على الطبيب وعلى الدواء ولا سيما اذا توغلت اصولها في الجسم وانتشرت سمومها في مختلف اعضائه اما في بداءة نشأتها فيهون خطرها ويسهل امرها والتنكيل بها من غير كبير عناء

مكتبة المقتطف

نظر في معجم الحيوان

بحث علمي طريف للعلامة الاب انستاس الكرملي

حضرة رئيس تحرير المقتطف حفظهُ الله

لما نشرتم معجم الحيوان في المقتطف في سنة ١٩٠٨ وما يليها جاءني من الاب انستاس رسالة عنوانها «نظر في معجم الحيوان» نشرت تباعاً في المجلد ٣٩ من المقتطف اي في سنة ١٩١١ والآن قد بعث اليَّ برسالة جديدة وأظهر رغبته في نشرها في المقتطف فأرجو اذا وافقتم ان تسمحوا بنشرها ولكم الفضل. هذا وقد علقت عليها بما تراءى لي وجعلت ما علقت به بين حاصرتين امين معلوف

سيدي الصديق العزيز

تصفحت معجمك في هذه الساعة فرأيتك تذكرني مراراً عديدة وفي الفاظ كنت تستطيع ان تجعلها باسمك اذ لا مسيطر عليك ولا محاسب. لكن ذاتك الطيبة ابت ان تنسب اليها ما ليس لها. فهذه خطة تجعلك في اعز موطن من مكارم الاخلاق ولباء النفس؛ فاهنئك بذلك وهو اعلى مقاماً من العلم الذي بلغته باحياء اثيالي فجاء كتابك من انفس ما كتب في هذا الموضوع

وأراك نسيت ان تنسب خنزير الارض الى اول من عرَّبها وهو صاحب دائرة المعارف (٧ : ٤٨٢) وسماه ايضاً «أردفرك» (٣:٣٣) والاحسن ان تجري في هذا على خلقك الكريم المعهود فيك

وذكرت في ص ٣ العقصي ولم تتمكن من معرفة صحتها والصواب العَقْصي بالفاء لأن لونه لون العفص وكل لفة سواه خطأ صريح. وقد ذكره دوزي في ١ : ٣ قال: الباشق واليَرْبوع والعفصي». قلت وهو غير «ابن آصى» الذي صار الى «اليَوَصّي» (راجع اصيي في التاج وغيره). فالعفصي ورد العقصي في حياة الحيوان المطبوع في مصر. وذكره جابا كار صديقات العزيز بصورة العَقْصي وزان اقصى

المراسلة والمناظرة

جاءنا من الاستاذ مصطفى صادق الرافعي رد على نقد الاستاذ العقاد الذي نشر في المقتطف دسمبر ١٩٣٢، ومن الدكتور ابرهيم صليبي رد وتعليق على نقد الاستاذ نقولا المدادر لكتابه في المقتطف دسمبر ١٩٣٢. ومن الاديب كامل ابرهيم المدوس ببغداد نقداً على مقال الرافعي في شوقي (المقتطف نوفمبر ١٩٣٢) فأخرنا نشرها لضيق النطاق في هذا الجزء. فترجو المعذرة

والذي عندي في حياة الحيوان المخطوط خطٌ بديعاً وقديماً في الحاشية : والعقصيُّ بعين مهملة مفتوحة وقاف ساكنة يليها صاد مهملة مكسورة وفي الآخر ياء مشددة نسبة الى العقص للونه . والعقصي ذكره فريتغ ومحيط المحيط والبستان والفضل لفريتغ . وورد خطأ في صبح الاعشى بصورة العقيمي (٢ : ٥٧) وهو باز قضيف قليل الصيد ذاهل النفس . ثم قال في الحاشية (في حياة الحيوان العقصي ولم نجدها في القاموس) . قلت وهو المسمى Merlin بالانكليزية وبلسان العلم Falco aesalon انتهى كلام الاب انستاس

(اقول لاشبهة فهي صحة هذه اللفظة اي العقصي بالقاف لا بالفاء كما حققها الاب انستاس وانما ليس هو المسمى Merlin بالانكليزية فهذا على ما حققه سافيني (وصف مصر مجلد ٢٣ ص ٢٧٩ و ٢٨٠) هو اليؤيؤ بالعربية على ما ورد في الدميري والجراديّة عند عامة اهل القاهرة وصقر الجراد في المنزلة والمطرية وفارسكور . وهو من الصقور كما جاء في الدميري وصبح الاعشى لا من البزاة . اما العقصي فمن البزاة وهو باز قضيف ذاهل النفس (صبح الاعشى) اشد الجوارح ذعراً وربما هرب من العصفور (الدميري) بخلاف الطائر الذي ذكره الاب المحترم فهذا مشهور بشجاعته كما جاء في كتب العرب والافرنج . والمسألة تحتاج الى شرح طويل للتفريق بين البزاة والصقور عند العرب والافرنج ولون عيونها ولا يخفى ان سافيني من العلماء الثقات جاء الى مصر ووصف هذه الطيور وذكر اسماءها كما جاءت في ارسطو وابن سينا والدميري وغيرهم ولا شبهة ان الذي سماه سافيني يؤيؤاً كما تقدم هو الطائر الذي سماه Falco aesalon وهذا لا يمكن ان يكون العقصي)

الى ان قال الاب انستاس وابن آصى[1] هو في الارمية « وصا وواصا » وكثيراً ما تجيء الواو الارمية همزة عربية . ومن الغريب ان هذه الكلمة واردة في الاشورية للدلالة على حيوان وعلى المعنى العربي اي المتظاهر او المتراكب الشعر وقد ذكر الكلمة صَوْبَين في معجمه ص ٢٨ وقال « آصو » اسم حيوان لعله الفأرة والمتظاهر الشعر » . قلت وهذا المعنى يتعلق بابن آصى فانهُ متراكب الشعر

ولابن آصى اسم آخر اشهر من هذا هو اليَوَصّي او اليَوَصّي . ولعل الاصل هو الارميّ « واصا » فتلاعبت به السن الناطقين بالضاد كما يقع مثل ذلك كثيراً في الالفاظ العامية والاصطلاحية . على اني اظن ان الكلمة منسوبة الى وَصَّ يَوِصُّ بمعنى وَصْوَصَ يُوَصْوِصُ وكلا الفعلين عراقي كما تعرف بمعنى صَوَّتَ صوتاً خفيفاً يقال ذلك للطيور ولاسيما للصوائد منها

(١) وجاءت روايات لفظه مختلفة وأصوبها ابن أصى لانه لو كان ابن آصي لقيل ابن آصٍ ليساوي وزن رام ودانٍ . وبقية اللغات لا وجه لها في العربية الا ابن آصى فانه مشتق من اصي بمعنى اصو اي ركب شعره بعضه بعضا وتظاهر . ويجوز ان يقال ابن آصى وزن هاجر وجائم وهو بمعنى المكسور الصاد . فيكون كبني أصى

فانها اذا قبضت على فريستها اسمعت صوتاً خفيفاً . والنسبة الى الفعل معروفة في لغتنا كما قالوا الكُنْتي نسبة الى كُنْتُ والبلعي نسبة الى يلعَ واليرفئي نسبة الى يرفأ الى غيرها . اما انهُ قيل فيه ايضاً اليَوصَّى بالقصر فهذا حادث من عدم تنقيط الياء في الآخر فقد افسد هذا العمل الفاظاً لا تُعدّ ولو كان الجميع اجمعوها داثماً لما وقع مثل هذا الوهم الذي زاد اللغة الفاظاً على غير طائل

واما ان ابن آصَى هو اليَوصّي فظاهر من قول صاحب التاج في مادة أص ي: « وابن آصَى طائر شبه الباشق الاّ انه اطول جناحاً وهو الحذاء [1] يسميه اهل العراق ابن آصَى كما في التهذيب » اه كذا والصواب « اليَوصّي » كما في التهذيب والدليل انهُ قال في مادة وص ي: ويوصَّى [2] بفتحات مع تشديد الصاد وقيل بكسر الصاد المشدَّدة [3] وقيل هو بالتاء الفوقية [4] طائر قيل هو الباشق وقيل هو الحرّ عراقية ليست من ابنية العرب ... » . وقال في يَوَص: اليَوصّي [5] اهمله الجوهري وصاحب اللسان وهو بفتح الياء والواو وكسر الصاد وبالياء المشددتين ووزنهُ البيت بفَعَّلي وقال هو طائر بالعراق شبه الباشق الاّ انهُ اطول جناحاً من الباشق واخبث صيداً او هو الحرّ ونصّ البيت وهو الحرّ . وقال ابو حاتم في كتاب الطير : قال الطائي او غيره : الحرّ من الصقور شبه البازي يضرب الى الخضرة اصفر الرجلين والمنقار صائد . وقال آخرون: بل الحرّ الصقر كذا في العباب...» اه واليَوصّي هو المسمى عند العلماء Falco babylonicus على ما حققتهُ . فليحفظ ومن الغريب انك لم تتعرض لذكر هذا الطائر في ما ذكرتهُ من الالفاظ العربية ولا من الالفاظ العلمية ولا جرم ان ذلك نسيان منك لو سهو . انتهى كلام الاب انستاس

(اقول ان اغفال اليَوصّى في ما نشرتهُ هذه المرة كان سهواً مني وقد حققتُ هذا الطائر في سنة ١٩٠٩ وقلت في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٥ ما نصه اليوصّى Falco babylonicus طائر من الجوارح في حجم الحرّ وشبيه به . قال ابن سيده « اليوصّى طائر كالباشق الاّ انه اطول جناحاً واخبث صيداً » وقال الدميري « اليوصى طائر بالعراق اطول جناحاً من الباشق واخبث صيداً وهو الحرّ » . فعدم ذكري له في ما نشرته هذه المرة كان سهواً مني وحقه ان يضاف في الصفحة ١٠٤ من معجم الحيوان والسطر الثاني قبل شاهين العراق)

وفي ص ٤ ذكرت الشَّعشَر بمعنى الحبارى وانا لم اجد هذه الكلمة الاولى في ما لدي

(١) كذا . وهذا غلط ظاهر لان الحذأة لا تتعرض لصيد كبار الطير بل لصغارها وربما لم تتعرض لها بل للجرذان والفئران وان اشباهها والصواب هنا ان يقال وهو الحر (٢) كذا بلا اداة التعريف وكذا في المخصص (٣) اي يوصي وهذا غير صحيح لانهُ لو كان كذلك لقيل يوصّ اللهم الا ان يكون ممنوعاً من الصرف بالعلمية والاعجمية وهو غير صحيح (٤) اي توصى او توصى وهو غير وارد في دواوين الابنية (٥) كذا بالتعريف بخلاف ما قال في وصي

من الكتب . وذكرت لك سابقاً في ما يتعلق بالحفش والزجر . وقد وجدت عندي في مقيداتي استور بهذا المعنى ايضاً اي Sturgeon . ولا جرم انهُ معرب الافرنجية المذكورة ؛ وقرأت اللفظة في احد الكتب العربية ونسيت ذكر محل ورودها . انتهى كلام الاب انستاس

(اقول ان الصُّعْتُر خطأ مطبعي وصوابهُ الصُّعْتُر بالقاف لا بالتاء . اما الحفش فكتب اليَّ انهُ هناك غير هذا اسمهُ بالانكليزية Wrasse واما الزجر فذكر في الاب العلامة ان اللفظة سريانية الاصل)

الى ان قال الاب العلامة : والآن آتي لاهنئك اعظم تهنئة لوقوفك اتم الوقوف على معنى القُنْفُع يعني القأر الشائك فاني كنت عالجت معرفة هذه الكلمة وصرفت ساعات بل اياماً لتحقيق معناها وفي الآخر توفقت لهُ وذلك ان القُنْفُع تنظر الى اليونانية Knaphy او Gnaphos ومعناها المكسوب او شوك الجمال ومُشْط النداف او النحّاد . فاذا حذفنا os (وهي علامة الاعراب عندهم) من آخر الكلمة بقي لنا «قنف» بل «قنفع» لأن العين لا وجود لها في كلامهم وتحذف عندهم اذا نُقلت لفظة من الساميات الى لغتهم . ولي رأي آخر هو ان القنفع ربما تكون منحوتة من قَنَفٌ (شعرهُ اذا قام فزعاً ويقوم الشوك في هذه القأرة وفي القنفذ او نحوهما مقام الشعر)ومن فَصْعاء (اي فَأرة) فقالوا في اول امر نحتهِ قَنْفَع ثم ابدلوا الفاء الاولى المدغمة نوناً فصارت القنفع اي القأرة الشائكة . وابدال احد المدغمين نوناً شائع عندهم وكثير الشواهد من ذلك : الرَّنْز والإنجاص والإنجار والإنجانة والخُرْنابة والقَنْبُرة والخرنوب والحنظ في الرَّزّ والإجاص والإجّانة والأجّار والخرّابة والقُبَّرة والخرّوب والحَظّ الى ما يحمى ذكرهُ . اذن القُنْفُع هي القأرة الشائكة وانهُ يجوز ان تجيء بمعنى القنفذ . لكن المعنى الاول احسن لما ذكرناه من الاسباب اللغوية . انتهى كلام الاب انستاس . (اقول الحمد لله فقد نجوت منهُ هذه المرة)

الى ان قال : وذكرت هازجة وهوازج في ص ٥ نقلا عن الدكتور بوست وهذا لا يجوز لغوياً . لان الهازجة اسم فاعلة واسم الفاعل وانفاعلة يدل على ذي فعل يكون بعد قليل على ذي فعل مستمر . فتقول « هذا رجل قاتل » يدل على احد امرين . اما انهُ قد قتل في الماضي واما انهُ يقتل عن قريب . وكذلك قولك : الشارف . فالشارف من الناس الذي سيصير شريفاً عن قريب . اما اذا كان ذا شرف اليوم وبعده فيقال «شريف» اي يفرغ صَوْغهُ في قالب المبالغة . وفعيل من صيغ المبالغة ولهذا لم يَجُز ان يقال : هازجة بل هزّاجة والجمع هزّاجات . الم تَرَ انهم لم يسمّوا طائراً باسم فاعل الا طائرين واسماهما مشكوك في اصلهما والأغلبها موزون اوزان مبالغة كنَسّال وفعّال وفَعّال وفَعّل وفَعّلة وفعيل الى اشباهها

وذكرت مراراً «القانون» ترسترام واظن ان صحيح التعبير « القانوني » ثم ان الانكليز

ومن اسمائها عند علماء الحيوان Echidna كما جاء في ص ٩٤ فلا خلاف هنا بيننا

«اما الحرذون فلا شبهة انه ما ذكرتُ أي انه نوع من العضرفوط ولو تعددت اسماؤه الثلمية وقد سماه جفروى Stellio vulgaris واندرسن Agama stellio وأحدث اسمائه Stellio stellio فهذا الحيوان واحد ولو تعددت اسماؤه وما ذكرته هو الصواب في الصفحة ٧ والصفحة ٢٣٥ وصورته في آخر الكتاب هي الصواب وهو شبيه جداً بقاضي الجبل وصورته الحقيقية في مطول وبستر»

ولم تذكر الدويبة المعروفة باسم «ابو بُريص» وهو Agama colonorum (راجع دوزي) والذي اعرفهُ ان ابا بريص مشهور بهذا الاسم في بغداد وهو المسمى Gecok كما جاء في معجمك ص١١٣ فدوزي ناقل غير محقق بنفسه والناس لا تعتمد الآن الاَّ على التثبُّت في الامور والامعان في التدقيق

(واما ابو بريص فلا شبهة انه كما ذكر الاب انستاس وما ذكرتُ في الصفحة ١١٣ من المعجم اما ما جاء في دوزي خطأ)

لم يذكر أحد حقيقة الجعلان قبلي وكان بعضهم يحرِّف الكلمة مفردَها وجمعَها وانا أثبتُ امرها والدليل اني لم ارَ من تكلم عليها كلاماً علميًّا قبلي

(أما الجعلان فقد نسبتها الى الاب المحترم في الصفحتين ٨٧ و ١٥١ في الكلام على Dragon-fly و Libellulidae

وفي الصفحة ٣ : ذكرت الكواسر ومنها كواسر الليل وكواسر النهار اوبالعكس وفي ص٤ قلت : لا يقال كاسر الاَّ للطير سمي بذلك لانه يكسر جناحيه » اه . قلت اذن كل طائر من جارح وبغاث يسمى كاسراً لان جميع الطير حتى العصافير تكسر اجنحتها عند النزول واذن لا يستعمل الكاسر بمعنى الجارح فقط . والذي رأيتهُ بمعنى الجارح الصائد وتجمع على صوائد والكلمة وردت في المخصص وصبح الاعشى وفي غيرهما . اما الكاسر فلم ترد الاَّ في قولهم كاسر العظام للطائر الذي ذكرتهُ في ص ١٧٧ من معجمك وكنتُ قد تكلمت عليهِ طويلاً وقبلك في المشرق . واظن انك طالعت في الضياء (١١ : ٣٦) قول الشيخ ابراهيم اليازجي : ووحش كاسر اي ضار او مفترس عامية وانما الكاسر في مثل هذا من صفات جوارح الطير »

قلنا وقد يكون الكاسر انساناً وطيراً وحيواناً . ومنهُ في التاج «وهو كاسر من قوم كُسَّر كُكَّم وهي كامرة من نسوة كواسر والكواسر الابل التي تكسر العود » اه . افلا تنصت بعد هذا مباع الحيوان بالكواسر اذا كانت تكسر عظام صيدها؟ فتقييد اللغة بمثل تلك القيود يمنعها دون التحليق مع سائر الفنى . واما الكاسر للطيور فقد قالوا عقاب كاسر وباز كاسر الى غير هذين الجارحين كالكاسر العظام . انتهى كلام الاب انستاس

(قلت اريد لفظة تقوم مقام هذه اللفظة أي لفظة تشمل سباع الطير من الجوارح كالعقبان ومن غير الجوارح كالنسور . والرخم وقد اقترح احد الادباء القواطم واظنها موافقة أما الجوارح فليست موافقة فالنسر والرخمة ليسا من الطيور القاشدة أي ليست من جوارح الطير لكنهما من هذه الرتبة)

كتاب جامع المفردات

تأليف الغافقي (توفي نحو ٥٦٠ هـ) — انتخاب ابن البيطار (توفي سنة ٦٤٦ هـ)
نشره وعلق عليه الدكتور ماكس مايرهوف والدكتور جورجي صبحي

لم نرَ كتاباً هذه السنة اجتمعت فيه شروط البحث الدقيق والموازنة والاسناد كما اجتمعت في هذا الكتاب

فعلماء العرب اشتهروا بتعمقهم في علم المادة الطبية ، على اثر ترجمة كتاب ديوسقوريدس من اليونانية ، اكثر من اشتهارهم باي علم آخر . والمظنون ان ترجمة كتاب ديوسقوريدس كانت بالسريانية وتمت في عصر العباسيين ثم نقل الكتاب من السريانية الى العربية واصحّ ترجمة هي الترجمة التي وضعها حنين ابن اسحق في القرن الثالث الهجري . فجاء كتاب ديوسقوريدس مثالاً احتذاهُ العرب في علم الادوية واشهر اصحابها الرازي وابن سينا وابن جزلة وابن الواقد وابن صمجون والشريف الادريسي والغافقي وابو العباس وابن البيطار. الاّ ان معظم مؤلفاتهم قد استبدّت بها ايدي الضياع ولم يبق الاّ كتاب ابن البيطار وقد احتوى على كل ما جاء في كتب الاوائل ، وهو في طبعة كليرا صحّ وصفاً واصلح نصّاً منهُ في طبعة بولاق

اما كتاب الغافقي فليس منهُ الاّ نسختان احداهما مغلوطة ومحفوظة ببلدة غوتا بالمانيا والثانية في مكتبة المغفور لهُ احمد تيمور باشا وهي صحيحة مضبوطة وقد تكرّم قبل وفاته — رحمة الله عليه — فسمح للناشرين العالمين تصوير صفحاتها بالفوتوغراف

ولدى الموازنة بين كتاب ابن البيطار وكتاب الغافقي وجدا ان مؤلف ابن البيطار ليس الاّ نسخة كاملة لكتاب الغافقي زيد عليها بعض ملاحظات من المؤلفين الذين خلفوا الغافقي . ويندر ان نجد في كتاب ابن البيطار ملاحظة خاصة به . ثم ان كتاب ابن الغافقي — في رأيهما — ليس الاّ شرحاً للترجمة العربية لمؤلف ديوسقوريدس وقد اضيفت اليه اسماء النباتات والادوية التي عرفت بعد ما اتسع نطاق معرفة الاطباء العرب في فن العلاج . وقد شرح الغافقي هذه الادوية الجديدة شرحاً مطولاً يدلّ على مقدرة تبعث على الدهشة وذكاء متوقد واضاف اليها كثيراً من الادوية التي في شمال افريقيا وبلاد الاندلس

ولم يكتف الناشران باخراج طبعة عربية سليمة للكتاب الفاخر مع شدة ما عانياه في قراءة النسخ التيمورية والمقابلة بينها وبين نسخة ڤا والعودة احياناً الى كتاب ديوسقوريدس نصب لهما المستحيل ، بل انهما اخرجا ترجمة انكليزية حرفية جهد الطاقة

وقد سارا في الطبعة العربية على الخطة التي يجري عليها المستشرقون في طبع الكتب القديمة فانهم استخرجا نصه في رأيهما اقربها يكون الى الصواب ووضعا امام كل لفظة طبعا اكثر من قراءة واحدة لا تقبل الريب ، وقلما وردا ما جاء في النسخة الخطية الاخرى اذا اعتمدا نسخة دون اثنانية او ما ورد في النسختين الخطيتين اذا كانا قد اعتمدا قراءة خاصة وصلا اليها بعد البحث والاستقصاء

وقد فعلا ذلك كذلك في الترجمة الانكليزية وكتبا اسم كل دواء بلفظه العربي او المعرّب بحروف افرنجية وعربية واضافا الى ذلك اسمه الاجنبي الشائع واسمه العلمي

خذ امثلة صفحة ١٤ من الاصل العربي فقد ورد في الترجمة الانكليزية ما يأتي :

Usnea est Fragrant (tree) moss. Odorant lichen. Alemoria usnesidea (Lucl. no 88).

ثم انهما علقا على بعض الادوية شروحاً غاية في خطورة الشأن

فعمل العالمين الفاضلين ليس نشراً وترجمة فقط ، بل هو عمل ينطوي على تحقيق وتعمق في الطب واللغة واسماء النباتات العلمية فهما جديران بشكر جمهور المتعلمين في الشرق بالشكر والثناء

***

وقد رفعا الكتابين الى من «احيا حضارة الفراعنة والعرب بعد موتهما ، الى الآخذ بيد العلوم والفنون ورافع لوائها ، الى باعث النهضة الحديثة في مصر ، الى مليكنا المفدّى مولانا صاحب الجلالة احمد فؤاد الاول »

امير الشعراء

اثنا عشر عاماً في صحبته

وضع الاديب احمد عبد الوهاب ابن المرحوم تيمور احمد شوقي بك رحمهُ الله ، كتاباً يشتمل على ما عرفهُ عن شوقي في خلال اثني عشر عاماً لازمهُ فيها . ومن ابدع فصول هذا الكتاب الفصل الذي يصف فيه المؤلف كيف كان شوقي ينظم الشعر . قال في مقدمة الكتاب : « في هذا الكتاب يعرف القراء كيف كان شوقي بك ينظم لاقي شعره وعلى اي صورة كان ذلك وفي اي الاوقات كان يحبّب اليه النظم . وفي هذا الكتاب ايضاً يعرف القراء كيف كان يتريّض وكيف كان يعمل وكيف كان يجدّ وكيف كان يلهو وكيف كان يحب وكيف كان يكره وفي الجملة يعرف القراء كيف كان يخالط الحياة ويمتزج بها » . وهو في ١٩٢ صفحة من القطع الصغيرة ومزدان بصور كثيرة وثمنهُ ٥ قروش صاغ

مطبوعات جديدة

﴿ قصيدة ﴾ ترجم حبيب بك غزالة قصيدة شوقي في النيل التي مطلعها

من اي عهدٍ في القرى تتدفق
وبأيّ كفٍّ في المدائن تغدق

باللغة الفرنسية ترجمة حوت لبّ معاني القصيدة . وهو عمل يشكر عليه لأنهُ لا بدَّ لنا من ترجمة روائع شعرائنا الى اللغات الاوربية اذا شئنا ان ننصف اذا عنَّ لنقّادها الحكم على أدبنا وشعرنا

﴿ موازين النقد الادبي ﴾ التى الاديب كامل كيلاني سكرتير رابطة الادب الجديد محاضرة في نادي هذه الرابطة موضوعها «موازين النقد الادبي» عرض فيها بالاسهاب الى عيوب النقد عندنا فذكر الهجو والعربدة والببغاوية والاسراف ، وهي من الشاوي، التي يجب ان يترفع عنها الناقد لكي يستطيع ان يؤدي مهمة التثقيف والتقويم على اوفى وجه . ولما سئل المحاضر لماذا حصر قوله في عيوب النقد مع ان موضوع المحاضرة « موازين النقد » قال ان الكلام في العيوب ليس الا بمثابة مقدمة للكلام في الموازين في محاضرات تالية . ونحن نسجل هذا القول على انهُ وعد

﴿ غرازيلا ﴾ احدى بدائع لامارتين الشاعر الفرنسي الكبير . فيها يمتزج الشعر بالنقد بالفلسفة بالاجتماع في قصة ساذجة ينظم دررها حب صافٍ كالماء المترقرق . فانت تبدأ القصة فتحسبها مذكرات رحلة رحلها لامارتين الى ايطاليا فاذا وصف الرحلة جانب واحد من قصة تستهويك فلا تتركها حتى تتمها . وقد عني بترجمتها اسكندر كرباج احد ادباء لبنان في البرازيل واهدتها مجلة الشرق العربية البرازيلية الى مشتركيها . والترجمة لا بأس بها من حيث الدقة ولكنها تحتاج الى قليل من التنقيح لتسلم من هفوات قليلة تشوّه بعض محاسنها

﴿ الطاغية ﴾ وهي دراسة تاريخية تأليف شلر الشاعر الالماني الكبير معاصر جوته ونديُّهُ نقلها الى العربية الاديب فائق رياض وطبعت في دار المجلة الجديدة وتطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع المدابغ بمصر

﴿ سوريا في فجر التاريخ ﴾ فصول وضعها محمد النمان السخيطه مدرس التاريخ والجغرافية في مدرسة التجهيز بحلب وفقاً لبرنامج الصف الخامس التجهيزي . واخرجها عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية بحلب على نفقته

والكتاب مدرسي يجمع في فصوله اهم ما عرف عن الحثيين والاموريين والكنعانيين والفينيقيين وغيرهم من الشعوب القديمة التي قطنت سورية وما خلفته من آثار عمرانها وما كان يربطها بالمصريين وغيرهم من الروابط

الجزء الاول من المجلد الثاني والثمانين

صفحة

١ رواية الاشعة الكونية
٩ الطبائع والامزجة . للامير مصطفى الشهابي (مصوّرة)
١٥ غزل فلسفي (قصيدة) للاستاذ عباس محمود العقاد
١٧ معرض المذاهب السياسية . للدكتور عبد الرحمن شهبندر
٢٤ سبيلا العظمة
٢٥ سر النبوغ في الادب . لمصطفى صادق الرافعي
٣٤ كان الكون ذرة وانفجرت
٣٧ الفكرة . لاسماعيل مظهر
٤٢ قيثارتي (قصيدة) . لعلي محمود طه المهندس
٤٣ اثر الآلات في الحضارة
٥٤ الحرب الكيميائية . لحبيب اسكندر
٥٨ غداة الحرب القادمة (مصوّرة)
٦٢ المنذر بن ماء السماء . ليوسف رزق الله غنيمة
٦٧ الميت الحي (نثر شعري) . لتوفيق مفرّج
٧٠ عصر الانسانية المقبل . لاندره موردي
٧٥ الوراثة والمحيط . للدكتور شريف عسيران
٨٣ البسمات الساخرة . (قصيدة) لحسن كامل الصيرفي
٨٤ آثار جرش الفخمة . لداود . ت فيشر (مصوّرة)
٨٨ الحضارة الفينيقية . للشيخ بولس مسعد (مصوّرة)
٩٤ تعلم اللغات الاجنبية
٩٧ الفيلسوف سبينوزا . لحنا خباز

١٠٢ باب الزراعة والاقتصاد * نظرات في الحالة الزراعية
١٠٨ باب شؤون المرأة وتدبير المنزل * حديث الفائدة . التغذية والمرض . غذاء الطيب من صحة الجمهور . التأمين على صحة العامل . المحافظة على السرطان
١١٠ مكتبة المقتطف * نظر في معجم الحيوان . كتاب جامع المفردات . امير الشعراء . قصيدة النيل . موازين النقد الادبي . فرازيلا . الطاقية . سورية في فجر التاريخ

طبقات الأرض

او بسائط الجولوجية

وفقاً للمنهج الذي أقرته وزارة المعارف العمومية

﴿ للسنة الثالثة الثانوية ﴾

بقلم

فؤاد صروف

ثمن النسخة خمسة قروش تضاف اليها اجرة البريد وهي قرش صاغ

ويطلب من المؤلف بادارة المقتطف بمصر

خطاط جلالة الملك

المحامي نجيب بك هواويني

واضع كتاب التزوير الخطي

مستعد لفحص الاوراق المطعون فيها بالتزوير واعطاء تقاريرفيها. ويتولى عمل كليشيهات واختام. ويطلب منهُ ومن مكتبة امين افندي هندية بالموسكي بمصر ومن المكاتب المشهورة تآليفه وهي : (١) كتاب التزوير الخطي وهو اول كتاب وضع لمعرفة الخطوط والاختام المزورة والصحيحة عربية وافرنجية لا يستغني عنهُ احد من المحامين والقضاة والخبراء واصحاب الاشغال وهو علمي عملي ثمنهُ ٥٠ قرش صاغ . (٢) كراريسه السلاسل الذهبية الرقعة والنسخ والثلث والفارسي لتعليم الخطوط الجميلة بأسهل اسلوب مبتكر ووقت قصير .(٣) المجلة وهي مجلة الاحكام العدلية مشروحة ومشكلة بقلمهِ وهذه المجلة والتزوير الخطي مقررين رسميًا في سورية وغيرها والكراريس الخطية مقررة من قديم لدى وزارة المعارف في تركيا وغيرها من البلاد العربية ومنتشرة في المدارس المشهورة في جميع البلاد

يكفي كتابة كلمة «مصر ٩» عند مخابرة هواويني . او مخاطبة تليفون ٥٠٣٣٠

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها ادارة المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

صندوق بوستة ٩٥٤ مصر تليفون رقم ٥٩٠٣٠

ص	
٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٧٠	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٣٥	القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة اولى)
٧٠	القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	القاموس المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	قاموس الجيب عربي انكليزي فقط
١٥	قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
٧٠	« سقراط سيجرو عربي انكليزي (بالتفظ)
٥٠	« سقراط سيجرو انكليزي عربي (بالتفظ)
١٠٠	« سقراط انكليزي عربي وبالعكس
١٠	التحفة العصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (بالتفظ)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد مسعود بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « «
١٢	مراجعات في الادب والفنون (للاستاذ عباس العقاد)
١٥	روح الاشتراكية (لتوستاف لوبون) وترجمة (للاستاذ محمد زعيتر)
١٥	روح السياسة « « «
١٠	الآراء والمعتقدات « « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « « «
٢٠	الحضارة العربية (لتوستاف لوبون)
٨	مقدمة الحضارات الاولى « «
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
٥	مالي السبيل في مقصد النشوء والارتقاء
١٠	اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
٩	عثارات سلامه موسى
٨	نظرية التطور واصل الانسان « «
٢	اقاتول لراقص في مباظه (الاميرشكيب ارسلان)
١٥	الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف تسوسها (حسين عبدالله)
١٠	حساد الحب (للاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني)
١٠	قبض الريح (« « « « «)
٨	نسمات وزوابع شعر منثور منصور
١٠	رسائل غرام جديدة (للاستاذ فتحي عبدالواحد)
١٠	الفريان في الادب العصري (للاستاذ خليل نعيمة)
٥	حكايات الاطفال ج اول (مصور بالالوان)
٥	« « ثان « «
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فهمي)
٥	خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥	التعليم والصحة
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكرى وانين غلوم « « «
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران) «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٢٥	المرأة وفلسفة التناسليات (للدكتور لطفي)
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها « «
١٥	الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد العاوي)
١٠	تايبس « « «
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل دلغر)
١٠	القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية أهوال الاستبداد ، مصورة
١٠	رواية فاتنة الهندي ، او استعادة السودان
٨	رواية الانتقام المذهب (اسعد خليل داغر)
٥	نقر وعفاف (الاستاذ احمد رأفت)
١٢	رواية باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	غرام الراهب او الساحرة المجنونة
٧٥	رواية روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥	رواية ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠	رواية باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠	رواية الملكة ايزابو ، ٤ اجزاء «
٢٠	رواية الاميرة نوستا ، جزآن «
٢٠	رواية عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦	رواية كابتان ، جزآن «
١٦	رواية اتومية الحمراء ، جزآن «
١٢	رواية المسيح ، جزآن «
١٠	رواية فارس الملك «
١٠	رواية ضحايا الانتقام «
٥	رواية المتكرة الحسناء «
٥	رواية مسوفة الاسود «
٥	رواية شهداء الاخلاص «
٨	رواية المرأة المفترسة «
١٦	رواية دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسو الاول « «